

أَحْسَنُ تَفْسِيرٍ لِلْقُرْآنِ بِفَيْضٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

مَجْلَدُ الْمَلَكِ لَا يُدْرِكُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

الجزء التاسع والثمانون بعد المائة
الآية (١٨٠) ، سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

المرجع الديني للمسلمين
الشيخ صالح آل صالح
أساذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي جعل النبوة ملازمة لوجود الإنسان في الأرض ، فلم يهبط آدم وزوجته الأرض إلا وقد نال مرتبة النبوة ، وخصه الله عز وجل بأن نفخ فيه من روحه ، وكلمه قبلاً ، إذ قال ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾^(١) ، لتكون أول كلمات الوحي من الله إلى الأنبياء وجنس الإنسان على وجوه :

الأول : سماع آدم لكلام الله قبلاً من غير واسطة ملك أو بشر ويدل عليه ما ورد عن أبي ذر قال : سألت النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم : يا رسول الله كم الأنبياء ، قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، قال : قلت : يا رسول الله كم المرسلون منهم ، قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر وبقيتهم أنبياء .

قلت : أكان آدم نبياً ، قال : نعم كلمه الله سبحانه وخلقه بيده ، يا أبا ذر أربعة من الأنبياء عرب : هود وصالح وشعيب ونبيك .

قلت : يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب ، قال : مائة وأربع كتب ، منها على آدم عشر صحف ، وعلى شيث خمسين صحيفة ، وعلى أخنوخ ، وهو إدريس ثلاثين صحيفة ، وهو أول من خط

بالقلم ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان^(١).

الثاني : لقد أكرم الله عز وجل آدم والبشر جميعاً بهذا الكلام في الجنة ولم يهبط آدم إلى الأرض إلا وهو كليم الله ، وفيه إشراقة ومصدق من مصاديق خلافة الإنسان في الأرض.

الثالث : لقد أخبر الله عز وجل الملائكة بأنه ﴿جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) ، ثم لم يلبثوا أن سمعوا كلام الله عز وجل مع آدم وهو في الجنة وهل كانوا يعلمون أن هذا الذي صاحبهم في الجنة لمدة قليلة هو الذي سيكون هو وذريته خلائف في الأرض ، الجواب نعم ، (عَنِ السَّيِّدِ ، قَالَ : أَخْرَجَ إِبْلِيسُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَأَسْكَنَ آدَمُ الْجَنَّةَ ، فَكَانَ يَمْشِي فِيهَا وَخَشَا لَيْسَ لَهُ زَوْجٌ يَسْكُنُ إِلَيْهَا ، فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَ رَأْسِهِ امْرَأَةٌ قَاعِدَةٌ خَلَقَهَا اللَّهُ مِنْ ضِلْعِهِ .

فَسَأَلَهَا : مَا أَنْتَ ، فَقَالَتْ : امْرَأَةٌ .

قَالَ : وَلِمَ خُلِقْتَ ، قَالَتْ : تَسْكُنُ إِلَيَّ .

قَالَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ يَنْظُرُونَ^(٣) ، مَا بَلَغَ مِنْ عِلْمِهِ : مَا اسْمُهَا يَا آدَمُ ، قَالَ : حَوَاءُ ، قَالُوا : وَلِمَ حَوَاءُ ، قَالَ : إِنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ شَيْءٍ حَيٍّ ، فَقَالَ اللَّهُ ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^{(٤)(٥)}.

(١) الكشف والبيان ٨٠/١٤ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) أي سأله الملائكة ليختبروا علمه .

(٤) سورة البقرة ٣٥ .

(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٩٦/١ .

لقد استبشرت الملائكة بوجود آدم وحواء معهم في الجنة ، وفيه دعوة للناس للتعايش والتآلف ونبذ العنصرية والفرقة والإستبداد والنفرة من الآخر ، إذ أن الجامع هو العبودية لله عز وجل ، وقد ورد في آية البحث قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) ، فكل شئ هو ملك لله وهو عائد له سبحانه ، والجامع المشترك بين الملائكة والناس هو عبادة الله والخضوع له سبحانه قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٢).

وهذا الجامع في صبغته العبادية نعمة عظمت على الخلائق يستلزم مناقول الحمد لله ، في الصباح والمساء ، وورد في دعوة زكريا لقومه كما ورد في التنزيل ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^(٣).

لقد توجه الملائكة بالسؤال عن خلافة آدم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٤) ، على وجه الإستفهام والتفقه والإستعلام ليشكروا الله عز وجل على ضروب الحكمة في هذه الخلافة ولم يكن سؤالهم عن اعتراض أو استفهام إنكاري.

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة النحل ٨٩.

(٣) سورة مريم ١١.

(٤) سورة البقرة ٣٠.

الحمد لله في السر والعلانية ، وفي السراء والضراء ، والحمد لله على النعم الظاهرة والباطنة ، والمستديمة والمتجددة والمستحدثة كل يوم بفضل ولطف منه تعالى .

الحمد لله على نعمه علينا والتي نعجز عن إحصائها ، قال تعالى ﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١).

الحمد لله على التوفيق الى الحمد والشكر له سبحانه ورجاء الهداية إلى تعاهدنا للحمد والإقامة عليه وتجليه بالقول والعمل ، وفي التنزيل ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾^(٢)، ومع أن منزلة الحمد لله من أعظم المنازل فانها لا تبعث الغرور عند صاحبها ، إنما تجعل التواضع والخضوع سيداً في عالم الأفعال ، وفيه ترغيب للناس بالحمد لله والإقامة عليه ، وهو واقية من الإرهاب وحرب على الظلم والتعدي ، لما فيه من استحضار ذكر الله رب العالمين ، وإدراك قانون وهو حرمة الإرهاب لأنه من أشد ضروب المنكر الذي جاء القرآن بالنهاي عنه .

الحمد لله الذي بفضل ولطفه تتم الصالحات والذي جعل لكل شئ أجلاً وأمداً ، وهو سبحانه الذي يغفر الذنوب ويعفو عن السيئات ، وفي التنزيل ﴿يُحُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٣)، وفيه دعوة للدعاء وسؤال استدامة النعم ، ومحو وإزالة المصائب والمحن .

(١) سورة ابراهيم ٣٤.

(٢) سورة الأعراف ٤٣.

(٣) سورة الرعد ٣٩.

وهل الإكثار من الحمد لله سبب في صرف ضروب الكدورة والحزن ، أم لأبد من الدعاء بخصوصها ، الجواب هو الأول ، ومن خصائص التلطف بالحمد لله بعث السكينة في النفس وطرد الغفلة عنها ، لذا تفضل الله عز وجل وجعل كل مسلم ومسلمة يتلوان قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) ، سبع عشرة مرة في الصلاة اليومية الواجبة ، عدا الصلاة المستحبة لأنها آية من سورة الفاتحة التي يجب قراءتها في كل ركعة من الصلاة.

الحمد لله الذي يجمع حبه والخوف منه في القلب من غير تزامح بينهما ، ومع صبغة التضاد الذاتي بينهما يكون كل واحد منهما عضداً للآخر في بقاءه في القلب وسلطانه على الجوارح بالمبادرة الى إتيان الصالحات والإمتناع عن المعاصي والسيئات .

الحمد لله الذي أنزل القرآن كتاباً سبقته بشارات الأنبياء به ليحفظ جهادهم وقصصهم وصبرهم في طاعة الله ، قال تعالى ﴿كَرَزَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾^(٢).

وتفضل الله عز وجل وجعل كل آية من القرآن ربيعاً للقلوب ، وضياء ينير درب الهداية ، وطريقاً موصلاً إلى الإقامة في النعيم الأخرى .

ومن إعجاز القرآن أمور :

الأول : نزول آيات القرآن على نحو التوالي والتتابع والنجوم .

الثاني : إبتداء كل سورة بالبسملة باستثناء سورة واحدة هي سورة براءة ، ثم مجئ البسملة في وسط آية من سورة النمل بقوله

(١) سورة الفاتحة ٢.

(٢) سورة آل عمران ٣.

تعالى ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١)، لتجري البسملة على لسان بلقيس وتكون مقدمة لإسلامها وفيه بشارة بأن تلاوة المسلمين للبسملة سبب للهداية ونشر شآبيب الرحمة بين الناس ووجود البسملة في بدايات سور القرآن وتلاوة كل مسلم ومسلمة لها في الصلاة كل يوماً جهرًا وإخفاتاً زاجر عن الإرهاب، وبرهان وتأكيد يومي عام ومتجدد كل يوم لقانون (التضاد بين القرآن والإرهاب)^(٢).

الثالث : نزول آيات كثيرة من القرآن بحسب الوقائع والأحداث وما يسمى علم أسباب النزول.

الحمد لله الذي جعل هذا الجزء هو التاسع والثمانون بعد المائة من تفسيري للقرآن في آية علمية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ، ويختص هذا الجزء بآية واحدة من القرآن وهو قوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾^(٣).

وتضمنت آية البحث ذم الذين يبخلون في الحقوق ، ويمتنعون عن الإنفاق في سبيل الله ، لبيان أن امتناع الكفار عنه من المسارعة في الكفر ، وهم لا يقفون عند هذا الإمتناع إنما يسخرون أموالهم في محاربة النبوة والتزليل ، ومحشدون ويسIRON الجيوش العظيمة لقتال

(١) سورة النمل ٣٠.

(٢) أنظر الأجزاء ١٧٩-١٨٠-١٨٣- من هذا السفر وهي خاصة بالقانون أعلاه والحمد لله سبحانه .

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

النبي وأصحابه وهو من الإرهاب العام في باب العقيدة والحرب على مبادئ التوحيد وإقامة الصلاة.

ومن الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعثته في مكة وهو من أوسط وأشرف أهلها نسباً وسيرة وخلقاً ، وتوارث آباؤه السيادة وتقاسموا الرئاسة فيها مع أبناء عموماتهم ، وتجلّى حسن سمت النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل إعلانه النبوة بصدقه في الحديث ، وأمانته في المال ، واحترازه من الفواحش والسيئات .

وعندما جاء الوحي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان أول ما نزل به جبرئيل قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١) ، لإرادة الإمتناع عن القتال ، وتنزه وإصحابه عن الإرهاب ، وكأن الآية تقول أصبروا إن قاتلكم الذين كفروا فإن قتالهم لكم مسارعة في الكفر .

ولا يمنعكم إيذاءهم وقتالهم لكم عن تحصيل العلم والإرتقاء في سلم المعارف الإنسانية ، وسيبقى إبتداء نزول القرآن بطلب العلم حجة بان الإسلام برئ من الإرهاب.

وجاءت سيرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتؤكد هذا القانون فلم يقم وأصحابه بغزو المشركين واشهار السيوف لقتالهم ، ولم يأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم باغتيال أحد رؤساء الشرك ، ولقد أظهر أصحابه في مكة الإنضباط التام وعدم رد الأذى بمثله أو أكثر أو أدنى منه.

ومن إعجاز القرآن أن كل آية منه تدعو الى الصبر والتحمل ، فكان المسلمون يلجأون الى الدعاء والصلاة لدفع شرور الكفار ،

قال تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَأِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(١).

وهل الصبر في الآية خاص بالصلاة أم يشمل الصوم ، المختار هو الثاني وإرادة المعنى الأعم في الإستعانة التي لا يطيقها غير المؤمنين .

و(على عادة العرب إذا ذكرت اسمين ثم أخبرت عنهما كانا في الحكم سواء،

ربما أضافت إلى أحدهما وربما أضافت إليهما جميعاً، يقول : من كان عنده غلام وجارية فليحسن إليه وإليها وإليهما كلها جائز)^(٢)

ويمكن أن تقسم معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى أقسام :

الأول : المعجزة الحسية كانشقاق القمر .

الثاني : المعجزة العقلية ، وهي نزول القرآن .

الثالث : تجدد وتكرار المعجزة الحسية.

(عن الشعبي فحدثني جابر بن عبد الله أن أباه استشهد يوم أحد وترك ست بنات ، وترك عليه دينا كثيرا ، فلما حضر جداد النخل ، قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت : يا رسول الله ، قد علمت أن والدي استشهد يوم أحد وترك عليه دينا كثيرا ، فأنا أحب أن يراك الغرماء.

(١) سورة البقرة ٤٥.

(٢) الكشف والبيان - للثعلبي ٣/٣٦٤.

قال : اذهب فيبدر كل تمر على ناحية ، ففعلت ، ثم دعوته ، فلما نظروا إليه أغروا بي تلك الساعة ، فلما رأى ما يصنعون طاف حول أعظمها ييدرا ثلاث مرات ، ثم جلس عليه ، ثم قال : ادع أصحابك.

فما زال يكيل لهم حتى أدى الله أمانة والدي ، وأنا والله راض أن أدى الله أمانة والدي ، ولا أرجع إلى أخواتي بتمرة ، فسلم والله البيادر كلها ، حتى إنني أنظر إلى البيدر الذي عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأنه لم ينقص منه ثمرة واحدة^(١).

الرابع : توثيق الآية القرآنية للمعجزة الحسية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرِّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(٢).

الخامس : توالي المعجزة العقلية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتلاوة المسلمين لآيات القرآن خمس مرات كل يوم ، والتدبر في معانيها ودلالاتها.

وإذ تضمنت آية البحث ذم الذين يخلون بالحقوق الشرعية فان آيات قرآنية كثيرة جاءت بالثناء على الذين ينفقون في سبيل الله ، وتتضمن بعض هذه الآيات تذكير الناس بالموت للزوم الإنتفاع من الحياة الدنيا كمزرعة للآخرة ، قال تعالى ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ

(١) البيهقي / دلائل النبوة ٦/٣٢٤.

(٢) سورة آل عمران ١٢٣.

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَكُنْتُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١﴾.

وتذكر آية البحث الموت بالدلالة الإلزامية وأنه نوع مقدمة وطريق للحساب والجزاء ، وأن البخل بالزكاة ، والإمتناع عن الإنفاق في سبيل الله سبب لشدة العذاب يوم القيامة .

لقد ذكرت آية البحث خصوص عذاب الذين ييخلون بحق الله بتطويق أعناقهم بافاعي يوم القيامة ، وجاءت آيات قرآنية بالإخبار عن عذابهم يومئذ على نحو الإجمال ، وقال تعالى ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٢﴾.

وعن سعيد بن المسيب في الآية (يعني انفقوا ولا تحشوا العيلة فإني رازقكم ومخلف عليكم) ﴿٣﴾.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال : لو أن رجلاً أنفق ما في يديه في سبيل من سبل الله ، ما كان أحسن ولا وفق له ، أليس الله يقول : ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين " يعني المقتصدين" ﴿٤﴾.

ليبان التدبير ، وتقديم حاجة النفس والعيال ، مع عدم ترك الصدقة والإحسان وجاءت بعض النصوص بالإخبار عن كون الإنفاق على العيال صدقة ، لكنه لا يتعارض مع وجوب

(١) سورة المنافقون ١٠.

(٢) سورة البقرة ١٩٥.

(٣) الكشف والبيان ١/٣٦٧.

(٤) البحار ٩٣/١٦٨.

واستحباب الإنفاق على الغير ، وعن ابن عباس في قوله ﴿وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ الْغَنِيُّ﴾^(١) ، قال : ما يفضل عن أهلك ، وفي لفظ قال :
: الفضل من العيال^(٢).

وكان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يقصده سائل أو فقير إلا وجاد بما تيسر .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا ،
وإماما مقسطا ، يكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ،
ويفيض المال حتى لا يقبله أحد^(٣).

لقد نزل القرآن بوجوب الزكاة وهو الذي جاء به الأنبياء
السابقون ومع أن الذين كفروا بنبوتهم جحدوا بوجوب الزكاة ،
فقد جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بوجوبها من غير خوف أو
خشية من الذين كفروا مما يدل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه
وآله وسلم ، وسيأتي في باب سياق الآيات الصلة بين آية البحث
وقوله تعالى ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾^(٤).

لقد استقبل الذين كفروا الأمر من الله ورسوله بدفع الزكاة
والترغيب بها بالصدود والجدال والمغالطة كما ورد في التنزيل ﴿وَإِذَا

(١) سورة البقرة ٢١٤.

(٢) الدر المنثور ٩/٢.

(٣) جامع معمر بن راشد ٢٠٤/٤.

(٤) سورة آل عمران ١٨٤.

قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١﴾.

وهل وجوب الزكاة وحرمة الربا من أسباب تجهيز كفار قريش الجيوش لمحاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الجواب نعم ، ومن المعجزات الحسية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن القرآن والسنة جاءا بعدد من الفرائض والمستحبات ، مع بيان المحرمات والمكروهات ، وإن أمة من المهاجرين والأنصار دخلوا الإسلام ودخلوا معارك الدفاع وسالت دماء الجراحات منهم واستشهد عدد منهم ، لبيان قانون وهو تعدد معجزات النبي في المقام من جهات :

الأولى : كل فرد دخل الإسلام هو معجزة حسية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثانية : صبر المسلمين على الأذى الذي تلقوه من المشركين معجزة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالثة : إسلام المهاجرين والأنصار ، وصبرهم في الدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعوة للناس لدخول الإسلام ، وباعث للخوف واليأس والقنوط في قلوب المشركين ليكون من معاني الخيبة في قوله تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْتَقِلُوا خَائِبِينَ﴾^{(٢) (٣)} ، أن من أسباب خيبة المشركين يوم معركة

(١) سورة يس ٤٧.

(٢) سورة آل عمران ١٢٧.

(٣) أنظر الجزء الحادي والتسعون من هذا السفر الذي صدر خاصاً بتفسير الآية أعلاه.

أحد هو صبر الصحابة في الدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسقوط سبعين شهيداً منهم يومئذ ، وسلامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من القتل .

ومن الإعجاز في آية البحث أنها تخبر عن صفة مخصوصة للذين يخلون بالحقوق الشرعية يعرفهم بها يوم القيامة أهل المحشر ، وتراهم الملائكة بهذه الهيئة فلا يحتاج أحد من الناس السؤال لماذا تطوق أعناق هؤلاء أفاعي .

لقد تلقى الذين كفروا إخبار القرآن عن تفاصيل عذاب أهل النار بالإستخفاف والإستهزاء وهو من أشد ضروب التكذيب . وهل انتفع الناس من آية البحث ، الجواب نعم من جهات :
الأولى : تثبيت قلوب المسلمين في مسالك الهدى .

الثانية : دحض وإبطال جدال المنافقين ، قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوكَ﴾^(١) .

الثالثة : تأهيل المسلمين للإحتجاج في فلسفة وجوب الزكاة وأنها عبادة لله مع بيان منافعها الدنيوية والأخروية .

الرابعة : تفقه المسلمين في الدين ومعرفة أضرار البخل في الحقوق الشرعية .

قال تعالى ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾^(١) .

وصيغ تكذيب شطر من الناس للأنبياء من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً ، وأشد ضروب التكذيب تجهيز قريش الجيوش تلو الجيوش لغزو المدينة ، وقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه كما في معركة بدر ، ومعركة أحد ، ومعركة الخندق ، وهجوم هوازن وثقيف على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بعد فتح مكة بنحو شهر لولا أن أخزى الله الكافرين .

لقد جاءت سورة كاملة بالزجر عن جمع الأموال وعدم إخراج زكاتها ، والإخبار بأنها تكون وبالاً على صاحبها يوم القيامة .

قال تعالى ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ* الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ* يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ* كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ (٢).

ومن أسباب البخل بالحقوق الشرعية حب الدنيا ومباهجها ، والسعي للكسب الكثير المتصل فيها ، قال تعالى ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (٣).

فنزلت آية البحث لتبين قانوناً وهو تنجز مصاديق من زينة الدنيا باخراج الزكاة ودفعها إلى مستحقيها ، ليتبع هذا الإخراج باليد دخول السكينة إلى القلب ، وترشح منافعها على الجوارح . وجاء القرآن بالحث على الإنفاق من غير اسراف أو بخل ولزوم الاعتدال بين التبذير والتقتير ، والصفة المحمودة ما كانت فضيلة بين

(١) سورة الحج ٤٢-٤٤.

(٢) سورة الهمزة ١-٤.

(٣) سورة البقرة ٢١٢.

طرفين كل منهما رذيلة ، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(١).

وقد أثنى الله عز وجل على الأنصار في مبادرتهم إلى الإيمان وإيواء المهاجرين إذ تجلت شواهد كثيرة لقوله تعالى ﴿وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢) ، وفي الوقت الذي ذم الله عز وجل البخل وحذر من حبس الزكاة والإمتناع عن الإنفاق عن الفقراء وعد بالخلف والعوض العاجل والآجل ، قال تعالى ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾^(٣) ،

ويدرك كل إنسان الشواهد والمصاديق الحسية للعوض والخلف من عند الله عز وجل على الإنفاق ، وسوف يأتي يوم القيامة لينكشف لكل إنسان الخلف العظيم بالأضعاف المضاعفة على الإنفاق في طاعته سبحانه .

وقد اتصف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالكرم والجود ، ومن الشواهد على صدق نبوته أنه ينفق ما يأتيه ، وإن لم يكن عنده شيء يدعو لمن يسأله ويرجو منه أن يمهله حتى إذا جاءه رزق أرسل على الذي سأله ، ودفع له ما يريد .

(١) سورة الفرقان ٦٧.

(٢) سورة الحشر ٩.

(٣) سورة سبأ ٣٩.

لقد ذكرت آية البحث (فضل الله عز وجل) بقوله تعالى ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١)، لبيان سعة الفضل الإلهي وشموله المؤمنين وعلوم التنزيل من باب الأولوية القطعية .
وقد أنعم الله عز وجل عليّ بتأليف أجزاء التفسير هذا وكتبي الفقهية والأصولية ومراجعتها وتصحيحها وتنقيحها بمفردي ليس معي إلا فضل الله عز وجل ، مع أنه لو كانت عندي مؤسسة ، ومساعدون للمراجعة والتنقيح لازداد عدد أجزاء التفسير ، وتفرعت العلوم المستقرة فيه ، وقال تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنْ أَلَّ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

حرر في ٢٦ شوال سنة ١٤٤٠هـ
٣٠ / حزيران ٢٠١٩

(١) سورة آل عمران ١٧٠ .

(٢)

سورة التوبة ٢٨ .

قوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ الآية ١٨٠

الإعراب واللغة

ولا يحسبن : الواو حرف استئناف

لا : ناهية جازمة .

يحسبن : فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم .

والنون نون التوكيد الثقيلة ، ويقرأ (يحسبن) بالياء على الغيبة ،

وقرأ جماعة من أهل الحجاز والعراق (تحسبن) بالتاء^(١)، فهو خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكلاهما في ذم الذين كفروا ، وتقديره : ولا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خير لهم .

الذين : اسم موصول مبني في محل رفع فاعل .

أما على قراءة (لا تحسبن) بتاء الخطاب ، فالفاعل هو المخاطب

وهو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتلحق به الأمة ،

ويكون (الذين) مفعول به أول على تقدير حذف مضاف ، وإقامة

الذين مقامه .

يبخلون : فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون ،

والواو : فاعل .

بما : الباء : حرف جر ، ما : اسم موصول مبني في محل جر

متعلق بـ (يبخلون) .

آتاهم الله : آتى فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف ، الضمير (هم) مفعول به ، واسم الجلالة فاعل مرفوع .
من فضله : جار ومجرور متعلق بآتاهم ، وفضل مضاف ،
والضمير الهاء مضاف إليه .

هو خيراً لهم ، هو ضمير فصل عند مدرسة البصرة ، وعماد
عند مدرسة الكوفة ، ويجوز في معناه أنه كناية عن البخل والشح .
ويجوز لغة القول (هو خير) على المبتدأ والخبر ، ولكن المدار
على المرسوم في المصاحف .

خيراً : مفعول به ثان ، منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة
على آخره ، والمفعول به الأول محذوف تقديره البخل لدلالة ما قبله
عليه وتقديره : ولا يحسن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله
البخل خيراً لهم .

لهم : جار ومجرور .

بل : حرف إضراب مجرد عن العطف .

سيطوقون : السين حرف استقبال للقريب ، ولم تقل الآية
سوف يطوقون ، لبيان نكتة وهي حضور يوم القيامة في الوجود
الذهني ، ولقربه عند الله عز وجل ، قال سبحانه ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا *
وَيَرَاهُ قَرِيبًا﴾^(١) .

وقال المبرد : السين في قوله {سَيُطَوَّقُونَ} سين الوعيد وتأويلها :
سوف يطوقون ، واختلفوا في معنى الآية :

فقال قوم : معناها فجعل ما بخل به وما يمنعه من الزكاة حية
تطوق في عنقه يوم القيامة تنهشه من قرنه إلى قدمه وتنقر رأسه^(٢) .

(١) سورة المعارج ٦-٧ .

(٢) الكشف والبيان ٢٩٩/٣ .

ومن سين الوعيد ﴿سَيُهْزَمُ الْجَنْعُ﴾^(١)، وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَتَسِدِّرُجْهُمُ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢)، ولا يختص ورود السين في المقام بالوعيد ، فقد ترد للبشارة والوعد كما في (سيرهم) ، كما في قوله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٣)، وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَدُخِلَتْ لَهُمْ ظِلَالٌ ظَلِيلًا﴾^(٤)، واستعمال السين في الوعيد في القرآن أكثر منه في الوعد.

يطوقون : فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون ، والواو نائب فاعل .
 ما بخلوا : ما اسم موصول في محل نصب مفعول به .
 بخلوا : فعل ماض ، والواو فاعل .
 به : جار ومجرور متعلق بالفعل بخلوا .
 يوم : ظرف زمان منصوب ، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره ، وهو مضاف .

(١) سورة القمر ٤٥.

(٢) سورة الأعراف ١٨٢.

(٣) سورة التوبة ٧١.

(٤) سورة النساء ٥٧.

القيامة : مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة تحت آخره .

ولله ميراث : الواو استئنافية ، وقيل اعتراضية .

لله : جار ومجرور ، متعلق بمحذوف خبر مقدم .

ميراث : مبتدأ مؤخر مرفوع ، وهو مضاف السموات مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة تحت آخره .

والأرض : الواو حرف عطف .

الأرض : اسم معطوف على السموات ، وهو مجرور مثله ، وعلامة جره الكسرة الظاهرة تحت آخره .

والله خير : الواو حرف عطف واستئناف .

اسم الجلالة : مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره .

بما تعملون : الباء حرف جر ، ما : اسم موصول مبني في محل جر ، تعملون : فعل مضارع مرفوع بثبوت النون .
خير : خبر مرفوع بالضمة .

وقرأ الجمهور البخل بضم الباء وسكون الخاء وهو المرسوم في المصاحف ، إذ ورد مرتين في القرآن بصيغة الذم لأهله ، قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ^(١) ، ﴿ الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ^(٢) ،
وقرأ حمزة بفتح الباء والحاء .

(١) سورة النساء ٣٧ .

(٢) سورة الحديد ٢٤ .

والبخل هو الإمساك والإمتناع عن الإنفاق والبذل ، قال تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾^(١).

وقال الجرجاني : البخل هو المنع من مال نفسه ، (والشح ، هو بخل الرجل من مال غيره)^(٢).

ولكن الشح أشد من البخل ، وبينهما عموم وخصوص مطلق ، فكل شح هو بخل وليس العكس ، فالشح بخل مع الحرص ، و(في ترتيب أوصاف البخيل

رجل بخيل ثم مسك إذا كان شديد الإمساك لماله ، عن أبي زيد ثم لحز إذا كان ضيق النفس شديد البخل ، عن أبي عمرو. ثم شحيح إذا كان مع شدة بخله حريصاً ، عن الأصمعي ثم فاحش إذا كان متشدداً في بخله ، عن أبي عبيدة ثم حلز إذا كان في نهاية البخل ، عن ابن الأعرابي)^(٣).

ولم تذكر الآية لفظ (البخل) وهو اسم مصدر إنما اشارت إليه لقوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾^(٤) ، وتقدير الآية الذين يبخلون يكون البخل شراً لهم .

و(ورث: الميراث: ما يُورَثُ، وَرِثَ يَرِثُ، وَوَرَّثَهُ وَأَوْرَثَهُ. وَأَوْرَثْتُهُ هَمًّا. وَالْإِرْثُ: أَصْلُهُ وَرِثٌ. وَالتُّرَاثُ تَأْوُهُ وَآوٌ: تَرْكَةُ الْمِيرَاثِ، وَلَا يُجْمَعُ كَجَمْعِ الْمَوَارِيثِ.

(١) سورة الاسراء ٢٩.

(٢) التعريفات ١٣/١

(٣) فقه اللغة ٣٠/١.

(٤) سورة آل عمران ١٨٠.

وفي الدُّعَاء : اللَّهُمَّ اَمْتَعْنِي بِسَمْعِي وَبَصَرِي واجْعَلْهُمَا الْوَارِثَ مِنِّي، أَرَادَ: أَبْقِهُمَا مَعِيَ حَتَّى أَمُوتَ^(١).

ومن أمثال العرب (يا حَبْذا التُّرَاثُ لولا الذَّلَّةُ. أي الميراث حُلُو لولا أن أهلَ بيته يَقْلُون)^(٢)، أي لا يقع الميراث اسماً ومسمى إلا بفقد أحد أفراد الأسرة.

و ضد البخل الكرم ، ولكن موضوع البخل الوارد في الآية ضده حجب الحق الشرعي ، والإمتناع عن إخراج الزكاة ، وكأنه من الضد الخاص والإصطلاحي ، فمع ورود النصوص بدم البخل إلا أنه لم يرد عقوبة أخروية للبخل بأن يطوق عنقه بأفعى فهذا البخل خاص من جهات :

الأولى : انه خاص بفضل الله الذي رزق العبد .

الثانية : إقامة الحجة على الناس بلزوم دفع الزكاة .

الثالثة : كأن حق الفقراء أمانة شرعية عند الأغنياء ، ويكون تقدير الآية : الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله ليتصدقوا به .

بحث نحوي

العطف لغة الميل ، ويقال عطف يعطف أي مال ، (وعطف عليه : أشفق)^(٣).

و(العطف الرحمة عَطفَ عليه يعطف عطفاً ورجل عَطوف وعطاف عاطف بماله وفضله وعطف الله عليه يعطف عطفاً رحمه وما تعطفه عليه

(١) المحيط في اللغة ٤١٥/٢.

(٢) المزهر ١٥٤/١.

(٣) القاموس المحيط ٤١٢/٢.

عاطفة أي رحم وتعطف عليه عطف ومنه امرأة عاطف على ولدها وقد تقدم واستعطف الرجل سألته العطف^(١).

وحروف العطف على قسمين :

الأول : التي تفيد الاشتراك بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم والإعراب وهي :

الأول : الواو ، وقيل أنها لا تفيد الترتيب ، واستدل بقوله تعالى ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(٢) ، والذين استدلوا بهذه الآية ذكروا احتمال أن السجود كان مقدماً في شريعتهم ، وصار مؤخراً في الشريعة الإسلامية ، كما أن أصل السجود هو الخضوع والإنخفاض الشديد قال الشاعر :

فكلتاها خرت وأسجد رأسها ... كما سجدت نصرانة لم تحنف^(٣).

وحتى قوله تعالى ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ إرادة صلاة الجماعة أو افعلي كفعالهم ، ومع ورود الإحتمال يبطل الاستدلال.

ونؤسس لقول في المقام وهو أن الواو تفيد الترتيب إلا مع القرينة ، فصحيح أنها ليست بدرجة الفاء بخصوص الترتيب إلا أنها أمانة وشاهد عليه إلا مع وجود ما يدل على التساوي أو العموم أو الخلاف.

الثاني : الفاء وتفيد الترتيب والتعقيب المتوالي ، وإفادة القرب بينهما كما في قوله تعالى ﴿فَارْزُقْنِي الشَّيْطَانَ عَنْهَا فَأَخْرِجْهُمَا مَكَانًا

(١) المخصص ٣١/٣.

(٢) سورة مريم ٤٣.

(٣) النكت والعيون ٢٣١/١.

فِيهِ^(١) ، لبيان نكتة وهي عدم إطالة مدة بقاء آدم وحواء في الجنة بعد أكلهما من الشجرة.

الثالث : حتى ، وهو حرف يفيد الغاية بمعنى (إلى أن) ويسبق الفعل الماضي والمضارع ، مع توفر الشروط .

الأول : أن يكون المظوف اسماً ظاهراً وليس ضميراً .

الثاني : جزئية المظوف من المعطوف عليه ، كما لو قلت صمت رمضان حتى اليوم الأخير .

ولا تقول صليت الظهر حتى التعقيب المستحب لأن الصلاة تختتم بالتسليم والتعقيب ليس جزء منها .

الثالث : أن يكون غاية المظوف عليه وإن تباينت الغاية ، ويأتي حتى الإنتهاء الغاية الزمنية ، بمعنى (إلى) كما في قوله تعالى ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾^(٢).

وجاءت آية البحث في ذم ذات البخل بالحقوق الشرعية والغاية منه وبيان سوء عاقبته وقد يأتي (حتى) بمعنى (كي) إذا جاء قبل الفعل المضارع الذي يدل على الإستقبال ويفيد التقليل وهو من معاني قوله تعالى ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٣).

وقوله تعالى ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلَلَّهِ خِزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٤).

(١) سورة البقرة ٣٦.

(٢) سورة القدر ٥.

(٣) سورة الحجر ٩٩.

(٤) سورة المنافقون ٧.

وفي الآية أعلاه موعظة وعبرة ، وتنبية للناس ومنهم الذين يسكون الحقوق الشرعية بأن خزائن السموات والأرض كلها بيد الله عز وجل وهو سبحانه الذي يبارك بما بقي عند المنفق ، والذي يخلف عليه ما أنفقه وتأتي (حتى) بمعنى بشرط أن نسبق بنفي .

الرابع : أو ، وتتعدد معانيها ، منها التخيير والتفصيل بين أمرين يتعذر الجمع بينهما أو الجمع بين أمرين يصح الجمع بينهما ، أما إذا تقدم على (أو) خبر تنفيذ الشك أو التردد وتعدد الاحتمال كما في قوله تعالى ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ اقْصُ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾^(١) ، أو تنفيذ الإبهام والإحتجاج به كما في قوله تعالى ﴿وَإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾^(٢) ، وقد تفيد الإضراب ، أو التقسيم كما في قوله تعالى ﴿فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِّيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾^(٣) ، أو التفصيل كما في قوله تعالى ﴿فَأَمْسِكُوهُمْ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾^(٤) .

وقالوا انها تأتي بمعنى الواو واستدل بقوله تعالى ﴿وَلَا تُطْعَمُهُمْ إِنَّمَا أَوْكُهُمْ﴾^(٥) .

(١) سورة المزمل ٢-٤ .

(٢) سورة سبأ ٢٤ .

(٣) سورة البقرة ١٩٦ .

(٤) سورة الطلاق ٢ .

(٥) سورة الإنسان ٢٤ .

ولكن هناك نوع فرق وتباين على نحو الموجبة الجزئية بين الواو (أو) في المقام فتبين الآية أعلاه رحمة الله في إجتنا ب طاعة الآثم والكفور ، في آن واحد ، مع التباين بينهما على نحو القضية الشخصية ، فلو قالت الآية (ولا تطع منهم آثماً وكفوراً) لاحتمل أن الآثم هو الكفور.

الخامس : ثم وتفيد الترتيب والتراخي .

الثاني : حروف العطف التي تجمع بين حركة المعطوف والمعطوف عليه دون الإشتراك في الحكم وهي :

الأول : بل .

الثاني : لا .

الثالث : لكن .

في سياق الآيات

صلة آية البحث بالآيات المجاورة على شعبتين :

الشعبة الأولى : صلة آية البحث بالآيات المجاورة السابقة ، وفيها

وجوه :

الوجه الأول : الصلة بين آية البحث والآية السابقة ﴿مَا كَانَ

اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١) ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى : تضمنت آية السياق عدة قوانين ، وابتدأت

بقانون من الإرادة التكوينية وهو أن الله عز وجل لا يترك المؤمنين على حال الإختلاط مع المنافقين ، فلا بد أن يتليهم جميعاً بما يميز

المؤمنين بخصال الإمتثال والطاعة لأمر الله ورسوله ، ويفصل عنهم المنافقين .

لقد ذكرت آية السياق الطيب والخبيث ، والتباين والتضاد بينهما ، وذكرت آية البحث الذي يخلون بما آتاهم الله من فضله ، ويحتمل وجوهاً:

الأول : إنها من الطيب ،

الثاني : إنها من الخبيث .

الثالث : إنها مرتبة وحال مستقلة غير الطيب والخبيث .

والصحيح هو الثاني بلحاظ اقتران صفة الطيب بالإيمان والعمل الصالح ، فالمراد من البخل الإمتناع عن دفع الحقوق الشرعية وعن بذل الوسع في تعظيم شعائر الله .

ولمساك الزكاة وعدم الإنفاق في سبيل الله .

ومن إعجاز آية البحث تأكيدها لقانون ، وهو ما عند الناس هو من فضل الله عز وجل ، فمن الخبث أن يخل الإنسان عن الإنفاق من رزق الله في سبيله تعالى .

المسألة الثانية : ذكرت آية البحث فضل الله عز وجل لبيان أن الرزق الذي عند أولئك الذين يخلون به إنما هو نافلة وزيادة من عند الله عز وجل ، ولو انفقوا منه فهل يأتيهم بدل وعوض عنه من عند الله ، الجواب نعم .

ومن معاني الجمع بين الآيتين ظن الذين كفروا أن البخل والإمتناع عن الإنفاق في سبيل الله ينفعهم في الدنيا ، فأخبرت آية البحث عن كونه بلاءً بالذات والأثر .

وكان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الإمام والأسوة في الكرم والتنزه عن البخل ، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ^(١)، وفي كتيبة حنين، بعد أن ابتدأت هوازن وثقيف بالهجوم والغزو، وانهزموا، صارت أموالهم الكثيرة غنائم (فكان همه الناس يسألونه فأحاطت به الناقة فخطفت شجرة رداءه فقال ردوا على ردائي اتخشون على البخل لو افاء الله على نعماء مثل تمر تهامة لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً ثم اخذ وبرة من ذروة سنام بعيره فقال ما لي مما افاء الله عليكم ولا مثل هذه الا الخمس وهو مردود عليكم ردوا الخيط والمخييط فان الغلول عار وشنار)^(٢).

وعن معاذ بن جبل قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ، فلما سرت أرسل في أثري فرددت فقال : أتدري لم بعثت إليك ، لا تصيين شيئاً بغير إذني فإنه غلول ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٣)، لهذا دعوتك ، فامض لذلك^(٤).

إذ أراد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم تنزيه مجتمعات المسلمين عامة والمدافعين خاصة من النهب والسلب ، والطمع للحيازة الشخصية وما قد يقترن به من الظلم والتعدي ، وفيه شاهد على منع الإسلام عن الغزو وصيرورة الطمع سبباً له .
والغلول هو الخيانة باخفاء جزء من الغنيمة للاستحواذ الشخصي وعدم إلقاءها مع الغنائم (وأصل الغلول الغلل وهو دخول الماء في خلال الشجر)^(٥).

(١) سورة الاحزاب ٢١.

(٢) البيهقي / السنن الكبرى ١٧/٧.

(٣) سورة آل عمران ١٦١.

(٤) الدر المنثور ٤٧٥/٢.

(٥) النكت والعيون ٢٦٢/١.

وقد أنزل الله عز وجل ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(١) (٢).

لقد جعل الله عز وجل المال والرزق رحمة بالناس وأمرهم بأن ينفقوا منه في سبيل الله ، ولكن الذين أقاموا على النفاق والضلالة أظهروا الشح في المال .

قال عبد الله بن مسعود : سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة قال : ثعبان له زبيبتان^(٣) ينهشه في قبره ، ويقول : أنا مالك الذي بخلت به^(٤) .

المسألة الثالثة : ذكرت آية السياق المؤمنين بقوله تعالى ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ويحتمل الألف واللام فيه وجوهاً :

الأول : إرادة خصوص الأنصار .

الثاني : المراد المهاجرون والأنصار .

الثالث : المقصود المؤمنون والمؤمنات .

والصحيح هو الثالث لأصالة الإطلاق ، ولأن المنافقين يقفون معهم في الصلاة اليومية ، ويضربون في المنتديات والمجالس ، وعند النفير للدفاع عن النبوة والتنزيل .

(١) سورة آل عمران ١٦١.

(٢) أنظر الجزء السادس والأربعين بعد المائة من هذا التفسير الذي صدر خاصاً بتفسير هذه الآية ، والجزء الواحد والخمسون بعد المائة والذي اختص بالصلة بين شطر من الآية ١٦١ وشرط من الآية ١٦٤ من سورة آل عمران.

(٣) الزبيبتان : جمع زبيبة وهو ناب يخرج من فم الثعبان أو نقطة سوداء فوق عينه ، وهو أوحش وأخبث ما في أنواع الحيات.

(٤) المستدرك على الصحيحين ٢٩٨/٧.

ولم يرد لفظ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ في آية البحث ، إذ جاءت بصيغة الإنذار للذين يحبسون الزكاة ، ويمتنعون عن الإنفاق في سبيل الله .

المسألة الرابعة : لقد هاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة بعد أن اشتد أذى المشركين له في مكة ، وعزموا على قتله في فراشه ، ويمكن إنشاء قانون وهو (كثرة أفراد السنة حجة) وليس من حصر لمصاديق هذا القانون ، وذات كثرتها حجة أخرى من جهة الدلالة والبرهان .

ومن الشواهد عليه في المقام أن هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت في ذات الليلة التي أراد المشركون قتله فيها ، ليبدأ بفضل الله عز وجل في تلك الليلة بزوغ فخر الإسلام ، وشايب سيادة معالم الإيمان بأن خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم مهاجراً إلى المدينة ، قال تعالى ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾^(١).

ولاحق المشركون النبي محمداً في طريق الهجرة وجعلوا جعلاً مقدار ديتة ودية أبي بكر لمن يقتلهما ، ولكن الله عز وجل حفظه وأنجاه بمعجزات متعددة في طريق الهجرة ، فصارت الأخبار ترد إلى قريش ، وأهل مكة ، وهي على وجوه :

الأول : دخول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المدينة سالماً ، وهو من مصاديق البشارة في قوله تعالى ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾^(٢).

(١) سورة التوبة ٤٠.

(٢) سورة الأنفال ٥.

الثاني : خروج أهل المدينة رجالاً ونساءً لاستقبال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث : تسابق الأنصار في دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لاستضافته.

الرابع : بناء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه المسجد النبوي ، والمواظبة على صلاة الجماعة فيه خمس مرات في اليوم .

لقد أكرم الله عز وجل البيت الحرام بالبناء برفع قواعده وانشائه بقوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١) .

أما المسجد النبوي فقد كان بناؤه بسيطاً فهو كالعريش ، ليغيب الكفار ، وتمتلاً قلوبهم بالحسد ، إذ كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه مستضعفين بين ظهرائهم ، ولم ترض قريش بهذه الحال ، وعدوبهم وأرادوا قتل النبي ، فجاءت السيادة والأمانة النبوية في المدينة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(٢) . وقوله تعالى ﴿وَيُرِيدُ أَنْ يَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَيجعلهم الْوَارِثِينَ﴾^(٣) .

الخامس : لقد أرادت قريش تحريض الكفار والمنافقين في المدينة على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه خصوصاً المهاجرين ، فتفضل الله بآية السياق وما فيها من الإخبار بأنه

(١) سورة البقرة ١٢٧.

(٢) سورة الأنفال ٣٠.

(٣) سورة القصص ٥.

سبحانه يعزل المنافقين ، ويأتي بالإبتلاء والاختبار المتعدد والمتكرر لفضح المنافقين بتجلي قانون وهو تخلفهم عن الإنفاق في سبيل الله ، ولا يكتفون بعدم الإنفاق انما يعيرون على الذي ييذل وينفق لذا نعتهم الله عز وجل بالبخل .

فالنسبة بين البخل وعدم الإنفاق في سبيل الله عموم وخصوص مطلق.

المسألة الخامسة : من معاني الجمع بين آية البحث والسياق بعث المسلمين على البذل والإنفاق ، ومن خصائص الإنسان طلب الثناء لنفسه ، والسعي لتجزه بالقول والفعل .

ومن أسباب نزول قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَنَ أَنْ يُمْحَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١) ، ورد عن رافع بن خديج قال : أنزلت في ناس من المنافقين ، كانوا إذا خرج^(٢) النبي صلى الله عليه وآله وسلم اعتذروا وقالوا : ما حبسنا عنكم إلا الشغل ، فلوددنا أنا كنا معكم ، فأنزل الله فيهم هذه الآية ، فكأن مروان أنكر ذلك ، فجزع رافع من ذلك فقال لزيد بن ثابت : أنشدك بالله هل تعلم ما أقول ، قال : نعم . فلما خرجا من عند مروان قال له زيد : ألا تحمديني شهدت لك قال : أحمدك أن تشهد بالحق قال : نعم . قد حمد الله على الحق أهله .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال : هؤلاء المنافقون يقولون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لو قد خرجت لخرجنا

(١) سورة آل عمران ١٨٨.

(٢) أي خرج في كتيبة استطلاع أو للدفاع.

معك ، فإذا خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم تخلفوا وكذبوا ، ويفرحون بذلك ، ويرون أنها حيلة احتالوا بها^(١).

وفيه شاهد بأن النفاق خبث فجاء القرآن بالتحذير منه ومن البخل والرياء ، وإذا خيّر الإنسان بين أن يوصف بالطيب أو الخبيث فانه يوصف بالطيب ، فجاءت آية البحث لتبعث المسلمين والمسلمات على الصلاح ، وتجعل كل واحد منهم يحرص على التنزه عن خصال النفاق والعادات المذمومة.

المسألة السادسة : لما أخبرت آية السياق عن الفصل والتمييز من جهات:

الأولى : الفصل بين المؤمن والكافر ، وعن ابن عباس : المعني ب { الخبيث } الكفار وب { الطيب } المؤمنون^(٢).

الثانية : التمييز بين الإنفاق في طاعة الله وبين الإنفاق في المعصية ، فان قلت قد ورد قوله تعالى ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٣) ، أي يجمعه في الآخرة فهل تجمع الأموال التي تنفق في محاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيثئذ ، أم أن الجمع المقصود في الآية أعلاه خاص بالكفار والمنافقين ، الجواب هو الأول ، قال تعالى ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾^(٤).

الثالثة : الخبيث ما لم تخرج منه حقوق الله تعالى ، والطيب : ما أخرجت منه حقوق الله تعالى^(٥).

(١) الدر المنثور ١٣/٢.

(٢) المحرر الوجيز ١٧٩/٣.

(٣) سورة الأنفال ٣٧.

(٤) سورة التوبة ٣٥.

(٥) النكت والعيون ٦٦/٢.

المسألة السابعة : ابتدأت آية السياق بقوله تعالى ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ...﴾^(١)، وأختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٢)، لبيان أن الله عز وجل يعلم المؤمن ويميزه بين الناس عن المنافق والكافر ، قال تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(٣).

ليان مسألة وهي أن التمييز المقصود في الآية هو الفصل والكشف الظاهر بين الناس بحيث يعلم المؤمنون من هم المنافقون الذين بين ظهرائهم ، ويعلم المنافق حقيقة نفسه وانكشاف هويته بين عموم المسلمين ، وكذا بالنسبة للمنافقة ، قال تعالى ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٤).

ومن علم الله عز وجل بما يفعله الناس هو فعل العباد عند مداهمة مسألة ابتلائية ، فهو سبحانه يقدر الواقعة والأمر الذي يكتشف معه المنافق والذي يضمن الكفر في قرارة نفسه ، كما أنه يراف بالمؤمنين ، فلا يتليهم إلا بما يثبت الإيمان في نفوسهم ، ويمنع من الإرتداد والضلالة .

(١) سورة آل عمران ١٧٩.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠.

(٣) سورة غافر ١٩.

(٤) سورة التوبة ٦٧.

وهل يتفضل الله عز وجل بما يقرب الإنسان من التوبة والإجابة الجواب نعم.

المسألة الثامنة : جاءت آية السياق بصيغة الغائب ﴿مَا كَانَ اللَّهُ

لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) بلغة القانون والحتم ، وإرادة عموم الجنس ، وجاء الشرط الثاني من الآية بلغة الخطاب للمؤمنين ، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾^(٢) لبيان نكتة وهي إرتقاء المسلمين إلى مرتبة الطيب التي وردت في أول الآية بلطف ورأفة من عند الله ، ولا إعتبار للخبيث .

وفيه بيان مسألة وهي أن سرائر النفوس ، وخفايا الصدور لا يعلم بها إلا الله عز وجل وحده.

ترى لماذا ذم الله عز وجل الخبيثين والمنافقين ، جاءت آية البحث بالجواب بأنهم يخلون بما آتاهم الله من فضله وإحسانه .
وهل يدرك الخبيث أن ما عنده هو من فضل الله عز وجل ، الجواب نعم ، ونزلت آية البحث لتأكيد وبعث المسلمين على الإحتجاج وتذكير أنفسهم والناس بعظيم فضل الله عز وجل عليهم ولزوم شكره سبحانه بالتزهد عن البخل .

وجاءت آية البحث للذكرى والتأكيد ، وفي التنزيل ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾^(٣).

المسألة التاسعة : أخبرت آية البحث عن قانون وهو أن بخل المنافقين والكفار في المال وحجبتهم الحقوق الشرعية شرلهم ،

(١) سورة آل عمران ١٧٩.

(٢) سورة آل عمران ١٧٩.

(٣) سورة الغاشية ٢١.

وتضمنت آية السياق قانون التمييز بين الخيـث والطيب ، ليكون الشر ملازماً للخيـث ، وملاحقاً له ، وفيه شاهد بأن الشح والإمتناع عن دفع الحقوق الشرعية لا يجلب إلا الخسارة والضرر .

ومن معاني قوله تعالى ﴿يُمِيزُ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(١) نجاة المؤمنين وسلامتهم من شرور المشركين ، وهو الذي تجلّى في معركة بدر ، كما كشف الله عز وجل في معركة أحد المنافقين بأن انخزل ثلاثمائة من جيش المسلمين من وسط الطريق إلى المعركة بتحريض من عند عبد الله بن أبي بن أبي سلول ، لتكون معركة أحد من مصاديق التمييز الذي تذكره آية السياق من جهات :

الأولى : كشف حقيقة وهي إصرار الذين كفروا على القتال .

الثانية : حشد كفار قريش لثلاثة آلاف رجل لقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالثة : زحف جيوش المشركين أكثر من أربعمائة كيلو متر لقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿يُمِيزُ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(٢) أن المشركين يصرون على القتال ، أما المسلمون فكانوا يدعون إلى الله عز وجل وهذه الدعوة من الطيب .

الرابعة : قيام المشركين بالتحدي في ساحة المعركة وتقدم بعض رجالاتهم في طلب المبارزة ، والمسلمون يمتنعون عنها في كل مرة ، إذ تتكرر هذه الصورة عدة مرات في كل من معركة بدر أو أحد وفي معركة الخندق اجتاز عمرو بن ود العامري الخندق وأصر على المبارزة إلى أن خرج له الإمام علي عليه السلام وأرداه قتيلاً

(١) سورة آل عمران ١٧٩.

(٢) سورة آل عمران ١٧٩.

فالمسلمون ليسوا طلاب حرب ، وكان تحدي المشركين في طلب
المبارزة شاهداً على أن المسلمين ليسوا غزاة ، ولا يريدون قتالاً .

فمثلاً كان حامل لواء المشركين يوم أحد طلحة بن أبي طلحة
وصاح : من يبارز ؟

فلم يخرج إليه أحد من المسلمين ، إنما برز إليه وإلى قومه نداء
النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (قولوا لا إله إلا الله
تفلحوا) ^(١) لكنه لم يتعظ إنما استمر بالتحدي .

(فَقَالَ يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ زَعَمْتُمْ أَنْ قَتَلَاكُمْ فِي الْجَنَّةِ وَأَنْ قَتَلْنَا
فِي النَّارِ ، كَذَبْتُمْ وَاللَّاتِي لَوْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ حَقًّا لَخَرَجَ إِلَيَّ
بَعْضُكُمْ) ^(٢) .

إن عدم بروزهم له مع أنهم على الحق وضعفهم ، وفي حال
دفاع شاهد على أن قتلاهم في الجنة ، فبرز له الإمام علي عليه
السلام فقتله .

وقد حضر طلحة بن أبي طلحة إلى معركة أحد ومعه زوجته
سلافة بنت سعد (وهي أم بنيه مسافع والحلاس وكلاب وغيرهم)
^(٣) ، لتكون مع النساء للضرب على الدفوف وتحريض المشركين ،
والنياحة على قتلى بدر فرجعت سلافة من ميدان المعركة أرملة
تندب حظها وقد يتم أولادها لاصرار زوجها على القتال فمات
على الكفر .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ١٥٥/٢ .

(٢) السيرة لابن هشام ٧٢/٢ .

(٣) الكامل في التاريخ ٢٩٣/١ .

وهو من الإعجاز في صيغة الجمع في قوله تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(١)، فيصدر الفعل المتحد من الكافر ليكون ظلماً له ولعiale وأصحابه كما في بروز طلحة هذا .
وكان دفاع المسلمين في جهات :

الأولى : الدفاع عن شخص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لقد أخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم العهد من الأنصار في العقبة بأن يذبوا عنه ويحموه من كفار قريش ، الذين يكيّدون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم كل يوم ، قال تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(٢).

(عن أبي الزبير عن جابر قال: مكث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم، عكاظ ومجنة، في المواسم، يقول: "من يؤويني، من ينصرني، حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة" فلا يجد أحدا يؤويه ولا ينصره، حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر، كذا قال فيه، فيأتيه قومه وذوو رحمة فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك.

ويمضى بين رحالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع.
حتى بعثنا الله إليه من يشرب فأويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم تبق دار من دور الانصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الاسلام.

(١) سورة النحل ١١٨.

(٢) سورة الأنفال ٣٠.

ثم أئتمروا جميعاً فقلنا: حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يطوف ويطرّد في جبال مكة ويخاف ؟ فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا.

فقلنا: يا رسول الله علام نبأيك ؟

قال: " تباعونني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر

واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة، فقمنا إليه ﴿ فبايعناه ﴾ وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم.

وفى رواية البيهقي: وهو أصغر السبعين إلا أنا، فقال: رويدا يا أهل يثرب، فإننا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجهم اليوم مناواة للعرب كافة وقتل خياركم و (أن) تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك، فخذوه وأجركم على الله، وأما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله. (١).

فان قلت هذه حال الأنصار فما هو حال المهاجرين ، الجواب لقد تركوا الأوطان وأعرضوا عن الأهل والأحبة في سبيل الله ، فكل واحد منهم زاهد ويضحى من أجل النبوة والتزليل ، ولا يضر بهذا القانون فرار عدد منهم في معركة أحد ، فقد كان درساً وموعظة استحضره في معارك الإسلام اللاحقة وامتنعوا عنه ، كما في معركة حنين .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ١٩٢/٢.

الثانية : الدفاع عن بيضة الإسلام وأحكام الشريعة وسنن الانبياء .

الثالثة : تأسيس توارث الإيمان ، وأداء الفرائض والعبادات ، وهل هذا التوارث من صديق آية البحث وقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) ، الجواب نعم لإفادة المعنى الأعم في مصاديق الميراث وأن منه وجود أمة مؤمنة في كل زمان تعمر الأرض بذكر الله عز وجل وعبادته وتلاوة آيات التنزيل .

الرابعة : الدفاع عن توالي نزول القرآن ، ومن خصائص نزول القرآن نجوماً ، وعلى نحو التدرّج بأن تنزل آية أو أكثر كل يوم أو كل يومين أو بضعة أيام فيتلقاها المسلمون بالشوق واللهفة والتدبر ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٢) .

لقد أدرك المسلمون والناس جميعاً قانون إحصار نزول القرآن على صدر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لاستمرار وتوالي نزول آيات القرآن ، ومن الإعجاز الغيري للقرآن عدم علم أحد من الناس بأوان انتهاء نزول آيات القرآن أو العدد الذي تقف عنده سور وآيات القرآن .

وهل كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يعلم ذلك في بدايات الوحي ، المختار لا ، فهو علم اختص به الله لنفسه في مدة

(١) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٢) سورة الأنفال ٢ .

التنزيل ، وهو من مصاديق قوله تعالى في آية البحث ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظِلَّكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾^(١).

وعندما عارض وتدارس جبرئيل مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم القرآن مرتين في السنة التي رحل فيها إلى الرفيق الأعلى بينما كان يدارسه القرآن في كل سنة مرة ، علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقرب أجله .

(قال مسروق عن عائشة، عن فاطمة ، أسر إلي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة وأنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي)^(٢).

وأخرج الإمام ابن جرير الطبري (عن طريق فاطمة بنت الحسين بن علي عن جدتها فاطمة قالت: (دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما وأنا عند عائشة، فناجاني فبكيت، ثم ناجاني فضحكت، فسألتني عائشة عن ذلك، فقلت: لا أخبرك بسرّه .

فلما توفى سألتني فذكرت الحديث في معارضة جبريل له بالقرآن مرتين، وأنه قال: أحسب أنني ميت في عامي هذا، وأنه لم ترزأ امرأة من نساء العالمين مثلها.

فلا تكوني دون امرأة منهن صبرا، فبكيت، فقال: أنت سيدة نساء أهل الجنة فضحكت))^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٧٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٥٠/١ .

(٣) العلامة محمد عبد الروؤف المناوي الأشعري (٩٥٢-١٠٣١) هجرية / اتحاف السائل بما لفاطمة من المناقب ١٢/١.

و(عن عمران بن حصين ، قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ أقبلت فاطمة سلام الله عليها وقفت بين يديه ، فنظر إليها ، وقد ذهب الدم من وجهها ، وغلبت الصفرة على وجهها من شدة الجوع .

فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ادني يا فاطمة ، ثم ادني يا فاطمة ، فدنت حتى قامت بين يديه ، فرفع يده فوضعها على صدرها في موضع القلادة وفرج بين أصابعه .
ثم قال : اللهم مشيع الجاعة ، ورافع الوضيعة ، ارفع فاطمة بنت محمد .

قال عمران : فنظرت إليها وقد ذهبت الصفرة من وجهها ، وغلب الدم كما كانت الصفرة غلبت على الدم ، قال عمران : فلقيتها بعد فسألتها .

فقلت : ما جعت بعد ذلك يا عمران ، والأشبه أنه إنما رآها قبل نزول آية الحجاب^(١).

المسألة العاشرة : بعد أن أخبرت آية السياق عن قانون وهو عدم إطلاع الله عز وجل المسلمين والناس على الغيب ، ورد فيها بلطف من عند الله عز وجل استثناء وهو أن الله عز وجل ﴿يَجْتَبِيْ مِنْ رُّسُلِهِ مَنْ يَّشَاءُ﴾^(٢) لقطع الطريق على المنافقين ، ومنعهم من المغالطة والجدال مع المسلمين بالتشكيك بمعاني الوحي فيما يخص علوم الغيب ، فقال تعالى أنه يكرم الأنبياء ويطلعهم على ما يشاء من علوم الغيب ، ومنه نزول آيات القرآن ومطلق الوحي بأمور :

(١) البيهقي / دلائل النبوة ٦/٣٦٦.

(٢) سورة آل عمران ١٧٩.

الأول : قصص الماضين ، والأمم السالفة ، قال تعالى ﴿فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

الثاني : صبر وجهاد الأنبياء ، ويدل التبعض في قوله تعالى ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ تَقُصُّهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(٢)، على مصداق آية السياق بأن الله عز وجل يطلع النبي صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين على شطر وعدد من قصص الانبياء وليس كلها .

الثالث : أحوال أهل البيت والصحابة ، وما يلاقونه .

الرابع : أحوال عامة الناس .

الخامس : عالم القبر ، قال تعالى ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(٣).

السادس : مواطن وعرصات يوم القيامة .

السابع : أهوال وشدة الحساب وسلامة المؤمنين يوم القيامة من الحزن والخوف والفرع ، قال تعالى ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ * يَاعِبَادُ لَاخَوْفُ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ^(٤).

المسألة الحادية عشرة : لقد أخبر الله بأن البخل بالحق الشرعي مجلبة للشر لصاحبه ، وهو وبال عليه في الدنيا والآخرة ، وتبين الوقائع والأحداث مسارعة الذين كفروا بالإتفاق في محاربة النبوة

(١) سورة الأعراف ١٧٦.

(٢) سورة النساء ١٦٤.

(٣) سورة المؤمنون ١٠٠.

(٤) سورة الزخرف ٦٧-٦٨.

والتنزيل ، فمثلاً بعد معركة بدر مشى رجال من قريش إلى أصحاب الأموال في قافلة أبي سفيان وسألوا أهلها أن يجعلوها في قتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، فرضوا به ، ويدل عليه تجهيز المشركين لثلاثة آلاف مقاتل بالعدة والسلاح مع الإنفاق على المقاتلين طيلة مدة المسير إلى المدينة ولا يقطع الجيش مسافة أربعمائة وخمسين كيلو متراً بسرعة لوجوه :

الأول : كثرة أرتال جيش المشركين.

الثاني : يتألف جيش المشركين من أهل مكة وأفراد القبائل ، وكل فريق مستقل في مشيه .

الثالث : أكثر جيش المشركين مستأجرون ليس من همة عندهم للقتال.

الرابع : استحضار جيش المشركين لمعجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي يتوجهون لقتاله ، ليدركوا معها على نحو الجري والإنطباع انتفاء الحاجة لقتاله ، والعجز عن تحقيق الغايات الخبيثة التي زحفوا من أجلها وهو من مصاديق الخيبة في قوله تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَقًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(١).

أصل الإستصحاب يوم أحد

لقد قطع الله عز وجل في القرآن بأنه يقطع وقتل طائفة جيش الذين كفروا عن هجومهم وغزوهم المدينة في معركة أحد ، بقوله تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَقًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٢) ، والمتبادر إلى الذهن بخصوص القطع في المقام هو القتل والأسر ولم

(١) سورة آل عمران ١٢٧.

(٢) سورة آل عمران ١٢٧.

يختص الامر بل الذين يعودون إلى مكة من ميدان المعركة يعودون بالخيثة والحسن .

الأولى : هل كان المشركون حين خروجهم من مكة يحسبون وقوع قتلى بين صفوفهم .

الثانية : هل إزداد ظن الذين كفروا بقتل طائفة منهم كلمات اقتربوا من المدينة .

الثالثة : هل خوف الذين كفروا من القتل موضوعية في جلب النساء معهم يضرين بالدفوف .

أما المسألة الأولى ، فالجواب نعم من وجوه :

الأول : استصحب حال المشركين في معركة بدر ، وسقوط سبعين قتيلاً منهم ، ووقوع سبعين أسرى بأيدي المسلمين ، ولعل عدداً من جيش المشركين كانوا يتمنون الوقوع أسرى بأيدي المسلمين وعدم السقوط قتلى في ميدان المعركة .

الثاني : الإعجاز الغيري لآيات القرآن وما فيها من الإنذار بأن يدرك الناس خيبة وخسارة الذي يحارب النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالث : الفرقة والشقاق بين المشركين للعصبية القبلية ، وآثار الثارات ، والأنانية ، وعدم الإيثار .

قال تعالى ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكِ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾^(١).

الخامس : أثر وموضوعية دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأهل مكة والناس قبل الهجرة في مكة للإسلام ، إذ كانت هذه الدعوة تتغشى أهل مكة ، وتصل الى القبائل بواسطة وفد

الحاج الذين يأتون لأداء مناسك الحج كل عام ، وهو من منافع ورشحات قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

السادس : إنتفاء النفع في غزو المشركين للمدينة ، ويدرك الجميع أنه ليس من غنائم وأموال وأنعام عند جيش المسلمين .
فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإمام في الزهد والقناعة ، وخرج كثير من الصحابة للدفاع يوم معركة أحد مشياً لعدم وجود رواحل عندهم .

السابع : موضوعية آيات الوعيد القرآنية بعذاب الذين كفروا يوم القيامة الأمر الذي يبعث الفزع والخوف في قلوبهم قبل وأثناء وبعد القتال .

ومن إعجاز القرآن من جهة موضوعها بلحاظ أوان النزول مجئ السور المكية بالزجر والتخويف من الكفر ، والوعيد عليه بالعذاب الأليم يوم القيامة ، قال تعالى في يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يُصْدَرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّیُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ * فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(٢).

الثامن : إنذار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لبعض رجالات قريش ممن كان يؤذيه وأهل بيته وأصحابه في مكة .
وأما المسألة الثانية فالجواب نعم ، فكلما اقتربت الجيوش من المدينة استحضروا قتلاهم وهزيمتهم في معركة بدر خاصة وأنهم

(١) سورة المائدة ٧.

(٢) سورة الزلزلة ٦-٨.

كانوا يومئذ أكثر من ثلاثة أضعاف جيش المسلمين ، وذات النسبة تقريباً تكررت يوم معركة أحد ، وكان أكثر جيش المشركين مستأجرين مما يدل على عدم وجود غاية أو هدف مخصوص في هجومهم .

وكانت شدة الخشية والخوف من القتل سبباً لحال الهلع والفرع بين صفوف الجيش ، وإنقباض النفوس ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبَشِّرِ الْمُظْلِمِينَ ﴾^(١).

وهل كان المسلمون يخشون القتل الجواب نعم ، ولكنهم يرجون الشهادة لأنهم في دفاع عن النبوة والتنزيل ، وقد قطع المشركون نحو (٤٥٠) كم ليحاربوهم ، فقطعهم الله عز وجل لقد قطعوا هذه المسافة لتقطع طائفة منهم .

التاسع : لقد حضر الملائكة معركة بدر وقاتلوا فيها ، واحست طائفة من المشركين بهم ، وهو سبب لخوفهم وإزياده عند الإقتراب في ميدان المعركة .

وعن (رفاعة بن رافع الزرقى عن أبيه وكان أبوه من أهل بدر قال جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال ما تعدون أهل بدر فيكم قال من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها قال وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة).^(٢)

ولم ينحصر حضور الملائكة ميدان المعركة بساعة القتال بل حضروا للمشورة.

(١) سورة آل عمران ١٥١.

(٢) عيون الأثر ١/٣٧٤.

(قال ابن إسحاق : فحدثت عن رجال من بني سلمة أنهم ذكروا أن الحباب ابن منذر بن الجموح قال : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟

قال : ﴿ بل هو الرأي والحرب والمكيدة ﴾

قال يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فامض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فنزله ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ لقد أشرت بالرأي ﴾

قال الأموي : حدثنا أبي قال : وزعم الكلبي عن أبي الصالح عن ابن عباس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجمع الأقباص وجبريل عن يمينه إذا أتاه ملك من الملائكة فقال : يا محمد إن الله يقرأ عليك السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (هو السلام ومنه السلام وإليه السلام) فقال الملك : إن الله يقول لك : إن الأمر الذي أمرك به الحباب بن المنذر فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يا جبريل هل تعرف هذا) فقال : ما كل أهل السماء أعرف وإنه لصادق وما هو بشيطان

فنهض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من الناس فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت وبني حوضا على القليب الذي نزل عليه فملئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية

وذكر بعضهم أن الحباب بن المنذر لما أشار بما أشار به على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نزل ملك من السماء وجبريل عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال الملك : يا محمد ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن الرأي ما أشار به الحباب فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى جبريل فقال ﴿ليس كل الملائكة أعرفهم وإنه ملك وليس بشيطان﴾^(١).

وتنهي آية البحث في مفهومها المشركين عن الإنفاق في قتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وبعث الخوف في نفوسهم ، ترى ماذا دلت عليه الوقائع هل زال هذا الخوف عنهم ، الجواب لا ، فقد أكثرت النسوة من ضرب الدفوف عندما ﴿التَّمَّى الْجُمُعَانِ﴾^(٢).

وأخذت هند بنت عتبة وصويحباتها ينشدن الأهازيج ومن أشعارهن :

وَيْهَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ ... وَيَهَا حُمَاةَ الدَّابَّارِ
ضَرْبًا بِكُلِّ بَتَّارٍ وَتَقُولُ
إِنْ تُقْبِلُوا نُعَانِقُ ... وَنَفْرَشُ النَّمَارِقِ
أَوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقُ ... فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقٍ^(٣).

ويدل جلب المشركين النساء معهم على إرادة دفع شدة الخوف والهلع عندهم ، مع انهزامهم عنهن حالما بدأت المعركة خاصة وأن هنداً نذبت بني عبد الدار وهم حملة اللواء فتقدم الذي يحمل اللواء للمبارزة وهو طلحة بن أبي طلحة وصار يهدد المسلمين

(١) سيرة ابن كثير ٤٠٢/٢.

(٢) سورة آل عمران ١٥٥.

(٣) سيرة ابن هشام ٦٧/٢.

ويتعرض لهم ، وعندما لم يخرج له أحد منهم صار ينادي (يا أصحاب محمد زعمتم أن قتلناكم في الجنة وأن قتلانا في النار كذبتُم واللّاتي لو تعلمون ذلك حقاً لخرج إليّ بعضكم فخرج إليه عليّ بن أبي طالب ، فاختلفا ضربتني فضربه عليّ فقتله^(١) .

ليدب الذعر والخوف حتى إلى قلوب النسوة من المشركين فمع أنهم جاءوا بهن لتحريضهم على القتال صرن يسارعن إلى الإبل للهرب ، وبنو عبد الدار الذين كانت هند وصاحباتها تتغنى وتتفاخر بهم هم حملة اللواء ، وقد قتلوا بالتعاقب واحداً بعد آخر حتى سقط لواؤهم فحملته امرأة (وانكشف المشركون منهزمين ، لا يلوون ، ونساؤهم يدعون بالويل بعد ضرب الدفاف والفرح حيث التقوا .

قال الواقدي: وقد روي كثير من الصحابة ممن شهد أحداً، قال كل واحد منهم والله إنني لأنظر إلى هند وصواحبها منهزمات، ما دون أخذهن شيء لمن أراد ذلك^(٢)، ولكن ترك الرماة المسلمين مواضعهم جعل خيل المشركين تأتي المسلمين من الخلف فاكثروا فيهم القتل (قال نسطاس مولى صفوان بن أمية، وكان أسلم فحسن إسلامه: كنت مملوكاً فكنت فيمن خلف في العسكر، ولم يقاتل يومئذ مملوك إلا وحشى، وصواب غلام بني عبد الدار. قال أبو سفيان: يا معشر قريش، خلفوا غلمانكم على متاعكم يكونون هم الذين يقومون على رجالكم. فجمعنا بعضها إلى بعض، وعقلنا الإبل .

(١) الروض الأنف ٣/٢٥٨.

(٢) مغازي الواقدي ١/٨٧.

وانطلق القوم على تعييتهم ميمنة وميسرة، وألبسنا الرجال الأنطاع. ودنا القوم بعضهم إلى بعض، فاقتتلوا ساعة ثم إذا أصحابنا منهزمون، فدخل أصحاب محمد عسكرنا ونحن في الرجال، فأحدقوا بنا، فكنت فيمن أسروا. وانتهبوا العسكر أقبح انتهاب، حتى إن رجلاً منهم قال: أين مال صفوان بن أمية؟ فقلت: ما حمل إلا نفقة، هي في الرجل. فخرج يسوقني حتى أخرجتها من العيبة خمسين ومائة مثقال. وقد ولي أصحابنا وأيسنا منهم، والنحاش النساء، فهن في حجرهن سلم لمن أرادهن. وصار النهب في أيدي الرجال، فإننا لعلى ما نحن عليه من الاستسلام إلى أن نظرت إلى الجبل، فإذا الخيل مقبلة فدخلوا العسكر فلم يكن أحداً يردهم، قد ضيعت الثغور التي كان بها الرماة وجاءوا إلى النهب والرماة ينتهبون، وأنا أنظر إليهم متأبطي قسيهم وجعابهم، كل رجل منهم في يديه أو حضنه شيء قد أخذه، فلما دخلت خيلنا دخلت على قوم غارين آمنين، فوضعوا فيهم السيوف فقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً.

وتفرق المسلمون في كل وجه، وتركوا ما انتهبوا وأجلوا عن عسكرنا، فرجعنا متاعنا بعد فمأ فقدنا منه شيئاً، وخلوا أسراناً، ووجدنا الذهب في المعرك. ولقد رأيت رجلاً من المسلمين ضم صفوان بن أمية إليه ضمة ظننت أنه سيموت حتى أدركته به رمق، فوجأته بمخنجر معي فوق، فسألت عنه بعد فقيـل: رجل من بني ساعدة. ثم هداني الله عز وجل بعد للإسلام^(١).

المسألة الثانية عشرة : لقد ذكرت آية البحث قانوناً وهو إختبار وإجتباء الله عز وجل للأنبياء والرسل وتفضله بأن خص عدداً منهم بعلوم من الغيب ، ومنها كشف الشخص والفعل الخيـث

وتمييز المنافق ، وقد رزق الله النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هذه المرتبة.

ومن مصاديق آية البحث ما ورد (عن أبي مسعود عقبة بن عمرو ، قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "إن منكم منافقين، فمن سميت فليقم. ثم قال: "قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان، حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً ثم قال: "إن فيكم أو: منكم فاتقوا الله". قال: فمر عمر برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه، فقال: ما لك؟ فحدثه بما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: بعداً لك سائر اليوم)^(١).

ورود عن ابن عباس (قال: قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطيباً يوم الجمعة، فقال: "يا فلان، اخرج فإنك منافق، يا فلان اخرج فإنك منافق" فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم، وكان عمر بن الخطاب لم يشهد الجمعة يومئذ لحاجة كانت، فلقيهم يخرجون من المسجد، فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الصلاة، وظن أن الناس قد انصرفوا، واختبؤا هم منه، وظنوا أنه علم بأمرهم، فدخل عمر المسجد فإذا الناس لم يصلوا، فقال له رجال من المسلمين: أبشر يا عمر، فقد فضح الله المنافقين، فهذا العذاب الأول حين أخرجهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المسجد، والعذاب الثاني: عذاب القبر

وعن مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ الصَّاعَانِيُّ، ثنا أَبُو نُوحٍ، أَنبَأَ شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ ﴿سُعَذِبْنَاهُم مَّرَّتَيْنِ﴾^(١)، قَالَ : عَذَابُ الْقَبْرِ وَعَذَابُ النَّارِ^(٢).

ليكون من خصائص بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فضح وزجر الخبيث ، والنهي عن حصر الإنفاق بالردئ من المال . وهل يدخل إنفاق الردئ بالبخل الذي تذكره آية البحث أم أن القدر المتيقن منه الإمساك عن دفع الزكاة والحقوق الشرعية ، المختار هو الثاني وقد جاءت الآيات بنهي المسلمين نهياً تنزيهياً عن إنفاق الردئ من الثمر .

و(عن البراء بن عازب في قوله ﴿وَلَا تَتِمَّمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾^(٣)، قَالَ : نَزَلَتْ فِيْنَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ كُنَّا أَصْحَابَ نَخْلٍ ، كَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي مِنْ نَخْلِهِ عَلَى قَدَرِ كَثْرَتِهِ وَقَلَّتِهِ ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي بِالْقَنُو^(٤)، وَالْقَنُوَيْنِ فَيُعْلِقُهُ فِي الْمَسْجِدِ .

وكان أهل الصفة ليس لهم طعام ، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنوف فضربه بعصاه فيسقط البسر والتمر فيأكل ، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنوف فيه الشيص والحفش وبالقنوق قد انكسر فيعلقه ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا

(١) سورة التوبة ١٠١.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٣٩١/٧.

(٣) سورة البقرة ٢٦٧.

(٤) القنو : عذق النخلة .

كَسَبْتُمْ وَمَا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتِمُّوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَكَسْتُمْ
بِأَخْذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ^(١).

قال : لو أن أحدكم اهدي إليه مثل ما أعطى لم يأخذه إلا عن
اغماض وحياء قال : فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده^(٢).

المسألة الثالثة عشرة : لقد ذكرت آية السياق طائفتين من الناس
، بينهما تضاد وهما الطيب والخبيث ، وتضمنت آية البحث الإنذار
للخبيث والشحيح بما آتاه الله لتدل في مفهومها على إكرام الطيب
الذي لا ييخل بما آتاه الله ليكون من الإعجاز في الجمع بين كل
آيتين من القرآن الثناء على المؤمنين الذين يطيعون الله ورسله ، وقد
ذكرت آية البحث الرسل بقوله تعالى ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ يَجْتَبِي مِنْ
رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣).

والنسبة بين الخبيث والذي ييخل بما آتاه الله عموم وخصوص
مطلق ، فالخبيث أعم ، وبينت آية السياق سبيل النجاة من صفة
الخبث والقبيح بالإيمان بالله عز وجل ورسله ، وهل هذا الإيمان
واقية للعبد من البخل فيما آتاه الله ، الجواب نعم.

قال تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ
يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٤).

(١) سورة البقرة ٢٦٧.

(٢) الدر المنثور ١٩٧/٢.

(٣) سورة آل عمران ١٧٩.

(٤) سورة التغابن ١١.

المسألة الرابعة عشرة : لقد أمر الله عز وجل في آية السياق المسلمين بالإيمان به سبحانه وبجميع الأنبياء والرسل بقوله تعالى ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

ليبان قانون هو أن هذا الإيمان واقية من البخل وهو باعث للإنفاق في سبيل الله واخراج الحقوق الشرعية ، لقد جاء كل الرسل باقامة الصلاة واتيان الزكاة والترغيب بالإنفاق وهل يدل البخل والإمتناع عن دفع الحقوق الشرعية على عدم الإيمان الجواب لا ، فقد يكون عن قصور وشح وتهاون.

فجاءت آية السياق للمنع منه ومن صيرورته سبباً للتخلف عن أداء الواجبات العبادية الأخرى ، ومن خصال الطيب الذي ذكرته آية السياق الإيمان بالله ورسله ، والتجاهر بهذا الإيمان، وفي الثناء على المتقين وحسن سماتهم ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(١) ، وليس من حصر لمصاديق الإيمان بالغيب ومنها إخراج الزكاة والإنفاق في سبيل الله رجاء العوض والبدل منه سبحانه .

وعن تويلة بنت أسلم قالت : صليت الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة ، فاستقبلنا مسجد ايلياء فصلينا سجدتين ثم جاءنا من يخبرنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استقبل البيت الحرام ، فتحول الرجال مكان النساء ، والنساء مكان الرجال ، فصلينا السجدتين الباقيتين ، ونحن مستقبلوا البيت الحرام . فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فقال أولئك قوم آمنوا بالغيب^(٢) .

(١) سورة البقرة ٣.

(٢) الدر المنثور ١/٢٣.

والظاهر أن المراد من السجدين في الحديث أعلاه الركعتان.

المسألة الخامسة عشرة : لقد تضمنت آية السياق الأمر بالإيمان

بأن الله وما جاء به الأنبياء والرسل من عنده سبحانه من الأوامر والنواهي وأخبار عالم الآخرة ، فنزلت آية البحث بالإخبار عن صيرورة هذا المال في الآخرة طوقاً في عنق صاحبه يضيق عليه ، ويمنعه من الشهييق والزفير .

ليبين أن هذا التطويق في الآخرة من مصاديق الجحود بالرسل وما جاءوا به من عند الله ، وفيه آية وهي أن قوله تعالى ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لبيان أن هذا الإيمان مقدمة ونوع طريق للعمل بما جاء به الرسل ، بل أن المراد من الإيمان في المقام هو الإمثال للأوامر والنواهي التي جاء بها الأنبياء والرسل من عند الله .

وهل جاء الأنبياء السابقون بمثل ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الإخبار عن تطويق أعناق الذين يشحون بالحقوق الشرعية بذات الأموال أو بغيرها كما لو صارت حية وثعباناً كما يأتي في باب التفسير ، أم اكتفى الأنبياء والرسل السابقون بالإنذار من البخل في الحقوق الشرعية .

المختار هو التعدد والتفصيل ، فمن الأنبياء من جاء بالتحذير من البخل ومنهم من أنذر منه ، ولكنهم ذكروا ذات عقوبته يوم القيامة بتطويق ثعبان لعنق البخيل .

المسألة السادسة عشرة : لقد جمعت خاتمة آية السياق وجوب

أمرين :

الأول : الإيمان .

الثاني : التقوى .

ولم تنته عند ذكرهما إنما أخبرت عن الثواب العظيم لمن تقيد بهما قولاً وفعلاً وهو من إعجاز القرآن بتعقب الثواب للعمل ، وهناك مسألتان :

الأولى : هل يختص الأجر العظيم بالآخرة .

الثانية : هل يشمل الأجر العظيم الأهل والذرية .

أما المسألة الأولى فالأجر أعم في موضوعه وعالمه إنما يشمل وجوهاً :

الأول : الزمن الحال ، إذ يلزم الأجر أوان الإيمان والتقوى ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(١).

الثاني : أيام الحياة الدنيا ، وتجلي الأجر العظيم بالنعم في البدن والرزق والأهل ، ومعاني البركة.

الثالث : عالم البرزخ ، إذ يكون الأجر العظيم على الإيمان والتقوى وافية من العذاب الإبتدائي ، وعن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : المسلم إذا سئل في القبر ، يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فذلك قوله سبحانه ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(٢).

وأخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب في قول الله { يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة } قال : ذلك في القبر ، إن كان صالحاً وفق ، وإن كان لا خير فيه وجد أثلة^(٣).

(١) سورة الطلاق ٢.

(٢) سورة ابراهيم ٢٧.

(٣) الدر المنثور ٥١/٦ .

وعن ابن الزبير أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتاني القبر ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه ، جاءه ملك شديد الانتهاز فيقول له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول المؤمن : أقول أنه رسول الله وعبيده . فيقول له الملك : انظر إلى مقعدك الذي كان من النار ، قد أنجأك الله منه وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة . فيراهما كليهما ، فيقول المؤمن : دعوني أبشر أهلي . فيقال له : اسكن .

وأما المنافق ، فيقعد إذا تولى عند أهله ، فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول : لا أدري أقول ما يقول الناس . فيقال له : لا دريت . . . هذا مقعدك الذي كان لك من الجنة ، قد أبدلك الله مكانه مقعدك من النار ، قال جابر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يبعث كل عبد في القبر على ما مات ، المؤمن على إيمانه ، والمنافق على نفاقه^(١) ، وفيه دعوة نبوية للإستعداد لعالم البرزخ ، وبدايات دخوله ، وأخذ الحائطة من البخل بالحق الشرعي .

الرابع : حضور الأفراد والمصاديق الأكثر من الأجر العظيم في الآخرة ، وفي مواطن يوم القيامة المتعددة .

وأما المسألة الثانية فإن الأجر على الإيمان والتقوى أعم من أن يختص بذات المؤمن إذ يشمل الأهل والذرية.

إذ أن الله عز وجل يعطي بالأوفى والأعم ويضفي البركة على العبد الصالح فتترشح على أهله وذريته ، والبركة هي النماء والزيادة والسعة وكثرة الخير ، والله عز وجل هو خالق البركة

وواهبها لمن يشاء والذي يزيد فيها حسياً وعقلياً ، وكماً وكيفاً ،
ويقال :

الأول : بركة الله عز وجل .

الثاني : بارك له ، أي بارك بأشياء من أجله .

الثالث : بارك فيه .

الرابع : بارك عليه ، و(عن كعب بن عجرة قال : لما نزلت
﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ
وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١)، قلنا : يا رسول الله قد علمنا السلام عليك فكيف
الصلاة عليك ، قال قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد
، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم انك حميد مجيد ،
وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وآل
إبراهيم ، إنك حميد مجيد)^(٢) .

ومن البركة قلة التلف ودفع الضرر خلافاً لقاعدة السبب
والمسبب ، فاذا كان الإنسان يظن أن ماله يكفيه نفقة ثلاثة أشهر
ومن ضمنه مال الزكاة الذي حبسه معه ، فانه إذ أعطى الزكاة منه
يكفيه ضعف المدة أعلاه ، وهو من مصاديق تسمية إخراج الحق
الشرعي بالزكاة لما فيها من معاني الزيادة والنماء ، أي أن اسم
الزكاة ذاته إعجاز وتحد إلى يوم القيامة ، وزاجر عن البخل بها ،
مع أن المدار على المسمى وليس الاسم ولكن الله عز وجل تفضل
فجعل اسم الزكاة سبباً للترغيب بدفعها .

(١) سورة الأحزاب ٥٦.

(٢) الدر المنثور ٨/١٩٧.

المسألة السابعة عشرة : أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١) وفيه بلحاظ آية السياق وجوه :

الأول : الجمع بين الآيتين شاهد على بلوغ المسلمين مرتبة الإيمان باستثناء المنافقين .

الثاني : الإيمان قول وعمل ، وتبعث خاتمة آية البحث المسلمين والمسلمات على الإجهاد في العمل في طاعة الله ، قال تعالى ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقَدْ لَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) .

فبينت الآية أعلاه أن التقوى فرد آخر غير الإيمان ، وهو في طوله ، ومتمم له وكل من الإيمان والتقوى باعث على إخراج الزكاة من الحقوق الشرعية في أوانها .

الثالث : يعلم الله عز وجل ما يفعل المسلمون للفصل بينهم وبين المنافقين .

الرابع : إنذار المنافقين والفاسقين بأن الله عز وجل يعلم ما يفعلون من القبائح ، وهل فيه دعوة لهم للتوبة والإنابة ، الجواب نعم .

ومن الإعجاز في بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمور :
أولاً : ابتداء الدعوة وحتى بعد الهجرة بسنة ونحوها من غير وجود منافقين يظهرون الإيمان ويخفون الكفر .

ثانياً : ظهور طائفة المنافقين بعد نصر الإسلام في معركة بدر ، وهل من فترة بين صيرورة بعض الناس منافقين وبين نزول الآيات التي تدم النفاق والمنافقين .

(١) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٢) سورة آل عمران ١٧٩ .

الجواب لا ، وهو من إعجاز القرآن إذ أن النفاق إضمار للكفر مع إظهار الإيمان وحضور عدد من الصلوات مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذمهم القرآن وأخبر المسلمين عن وجود فئة بينهم تخفي الكفر .

فإن قلت لماذا قيدت هنا حضورهم الصلاة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعدد منها ، الجواب لأن المنافق لا يستطيع حضور كل أفراد الصلوات اليومية .

ثالثاً : نزول آيات القرآن بفضح وذم المنافقين ، وذكر أقوالهم وأفعالهم بما يفيد تحذير المسلمين منهم من غير أن ترد اسمائهم في القرآن ، قال تعالى ﴿ وَتَعْرِفْتُهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ ﴾ ^(١) وإن قيل هل عدم ذكر أسماء المنافقين في القرآن تنزيه له من أسمائهم ، الجواب القرآن حجة وبرهان ، وقد ذكر الله عز وجل اسم فرعون ، واسم أبي لهب ، وقال تعالى ﴿ تَبَتَّ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ ﴾ ^(٢) ، إنما لم يذكر أسماء بعض المنافقين من جهات :

الأولى : قلة خطر المنافقين .

الثانية : كفاية ذكر أقوالهم وأفعالهم .

الثالثة : علم الله عز وجل بتوبة كثير من المنافقين ، وهو من مصاديق خاتمة آية البحث ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ^(٣) .

الرابعة : إكرام النطق بالشهادتين التي جرت على ألسن المنافقين وحضورهم الصلاة بمقدمة الوضوء .

(١) سورة محمد ٣٠ .

(٢) سورة المسد ١ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٠ .

الخامس : علم الله عز وجل بأفعال المسلمين والناس جميعاً ، وتقسيم الأعمال في الدنيا إلى الطيب والخبيث للدلالة على الحساب عليها ، وقد جاء قوله تعالى ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ﴾^(١) ، للتحذير والإنذار المركب من جهتين :

الأولى : هجران الطيب .

الثانية : الميل إلى الخبيث .

وبلحاز آية البحث فإن دفع الزكاة فعل طيب وصلاح ، أما الإمتناع عنها فهو فعل خبيث .

المسألة الثامنة عشرة : لقد تضمنت آية السياق الأمر بالإيمان والتقوى ووعدت عليها الأجر العظيم ، ويحتمل ترتب الأجر والثواب في المقام وجوهاً :

الأول : الأجر على الإيمان وحده وإن لم تكن هناك تقوى وخشية من الله ، كما لو كان الإنسان يؤمن بالله ويصدق بالرسول ولكنه يمتنع عن الفرائض ، وييخل بالزكاة .

الثاني : الأجر على التقوى والخشية من الله من غير إيمان بالرسول والتصديق بهم .

الثالث : الأجر والثواب على الإيمان والتقوى مجتمعين .

والصحيح هو الأخير مما يدل على أن الواو في (تتقوا) في قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَوُفُّوا وَتَقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) ، تفيد الجمع ، وإذا اجتمع الإيمان والتقوى طرد البخل إذ أن الإيمان يمنع نفاذه إلى القلب ، أما التقوى فتحصن الجوارح منه .

(١) سورة النساء ٢.

(٢) سورة آل عمران ١٧٩.

(عن عبد الله بن مسعود ، أنه كان يقول في خطبته : إن أصدق الحديث كلام الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير المثل ملّة إبراهيم ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وأحسن السنن سنة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وأشرف الحديث ذكر الله ، وخير الأمور عزائمها ، وشر الأمور محدثاتها .

وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف القتل موت الشهداء ، وأغر الضلالة الضلالة بعد الهدى ، وخير العلم ما نفع ، وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب^(١) .

المسألة التاسعة عشرة : من معاني الجمع بين آية البحث وآية السياق إرتقاء المسلمين في سلم المعارف الإلهية ، وإصلاحهم للجدال والاحتجاج وبيان وجوب الصدقات طاعة لله ، وقبح البخل ويسهل الإمتناع عن دفع الزكاة للكفار محاربة الإسلام والنبوة .

ومن وجوه تقدير آية السياق :

الأول : يا أيها الذين آمنوا لا يحسن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم ، قال تعالى ﴿سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ* وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾^(٢) .

الثاني : يا أيها الذين آمنوا لا يحسن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير لهم .

الثالث : آمنوا بالله ورسله هو خير لكم .

(١) الإبانة الكبرى لابن بطة ١/١٨٥ .

(٢) سورة الأعراف ١٨٢-١٨٣ .

ومن الإعجاز في الآيتين نفي كل واحدة منهما صيغة الخير عما في أيدي الذين كفروا .

فالإملاء والفضل من الله للذين كفروا شر لهم ، وكذا بالنسبة لمن آتاهم الله من فضله ، وهناك مسألتان :

الأولى : كيف يكون الإملاء من الله شراً والأصل أنه خير ، والجواب نعم الإملاء من الله عز وجل خير محض في ذاته ونفعه ، ولكن الذين كفروا تلقوه بالجحود كما أنكروا النبوات والتنزيل .

قال تعالى ﴿وَكَاذِبِينَ مِنْ قُرْبَةٍ أُمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾^(١) ، وقد رحم الله عز وجل الناس بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بنزول آية البحث والسياق لشكر الله عز وجل على النعم بالتقوى وإخراج الزكاة ومن خصائص الإملاء من الله عز وجل أمور :

الأول : صيغة العموم ، فليس من إنسان إلا وتأتيه في كل ساعة مصاديق من إملاء الله عز وجل .

الثاني : مجئ الإملاء من عند الله عز وجل بلطف ورحمة ، وهو ظاهر وباطن ، وحسي وعقلي .

الثالث : ترغيب ذات وكيفية الإملاء من الله عز وجل الناس بالإيمان والتقوى ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾^(٢) .

(١) سورة الحج ٤٨ .

(٢) سورة محمد ٢٥ .

المسألة العشرون : لقد أخبرت آية البحث عن قانون تدركه كل الخلائق طوعاً وقهراً وهو ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) وفيه مسائل بلحاظ آية السياق منها :

الأول : لقد ذكرت آية السياق المؤمنين ، ومن مصاديق الإيمان الإقرار بأن ميراث السموات والأرض لله وحده .

الثاني : بيان قانون وهو وجود أمة في كل زمان تؤمن بقانون (لله ميراث السموات والأرض) ، قال تعالى ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾^(٢) .

(قال عطاء عن ابن عباس: يريد أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهم المهاجرون والتابعون لهم بإحسان. وقال قتادة: بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال : هذه لكم وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها) ﴿وَمَنْ قَوْمُ مُوسَى أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾^{(٣)(٤)} .

الثالث : عمل المؤمنين في الدنيا وفق قانون ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٥) ويتقوم هذا العمل بالإجتهاد في طاعة الله .

الرابع : إخبار آية البحث عن قانون الميراث المطلق لله عز وجل وحده من مصاديق الغيب ليكون من معاني قوله

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة الأعراف ١٨١.

(٣) سورة الأعراف ١٥٩.

(٤) تفسير البغوي ٣/٣٠٨.

(٥) سورة آل عمران ١٨٠.

تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجِيبُ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(١)، أن من رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم نزول القرآن بعلوم الغيب ومنها ميراث السموات والأرض لبيان قانون وهو أن وجوه وأفراد الغيب التي أخبر الله عز وجل عنها في القرآن خير محض وسبب لهداية الناس ، وامتثالهم للأوامر الإلهية ومنها دفع الزكاة ، واجتنابهم لما نهى عنه ومنه البخل في الحقوق الشرعية ، قال تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٢).

الصلة بين خاتمتي الآيتين

أختتمت آية السياق بالبشارة بالفوز بأجر عظيم ، مع الشرط والتقيد ، إذ يترتب هذا الأجر العظيم على الإيمان والتقوى لقوله تعالى ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٣).

وتقدم الإيمان في الآية على التقوى لأنها فرع الإيمان ، ولا يصح قصد القربة في العبادات إلا بالتقوى والخشية من الله عز وجل وهناك مسألتان :

الأولى : هل المراد من الإيمان في الآية هو الإيمان بالله ورسله لقوله تعالى ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تَوَمَّنُوا﴾^(١).

(١) سورة آل عمران ١٧٩.

(٢) سورة الحشر ٧.

(٣) سورة آل عمران ١٧٩.

الثانية : ماذا لو وقف المؤمن عند الإيمان وحده من غير تقوى في القول والعمل .

أما المسألة الأولى فإن المراد من قوله تعالى ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ يشمل الإيمان بالله وما جاءت به الرسل من عند الله ومنه المعاد ، ومنه اتيان الصلاة وأداء الزكاة وإجتنب ما نهت عنه آية البحث من البخل في الحقوق الشرعية .

وأما المسألة الثانية فيحتمل الوقوف عند الإيمان ، والتصديق بما جاء به الرسل من غير أداء للفرائض والعبادات وجوهاً :
الأول : الفوز بالأجر ، ولكنه ليس عظيماً كما تخبر عنه آية السياق .

الثاني : الفوز بأجر عظيم لأن الأصل هو الإيمان .

الثالث : عدم نيل مرتبة الأجر أو الأجر العظيم .

والمختار هو الأخير وهو الذي تدل عليه آية البحث إذ وردت مطلقة في الذين يتمتعون عن دفع ما في أموالهم من الحقوق الشرعية ، وتتجلى التقوى بالخشية من الله عز وجل في أداء الفرائض العبادية .

لقد نزل القرآن بالتأكيد على التقوى لأنها حرز وبرزخ دون الظلم والتعدي ، وكانت الحياة العامة في الجزيرة مرتكزة على الظلم في الأسرة كالوآد ، وفي الطرق العامة بالسلب والنهب ، وفي الصلات العامة بالغزو والإقتال كالثأرز

وتفضل الله عز وجل وجعل أربعة أشهر يحرم فيها القتال ، قال تعالى ﴿إِنْ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ

وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ ،

(١) ، ليكون قانون الأشهر الحرم رحمة من الله عز وجل بالناس ، ومقدمة لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

وهل من مصاديق آية البحث قوله تعالى ﴿وَيَمْنَعُونَ

الْمَاعُونَ﴾ (٢) الجواب فيه تفصيل ، إذ أن لفظ ﴿الْمَاعُونَ﴾ عام يشمل الواجب والمستحب ، فإذا كان المقصود الواجب فالجواب نعم ، تشمله الآية .

(عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال : الماعون الزكاة المفروضة يراؤون بصلاتهم ويمنعون زكاتهم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله : { ويمنعون الماعون } (٣) قال : أولئك المنافقون ظهرت الصلاة فصلوها وخفيت الزكاة فمنعوها) (٤) .

وعن (ابن عباس: { وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ } يعني: متاع البيت. وكذا قال مجاهد وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، وأبو مالك، وغير واحد: إنها العارية للأمتعة.

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد عن ابن عباس: { وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ } قال: لم يجيئ أهلها بعد) (٥) .

وأختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١)

فجاءت كل من الخاتمتين بصيغة الخطاب للجمع ، ويحتمل وجوهاً :

(١) سورة التوبة ٣٦ .

(٢) سورة الماعون ٧ .

(٣) سورة الماعون ٧ .

(٤) الدر المنثور ٣٦٢/١٠ .

(٥) تفسير ابن كثير ٤٩٦/٨ .

الأول : تخاطب كل من خاتمتي الآيتين المسلمين .

الثاني : المدار في الجهة التي يتوجه لها الخطاب ، ولحاظ نظم الآية والآيات السابقة لها والقرائن .

الثالث : توجه الخطاب إلى الناس جميعاً .

والصحيح هو الأخير ، ويكون من الأول في طوله وتقدير خاتمة آية السياق : يا أيها الناس إن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظيم .
وتقدير خاتمة آية البحث : يا أيها الناس الله بما تعملون خير .
ومن دلالات الجمع بين خاتمتي الآيتين وجوه :

الأول : إخبار آية البحث عن علم الله عز وجل بما يفعل الناس ، ومن معاني اسم «خَيْرٌ» أن الله عز وجل يعلم ما يفعله الإنسان قبل أن يخلقه وعلة هذا الفعل ونتائج فعله وأثره عليه وعلى غيره ، والله عز وجل هو وحده الخبير بالخلائق .
ولو اجتمع الإنس والجن فانهم لا يعلمون عن أنفسهم معشار ما يعلمه الله عز وجل عنهم .

الثاني : غنى الله عز وجل عن الناس ، ولا يضره عمل الناس ، قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ لَنُيْضِرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾^(٢) .

الثالث : علم الله عز وجل بعاقبة كل إنسان ، وهو سبحانه يعلم الذي يدخل الجنة ويعلم الذي يساق إلى جهنم ، وفي التنزيل ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٣) ، وقال تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾^(٤) .

(١) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٢) سورة آل عمران ١٧٦ .

(٣) سورة الملك ١٤ .

(٤) سورة فاطر ١٩-٢٠ .

ويظن الذي يدخر أمواله ويحبس الزكاة وحقوق الفقراء أنه في حرز وحال سكيّنة ، فنزلت آية البحث لتجعله في حزن وهم ، ويتلو المسلمون والمسلمات آية البحث كل يوم ، فيصير الذين يخلون بالحقوق الشرعية على أقسام فمنهم من يصّر على بخله ، ومنهم من يتعدى بسبب تبكيته على بخله ، ومنهم من يتوب إلى الله ، ويخرج الحقوق الشرعية ، وفي التنزيل ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مُتِفًا فَاُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمْ فِيهِ الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾^(١).

الرابع : من دلالات الجمع بين الآيتين الترغيب بالإيمان والعمل الصالح ، ودعوة الناس للتوبة والإنابة .

الخامس : نزول اللطف من عند الله بتقريب العباد إلى طاعة الله عز وجل ، وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج ذات ليلة بعد ما مضى ليل ، فنظر إلى السماء ، وتلا هذه الآية ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢) ، إلى آخر السورة . ثم قال : "اللهم اجعل في قلبي نورا ، وفي سمعي نورا ، وفي بصري نورا ، وعن يميني نورا ، وعن شمالي نورا ، ومن بين يدي نورا ، ومن خلفي نورا ، ومن فوقني نورا ، ومن تحتي نورا ، وأعظم لي نورا يوم القيامة"^(٣).

(١) سورة الأنعام ١٢٢.

(٢) سورة آل عمران ١٩٠.

(٣) تفسير ابن كثير ١٨٨/٢ .

الوجه الثاني : صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا فِي إِثْمِهِمْ وَعَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(١) وفيه مسائل :

المسألة الأولى : ابتدأت كل من آية البحث والسياق بلفظ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ والذي ورد ثلاث مرات في القرآن ، والأخرى قوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾^(٢).

كما ورد ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ خمس مرات في خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وكلها إنذار ووعيد للذين كفروا باستثناء واحدة في قوله تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّمَا تَأْتُوا بِأَحْيَاءٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٣) وحتى هذه الآية تدل في مفهومها على الوعيد للذين كفروا على ظلمهم وغزوهم المسلمين وقتلهم الشهداء في معركة بدر وأحد .

وهل تدل الآية أعلاه على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لم يغزوا المشركين ، الجواب نعم إذ قتل أربعة عشر شهيداً في معركة بدر ، وسبعون شهيداً في معركة أحد بسبب هجوم وغزو مشركي قريش وإصرارهم على القتال وتفاجرهم بقتل الصحابة .

(قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبْعَرِيِّ فِي يَوْمِ أُحُدٍ : يَا غُرَابَ الْبَيْتِ أَسَمِعْتَ فَقُلْ ... إِنَّمَا تَنْطِقُ شَيْئًا قَدْ فَعَلَ

(١) سورة آل عمران ١٧٨.

(٢) سورة الأنفال ٥٩.

(٣) سورة آل عمران ١٦٩.

إِنَّ لِلْخَيْرِ وَلِلشَّرِّ مَدًى ... وَكُلًّا وَجَهَ وَقَبْلَ
 وَالْعَطِيَّاتِ خَسَاسٍ بَيْنَهُمْ ... وَسَوَاءَ قَبْرِ مِثْرٍ وَمَقْلٍ
 كُلُّ عَيْشٍ وَنَعِيمٍ زَائِلٌ ... وَبَنَاتُ الدَّهْرِ يَلْعَبْنَ بِكُلِّ
 أَبْلَغْنَ حَسَانَ عَنِي آيَةً ... فَقَرِيضُ الشَّعْرِ يَشْفِي ذَا الْعِلَلِ
 كَمْ تَرَى بِالْجَرِّ مِنْ جُمُجْمَةٍ ... وَأَكْفَ قَدْ أَتَرْتَ وَرَجُلٍ
 وَسِرَابِيلَ حَسَانَ سَرِيَتْ ... عَنْ كُمَاةٍ أَهْلَكُوا فِي الْمُتَنَزِّلِ
 كَمْ قَتَلْنَا مِنْ كَرِيمٍ سَيِّدٍ ... مَاجِدِ الْجَدِّينَ مَقْدَامٍ بَطْلٍ
 صَادِقِ النَّجْدَةِ قَرْمٍ بَارِعٍ ... غَيْرِ مُلْتَاثٍ لَدَى وَقَعِ الْأَسْلِ
 فَسَلَّ الْمَهْرَاسَ مِنْ سَاكِنِهِ ... بَيْنَ أَقْحَافٍ وَهَامٍ كَالْحَجَلِ
 لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْذُرُ شَهْدُوا ... جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسْلِ
 حِينَ حَكَّتْ بَقْبَاءُ بَرَكْهًا ... وَاسْتَحَرَّ الْقَتْلُ فِي عَبْدِ الْأَسْلِ
 ثُمَّ خَفُّوا عِنْدَ ذَاكُمْ رُقْصًا ... رَقْصَ الْحَقَّانِ يَغْلُو فِي الْجَبَلِ
 فَقَتَلْنَا الضَّعْفَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ ... وَعَدَلْنَا مِيلَ بَذَرٍ فَاعْتَدَلِ
 لَا أَلُومُ النَّفْسَ إِلَّا أَنَّنَا ... لَوْ كَرَرْنَا لَفَعَلْنَا الْمُفْتَعَلِ
 بِسُيُوفِ الْهِنْدِ تَعْلُو هَامَهُمْ ... عَلَلَّا تَعْلُوهُمْ بَعْدَ نَهْلِ^(١).

وعند فتح مكة هرب ابن الزبيري وهبيرة بن أبي وهب زوج أم
 هاني بنت أبي طالب إلى أن وصلا (إلى نجران، فلم يأمنّا من
 الخوف حتى دخلا حصن نجران، فقبل لهما: ما وراءكما؟ قالّا: أما
 قريش فقد قتلت، ودخل محمد مكة، ونحن والله نرى أن محمداً
 سائر إلى حصنكم هذا! فجعلت بلحارث وكعب يصلحون ما رث
 من حصنهم، وجمعوا ماشيتهم، فأرسل حسان بن ثابت أبياتاً يريد
 بها ابن الزبيري :

لا تعدمن رجلاً أحلك بغضه ... نجران في عيش أحد لثيم
 بليت قناتك في الحروب فألقيت ... خمانة خوفاء ذات وصوم

غَضِبَ إِلَهُ عَلَى الزَّبْعَرِيِّ وَابْنِهِ ... وَعَذَابُ سُوءٍ فِي الْحَيَاةِ مُقِيمٌ
 بَلَيْتٌ قَتَانُكَ فِي الْحُرُوبِ فَأَلْقَيْتَ ... خَمَانَةٌ خَوْفَاءَ ذَاتِ وَصُومٍ
 غَضِبَ إِلَهُ عَلَى الزَّبْعَرِيِّ وَابْنِهِ ... وَعَذَابُ سُوءٍ فِي الْحَيَاةِ مُقِيمٌ.
 وحسان بن ثابت بن المنذر النجار الأنصاري الخزرجي شاعر رسول
 الله صلى الله عليه وآله وسلم ، توفي نحو سنة (٤٠) للهجرة
 وكان بعض رجالات قريش يهجون النبي محمداً صلى الله عليه وآله
 وسلم وهم :

الأول : عبد الله بن الزبيري .

الثاني : أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وهو ابن عم النبي
 محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
الثالث : عمرو بن العاص .

الرابع : ضرار بن الخطاب القرشي الفهري (وهو أحد الأربعة الذين
 وثبوا الخندق) ^(١) .

وهؤلاء الذين هجوا رسول الله ما لبثوا أن دخلوا الإسلام.
 فقال قائل لعلي بن أبي طالب اهج عنا القوم الذين يهجوننا فقال إن
 أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلت فقالوا يا رسول الله ائذن له
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن علياً ليس عنده ما يراد في ذلك
 منه أو ليس في ذلك هنالك " .

ثم قال ما يمنع القوم الذين نصرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
 بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم فقال حسان أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه
 وقال والله ما يسرني به مقول بين بصري وصنعاء .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تهجوهم وأنا منهم وكيف
 تهجو أبا سفيان وهو ابن عمي فقال والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة
 من العجين ^(١) .

(١) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ٢٢٥/١ .

وقال ضرار بن الخطاب وهو من مسلمي فتح مكة يوم الفتح :
يا نبي الهدى إليك لجا ... حي قريش وأنت خير لجا
حين ضاقت عليهم سعة الأر ... ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القو ... م ونودوا بالصيلم الصلعاء
إن سعداً يريد قاصمة الظه ... ر بأهل الحجون والبطحاء
وتقام هذا الشعر في باب سعد بن عبادة من هذا الكتاب.
(و قال ضرار بن الخطاب يوماً لأبي بكر الصديق: نحن كنا لقريش
خيراً منكم أدخلناهم الجنة وأوردتموهم النار^(١)).

يريد أنه وأصحابه الكفار قتلوا شهداء بدر وأحد فدخلوا الجنة ، وأن
الصحابه قتلوا سبعين مشركاً يوم بدر فدخلوا النار ولكن كلام ضرار هذا
نوع مغالطة ، إنما دخل المؤمنون الجنة بإيمانهم ، ولو بقوا أحياء وماتوا
على الفراش لفازوا بالنعيم المقيم أيضاً قال تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ
مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢).

المسألة الثانية : ذكرت آية السياق الذين كفروا بقوله تعالى ﴿وَلَا

يُحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٤) أما آية البحث فذكرت خصوص
البخلاء في الحقوق الشرعية بقوله تعالى ﴿وَلَا يُحْسِنُ الَّذِينَ
يُخْلُونُ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٥) والنسبة بينهما هي العموم

(١) الإستيعاب في معرفة الإصحاح ١٠١/١.

(٢) الإستيعاب في معرفة الإصحاح ٢٢٥/١.

(٣) سورة التوبة ١٠٠.

(٤) سورة آل عمران ١٧٨.

(٥) سورة آل عمران ١٨٠.

والخصوص المطلق فالذين كفروا أعم وأكثر ، وهو مصداق للغة البيان والتفصيل والوضوح في آيات القرآن ، قال تعالى ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١) .

ولم يرد لفظ ﴿تِبْيَانٌ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه ، ومن معاني الجمع بين آية البحث والسياق نزول النعم من عند الله فتصيب البر والفاجر ، وهذه الإصابة على نحو التعيين والتخصيص ، فما كتبه الله عز وجل من رزق الإنسان لا يعدوه إلى غيره ، نعم لقد جعل الله عز وجل فضلاً عظيماً عنده ، لذا قال تعالى ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢) .

وتبعث آية البحث على سؤال الله عز وجل من فضله ، وهذا السؤال واقية من البخل ، وحرز من أسبابه .

المسألة الثالثة : ذكرت آية السياق إملاء وعطاء الله عز وجل للكافرين ، وبينت أن هذا العطاء والفضل على نحو متصل ومتزايد لبيان رحمة الله بالناس في الدنيا ، ونزول فضله على المؤمن والفاجر ، وفيه مصداق لقانون (الدنيا دار الفضل الإلهي).

فليس من إنسان إلا ويأتيه الفضل باضعاف حاجته ، وذات خلق الإنسان فضل ونعمة من عند الله ، وهو سبحانه ﴿غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) .

(١) سورة النحل ٨٩.

(٢) سورة النساء ٣٢.

(٣) سورة آل عمران ٩٧.

وقد يظن الذين كفروا أن الله عز وجل يملئ لهم وينعم عليهم لأنه يحبهم وأنه راض عنهم ، فجاءت آية السياق إنذاراً وتوبيخاً لهم ، مع تذكيرهم بقانون ، وهو أن النعم التي عندهم هي من فضل الله عز وجل .

وذكرت آية البحث مصداقاً لشح الذين كفروا بذات النعم التي تفضل الله بها عليهم ، ويظنون أن هذا الشح لنفعهم وأنه حرز لهم لما قد يصيبهم من الفاقة والحاجة ، فأخبرت آية البحث أن الإنفاق في سبيل الله وإعانة الفقراء واجب عليهم ، قال تعالى ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾^(١).

ومن الإعجاز في الشريعة ضبط مقادير الزكاة والأصناف التي يجب فيها ، وقسمتها بما يناسب كل زمان ، ويمنع من الخلاف والشقاق .

(عن زياد بن الحرث الصدائي قال : بينا أنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء قوم يشكون عاملهم ، ثم قالوا : يا رسول الله آخذنا بشيء كان بيننا وبينه في الجاهلية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا خير للمؤمن في الإمارة . ثم قام رجل فقال : يا رسول الله أعطني من الصدقة .

فقال : إن الله لم يكل قسمها إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل حتى أجزاءها ثمانية أجزاء ، فإن كنت جزأ منها أعطيتك وإن كنت غنياً عنها فإنما هي صداع في الرأس وداء في البطن)^(٢).

المسألة الثالثة : ذكرت آية السياق إملاء الله عز وجل للذين كفروا ، وقد تقدمت وجوه من هذا الإملاء^(٣) .

(١) سورة الذاريات ١٩.

(٢) الدر المنثور ٩٨/٥.

وليس من حصر أو حد لفضل الله عز وجل على الناس
مجتمعين ومتفرقين ، ومنه :
الأول : طول العمر .

الثاني : الصحة في البدن ، وفي التنزيل ﴿وَإِذَا مَرَضْتَ فُهِوْشِفِينَ﴾^(٢) .
الثالث : الرزق الكريم ، وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال :
سألت ابن عباس عن هذه الآية ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ
حِسَابٍ﴾^(٣) ، فقال : تفسيرها ليس على الله رقيب ولا من يحاسبه^(٤) .
الرابع : الأمن .

الخامس : السلامة من الآفات الأرضية والسموية .
السادس : بعثة الأنبياء ونزول الكتب السماوية .
السابع : الآيات الكونية وجذب الناس للتدبر فيها ، قال تعالى
﴿سَرِّبْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ
يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٥) .

الثامن : نعمة الزوجية والألفة ، قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن
خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ
فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٦) .

(١) أنظر الجزء التاسع والسبعين بعد المائة الذي يختص بتفسير هذه الآية الكريمة.

(٢) سورة الشعراء ٨٠ .

(٣) سورة البقرة ٢١٢ .

(٤) الدر المنثور ١/٤٨٦ .

(٥) سورة فصلت ٥٣ .

(٦) سورة الروم ٢١ .

وهل هذا التفكير طريق للتنزه عن البخل والإمساك عن دفع الحقوق الشرعية الذي تحذر منه آية البحث ، الجواب نعم ، فلا يمسك المؤمن الحقوق الشرعية خشية الفقر وإصابة أولاده بالعوز والفاقة .

فذاث الزوجة والأولاد مما أملاه الله عز وجل للعبد ، فلا يصح حجب الحقوق الواجبة بسبب هذا الإملاء .

ولا يختص لفظ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في آية السياق وكذا لفظ ﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ﴾^(١) في آية البحث بالرجال إنما يشمل النساء ، وتقدير آية السياق على وجوه :

الأول : ولا يحسن اللائي كفرن أنما نملي لهن خير لأنفسهن .

الثاني : ولا يحسن اللائي كفرن أنما نملي لأزواجهن خير لهم .

الثالث : ولا يحسن الذين كفروا واللائي كفرن أنما نملي لهم خير لأنفسهم .

وهل تشمل الآية أفراد الأسرة الذين يخلون إذا كان فيها مؤمن يحرص على إتيان الواجبات الشرعية ، الجواب نعم ، وهو من الدعوة إلى الأمر بالمعروف ، قال تعالى ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).

ومن أسباب تسمية المشركين النبي بالساحر أنه يفرق بين الأب وابنه ، إذ يدخل الابن أو الأب الإسلام ويمتنع الآخر ، ومن الآيات أن الذي يدخل الإسلام منهما لا يرتد عن دينه ، وأن الذي

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة آل عمران ١٠٤.

يُمْتَنَعُ عَنْهُ لَا يَلْبِثُ أَنْ يَتَعَقِبَهُ بِدُخُولِ الْإِسْلَامِ لِيَكُونَ تَعَقِبَ دُخُولِ
الْأَبِ الْإِسْلَامَ بَعْدَ ابْنِهِ مَعْجَزَةً لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَسَلَّمَ وَشَاهِدًا عَلَى صَدَقِ نُبُوَّتِهِ .

فَالْأَصْلُ أَنَّ الْإِبْنَ يَتَّبِعُ الْأَبَ وَيَقْتَضِي أَثَرَهُ ، وَلَكِنْ الْإِسْلَامُ حَقٌّ
وَمُبَادئُهُ شَهَابٌ قَاهِرٌ لِلْمُشْرِكِينَ ، قَالَ تَعَالَى فِي الْوَالِدِينَ إِذَا كَانَا مِنْ
الْكُفَّارِ ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا
تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ
مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١) ، وَيُمْكِنُ احْتِصَاءُ كُلِّ مَنْ :

الأول : الأبناء الذين دخلوا الإسلام قبل آبائهم .

الثاني : البنات اللاتي دخلن الإسلام قبل آبائهن مثل سهلة
بنت سهيل بن عمرو التي هاجرت إلى الحبشة مع زوجها أبي
حذيفة بينما رأس أبوها وفد مشركي قريش في صلح الحديبية .

الثالث : الأبناء الذين أسلموا وكانوا مع النبي صلى الله عليه
وآله وسلم ﴿يَوْمَ التَّقَى الْجُمُعَانَ﴾^(٢) ، وَأَبَاؤُهُمْ مَعَ الْكُفَّارِ مِثْلَ
الصَّحَابِيِّ أَبِي حَذِيفَةَ بْنِ عَتَبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ فِي يَوْمِ بَدْرٍ .

الرابع : الأبناء الذين دخلوا الإسلام مع آبائهم في آن واحد .

الخامس : الأبناء الذين جذبوا آبائهم إلى الإسلام .

السادس : الآباء الذين دخلوا الإسلام قبل أبنائهم .

السابع : الأبناء الذين دخلوا الإسلام بعد موت آبائهم .

(عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش -
وكان ذا سن فيهم - وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ،

(١) سورة لقمان ١٥ .

(٢) سورة آل عمران ١٥٥ .

إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فاجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً .

فقالوا : أنت فقل ، وأتم لنا به رأياً نقول به . قال : لا ، بل أنتم قولوا لأسمع .

قالوا : نقول كاهن .

قال : ما هو بكاهن . . . لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكهان ولا بسجعهم .

قالوا : فنقول مجنون . قال : ما هو بمجنون . . . لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بمنخقه ولا تخالجه^(١) ، ولا وسوسته .

قالوا : فنقول شاعر . قال : ما هو بشاعر . . . لقد عرفنا الشعر كله ، رَجَزَه وهَزَجَه وقَرِيضَه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر .

قالوا : فنقول ساحر . قال : ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفته^(٢) ، ولا بعقده .

قالوا : فماذا نقول ؟

قال : والله إن لقوله حلاوة؛ وإن عليه طلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناء ، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول أن تقولوا هو ساحر ، يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته^(٣) .

(١) التخلج : الإضطراب وكثرة الحركة (يقال: تخلَّج الشيءُ تخلُّجاً واختلجَ اختلاجا - إذا اضطرب) تهذيب اللغة ٤١٧/٢ .

(٢) النفث : النفخ الخفي ، قال تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ سورة الفلق ٤ / والنفاثات أي الساحرات .

(٣) الدر المنثور ١١١/٦ .

وتدعو كل من آية البحث والسياق الأب والابن إلى الإيمان لما فيهما من الذم للكفر والبخل في الحقوق الشرعية الذي هو فرع الكفر ، وأثر من آثار مفاهيمه وبقائها في الوجود الذهني واستحواذها على الجوارح .

المسألة الرابعة : ابتدأت آية السياق بالإخبار عن قانون من رحمة الله عز وجل بالناس جميعاً بأن يملئ لهم من فضله ، ترى لماذا يشمل هذا الإملاء الذين كفروا ، الجواب من وجوه :

الأول : قانون خلافة الإنسان في الأرض وفيوضات قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١).

الثاني : رأفة الله عز وجل بالناس ، فمن معاني ابتداء كل سورة من سور القرآن عدا براءة بقوله تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٢) إخبار المسلمين بأن الله رحيم بالخلائق ، وفيه دعوة لهم للرحمة والعطف على الناس ، وإجتنب البطش والقتل ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) في إحتجاج الله عز وجل على الملائكة حينما قالوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَيَنْحَرُ نُسُجَ جَهَنَّمَ وَتَقْدَسُ لَكَ﴾^(٤) أن الله عز وجل ينزل رحمته مع بداية كل سورة وتكون دعوة للمسلمين والمسلمات بالصلاح والتتزه عن سفك الدماء .

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة الفاتحة ١.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

(٤) سورة البقرة ٣٠.

الثالث : لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار امتحان وإختبار ومنه الإملاء والعطاء الوافر من الله عز وجل للناس جميعاً ، فيسخره المؤمنون في طاعة الله وأداء الفرائض أما الذين كفروا فأنهم يجعلونه في المعاصي ومحاربة النبوة والتنزيل .

وهل تدل آية السياق على أن غاية الإملاء من عند الله للذين كفروا هي إرادة الشر لهم ، الجواب لا ، إنما هذا الإملاء من فضل الله عز وجل ، ولكن الذين كفروا لم يشكروا الله عز وجل ، إذ اختاروا الجحود والصدود عن الحق والتنزيل .

المسألة الخامسة : يمكن تقسيم الإملاء من عند الله للذين كفروا إلى قسمين :

الأول : الإملاء قبل التلبس بالكفر والجحود وركوب المعصية .

الثاني : الإملاء بعد الإصرار على الإقامة على الكفر .

وهل المقصود من قوله تعالى ﴿أَنَّمَا نُنِلِّي لَهُمْ﴾ ^(١) القسم الأول أو القسم الثاني أعلاه أو كلاهما ، المختار هو الثاني إلا أنه لا يمنع من العموم لقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ^(٢) .

ويدل على إفادة القسم الثاني من لفظ ﴿نُنِلِّي﴾ صيغة المضارع للفعل ، ولقوله تعالى ﴿لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ ^(٣) وفيه منع من افتتان المسلمين والمسلمات لما في أيدي المشركين من المال ، وما لهم من الجاه والشأن بين الناس ز

(١) سورة آل عمران ١٧٨.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠.

(٣) سورة آل عمران ١٧٨.

وقد يتساءل المسلم لماذا لم ينتقم الله من الذين كفروا ، لماذا لا يأخذهم بالوان العذاب حتى يكفوا عن قتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فجاء الجواب أن الإملاء استدراج للذين كفروا ، وإظهار لسوء نواياهم .

وعن (أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله سبحانه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١) (٢) .

المسألة السادسة : لما أخبرت آية السياق عن إملاء الله عز وجل للذين كفروا أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٣) لبيان قانون وهو أن الله عز وجل ينظر ماذا يفعل المسلمون أزاء إملاء الله للذين كفروا ، إذ يجب على المسلمين أمور:

الأول : الثناء على الله والتسليم بأنه سبحانه هو الحليم .

الثاني : الإقرار بعظيم قدرة الله .

الثالث : سعة رحمة الله وأنه يمهّل أعداءه وأعداء رسوله ، أنما يعجل العقوبة من يخاف الفتور .

(١) سورة هود ١٠٢ .

(٢) الدر المنثور ٣٤٣/٥ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٠ .

ولا يعلم موضوع وكم وكيف إِملاء الله عز وجل لأي إنسان إلا هو سبحانه ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (١).

(أخذ الإِملاء من المَلأ وهو ما اتَّسع من الأرض) (٢).

ومن وجوه إِملاء الله للذين كفروا :

الأول : الإمهال .

الثاني : عدم المؤاخذة العاجلة على الكفر .

الثالث : إطالة الأعمار وعدم تعرض الذين كفروا للخسف

والهلاك .

الرابع : السلامة في الأبدان .

الخامس : كثرة الأموال .

وقد كانت قريش أيام قتالها للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في معركة بدر من أغنى أهل الجزيرة ، إذ كانت قافلة أبي سفيان التي أتخذت قريش احتمال تعرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم لها تتألف من ألف بعير محملة بالذهب والفضة وغيرها وقبلها كانت قافلة أمية بن خلف الجمحي تتألف من ألف وخمسمائة بعير .

ويدل إطعام بعض سادات قريش الطعام لعامة الناس على كثرة أموالهم .

(وفى حديث مقتل أبي جهل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: " تطلبوه بين القتلى وتعرفوه بشجرة في ركبته،

(١) سورة النحل ١٨.

(٢) لسان العرب ٢٩٠/١٥.

فإنني تزاحمت أنا وهو على مأدبة لابن جدعان فدفعته فسقط على ركبته فانهشمت فأثرها باق في ركبته " فوجدوه كذلك" (١).

المسألة السابعة : لقد ابتدأت آية السياق بالإنذار والوعيد

للكفار بقوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (٢) وقد يتبادر إلى الذهن إحصار الإنذار بالجاحدين بالربوبية وأن الذي يتفضل الله عز وجل به عليهم شر لهم دون باقي الناس ، فأخبرت آية البحث عن معنى أعم ، وهو الإنذار للذين يخلون بالحقوق الشرعية ، ليكون بين قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ﴾ في آية البحث ، وبين ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في آية السياق عموم وخصوص مطلق ، فالذين يخلون بما آتاهم الله من فضله أخص ، فان قلت وإن كان بعض الكافرين يؤدي الحقوق الشرعية ، الجواب لا يقبل منه لشرط قصد القربة في دفعها والذي يترشح عن الإيمان .

وورد في القرآن ثلاث مرات لفظ ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ وبصيغة النهي ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ واحدة في آية البحث وأخرى في آية السياق ، والثالثة في قوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْزِزُونَ﴾ (٣).

ان ورود ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ متجاورتين مع قلة هذا اللفظ في القرآن دعوة للتدبر في معاني ودلالات هذا التقارب ، وهو شاهد على أن ترتيب الآيات والسور توقيفي من عند الله عز وجل .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ١١٧/١.

(٢) سورة آل عمران ١٧٨.

(٣) سورة الأنفال ٥٩.

(وسياتي قانون شواهد التوقيف الترتيبي)

ومن معاني الجمع بينهما في آيتين متجاورتين أمور:

الأول : زيادة توبيخ الذين كفروا .

الثاني : بيان تعدد وجوه الذم للذين كفروا وأنه لا يختص بالكفر والضلالة .

الثالث : بيان قانون وهو عدم إنحصار ذم الكافر بكفره إنما يشمل سوء فعله .

الرابع : ذكر مسألة وهي ترشح الكرم عن الإيمان ، فدفع الزكاة والحقوق الشرعية مصداق للكرم ، لذا قال الله تعالى في الآية السابقة ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١) فمن التقوى الإحتراز والإمتناع عن البخل ، وهو أمر وجودي لأنه عن قصد وإرادة طاعة الله عز وجل .

وقد لا يلتفت الإنسان إلى الحقوق الواجبة عليه في أدائها وقد يتراخى عن دفعها ، ويقدم مصالحه الخاصة في تسخير الأموال التي تأتيه ، فتفضل الله عز وجل بآية البحث لتأكيد وجوب إخراج الزكاة في أوانها واجتتاب التراخي في دفعها أو البخل بها أو بقسط منها .

فمن إعجاز آية البحث عدم اختصاصها بالذين كفروا إنما جاءت حكماً عاماً للناس جميعاً ، ليقبى المؤمن في حذر .

(عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا مِنْ يَوْمٍ غَرَبَتْ فِيهِ شَمْسُهُ إِلَّا وَبَجَنَتِهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ، يَسْمَعُهُ خَلْقُ اللَّهِ كُلُّهُمْ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفَقًا خَلْفًا، وَأَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ الْقُرْآنَ: " فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى

وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِّيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِّيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى^(١).

الخامس : ذكر آية البحث البخل من باب المثال الأمثل ، وفيه دعوة إلى إحصاء ما يذكره القرآن من الخصال المذمومة للذين كفروا ، وما يترشح عن الكفر من القبائح .

المسألة الثامنة : قد تقدم أنه لم يرد لفظ ﴿ثملي﴾ في القرآن إلا في آية السياق ، وورد فيها مرتين^(٢) ، ومن معاني الربوبية المطلقة لله عز وجل أنه عز وجل يملئ وينعم على الناس كلهم ، ولكن لماذا أختص لفظ يملئ بالكافرين .

الجواب لأن المؤمنين يشكرون الله عز وجل على ما أنعم به عليهم ، أما آية السياق فجاءت بصيغة التوبيخ والذم للذي كفروا لجحودهم النعم .

ويكون تقدير الآية أن الله عز وجل يملئ للناس جميعاً ، وهو سبحانه يملئ للمؤمنين خيراً لأنفسهم ، وهو من بركات الإيمان بأن يشكرهم الله عز وجل بأن يخص الذين كفروا بالتعير والتوبيخ في الإملاء لهم ، وفي التنزيل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾^(٣).

ويرى الذين كفروا كيف أن الإملاء للذين آمنوا هو خير لأنفسهم وباعث للسكينة في نفوسهم ، فيظنون أنهم مثلهم ، فيأتي الرزق ويصيب المال الناس جميعاً من عند الله ، ويتنعمون به ، فأخبرت الآية عن وجود تباين في نتيجة الإملاء للناس ، فقانون الإملاء شامل للناس جميعاً ، ويتنعمون منه في الدنيا في قضاء

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٤٢٠/١٢.

(٢) أنظر الجزء التاسع والسبعين بعد المائة من هذا السفر الذي اختص بتفسير الآية .

(٣) سورة البقرة ١٥٨.

حوائجهم ، وهو خير للمؤمنين في الدنيا والآخرة لتلقيهم له بالشكر القولي والفعلية لله عز وجل .

أما الذين كفروا فإنهم يتلقون الإملاء بالكفر والجحود ، فيكون وبالاً عليه في الدنيا والآخرة .

ومن مصاديق الوبال ما أخبرت عنه آية البحث بأنهم سيطوقون به يوم القيامة ، وهذا التطويق من ضروب العذاب للذين كفروا ، أما المؤمنون فإن الإملاء يكون لهم في الدنيا وسيلة وآلة لفعل الصالحات ونوراً في الآخرة .

ليكون من معاني تلاوة المسلمين لقوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ^(١) إتخاذ الإملاء من عند الله عز وجل وسيلة لعمل الصالحات وجني الحسنات ، والسعي لنيل الدرجات العالية في الآخرة .

وهل الإملاء للمؤمنين من ذات السنخية ومرتبة الإملاء للذين كفروا ، المختار لا ، فإن الإملاء للمؤمنين أكثر سواء كان في أشخاصهم وأبدانهم أو في رزقهم أو ذرائعهم ، أو في حال المنعة والعز التي يصيرون عليها ، وفي التنزيل وفي قصة النبي هود ووعظه لقومه ﴿ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِيدَكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ ^(٢) .

وصحيح أن الآية أعلاه نزلت في النبي هود عليه السلام ودعوته قومه للإيمان إلا أنها قانون عام في الأرض إلى يوم القيامة .

(١) سورة الفاتحة ٦.

(٢) سورة هود ٥٢.

وتبين الآيات من سورة هود إمتناع قوم هود عن الإستجابة لدعوته للتوحيد وعبادة الله ، ونزول العذاب بهم ، ونجاة هود والمؤمنين من العذاب ، قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾^(١) .

المسألة التاسعة : لقد ذكرت آية السياق الإملاء للذين كفروا وأخبرت عن كونه وبالاً عليهم ، ولا يجلب لهم إلا الشر ، وهذا الشر ليس بذات الإملاء لأنه خير محض ، إنما بما كسبت أيدي الذين كفروا وسوء عملهم بذات الإملاء وتسخيره في معصية الله من جهات :

الأولى : أطال الله أعمار رجال قريش فاستمروا على الإقامة على الكفر .

الثانية : تضاعفت أموالهم ، كما في قوله تعالى ﴿لِيَايَلَا فَقُرَيْشٍ * إِيَّاهُمْ رَحْلَةُ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾^(٢) فسخروا هذه الأموال في محاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالثة : رزقهم الله الأولاد وشبوا معهم وزاولوا التجارة معهم لأن الله أطال في أعمارهم ، ولما بعث الله عز وجل النبي محمدا صلى الله عليه وآله وسلم آمن برسالته عدد كثير من شباب قريش ، فقام الآباء بحبسهم وتعذيبهم .

الرابع : لقد كثر عبيد قريش والعاملون عندهم فأسلم عدد منهم فلاقوا شتى صنوف التعذيب من قريش ، ومنهم بلال الحبشي ، وهل وجود العبيد والخدم عند قوم من الإملاء ، الجواب نعم ،

(١) سورة هود ٥٨ .

(٢) سورة قريش ١-٢ .

قال تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَادَّاقَهَا اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(١).

ولم يرد لفظ ﴿أَنْعَمِ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه ، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة :

(والقرية المضروب بها المثل مكة كانت بهذه الصفة التي ذكر الله لأنها كانت لا تغزى ولا يغير عليها أحد . وكانت الأرزاق تجلب إليها .

وأنعّم الله عليها برسوله والمراد بهذه الضمائر كلها أهل القرية ، فكفروا بأنعم الله في ذلك وفي جملة الشرع والهداية ، فأصابتهم السنون والخوف ، وسرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزواته .

هذا إن كانت الآية مدنية وإن كانت مكية فجوع السنين وخوف العذاب من الله بحسب التكذيب)^(٢).

وهل يريد الله عز وجل من الإملاء للذين كفروا ان يزدادوا اثماً ، الجواب لا ، إنما يملّي لهم ليفعلوا الخيرات والشكر لله على النعم بالتقوى والصلاح ولكنهم ركبوا المعاصي .

كما في قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾^(٣).

(١) سورة النحل ١١٢.

(٢) المحرر الوجيز ٢٠٤/٤.

(٣) سورة الإسراء ١٦.

فان الله عز وجل لم يأمرهم بالفسق إنما أمرهم بالتقوى والصالح لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(١) ويكون تقدير الآية أعلاه من سورة الإسراء : وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها بالعدل والإحسان والتقوى ولكنهم فسقوا وعصوا فدمرناها تدميراً .

وكذا بالنسبة لآية السياق وتقديرها : ثملي لهم خيراً لأنفسهم ولكنهم إتخذوا الإملاء للظلم والتعدي وغزوا المسلمين وازدادوا إثماً .

تري ماذا بعد إزدیاد الإثم الذي أخبرت عنه الآية ، الجواب من جهات :

الأولى : إقامة الحجة على الذين كفروا .

الثانية : نزول البلاء بالذين كفروا إن لم يتداركوا أنفسهم وأهليهم بالتوبة والإنابة ، قال تعالى ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^(٢) .

الثالثة : إنذار الذين كفروا بتلاوة المسلمين لآية البحث والسياق ومنه بيان آية البحث للعذاب الأليم الذي يلقاه الذين كفروا بزيادة أثمهم في الدنيا .

وهل يختص عذابهم بتطويق رقابهم بما بخلوا ، الجواب لا ، وهو الذي تدل عليه آية السياق بالإخبار عن العذاب المهين الذي ينتظر الذين كفروا لجحودهم النعم وتسخيرها في غير طاعة الله ، وإتلافها في المعاصي .

(١) سورة النحل ٩٠ .

(٢) سورة التحريم ٦ .

وتتضمن هذه الآيات تأديب الناس للإمتناع عن نصرة واعانة رؤساء الكفر في محاربتهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتنزيل ، وهو الذي تجلّى في عجز الذين كفروا عن جمع الجيوش بعد معركة الخندق ، فكانت أعدادهم في تصاعد بسبب بذل قريش الأموال في جمع الجيوش على الباطل ثم تضاءلت أعدادهم على نحو دفعي (وقال يونس عن ابن إسحاق: خرجت قريش على الصعب والذلول في تسعمائة وخمسين مقاتلا معهم مائتا فرس يقودونها، ومعهم القيان يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين)^(١)، وكان الرسم البياني لجيوش قريش على النحو الاتي :

الأول : عدد جيش المشركين في معركة بدر التي وقعت في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة نحو تسعمائة وخمسين .

الثاني : عدد جيش المشركين في معركة أحد التي وقعت في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة ثلاثة آلاف رجل (قال ابن إسحاق وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل ومعهم مائتا فرس .

قال ابن عقبة وليس في المسلمين فرس واحد قال الواقدي لم يكن مع المسلمين يوم احد من الخيل الا فرس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفرس ابي بردة .

قال ابن عقبة فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن ابي جهل .

قال ابن سعد وجعلوا على الخيل صفوان بن امية وقيل عمرو بن العاص وعلى الرماة عبدالله بن ابي ربيعة وكانوا مائة وفيهم سبعمائة دارع والظعن خمس عشرة امرأة)^(٢) .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٣٨٧/٢ .

(٢) عيون الأثر ٤١١/١ .

الثالث : عدد جيش المشركين في معركة الخندق التي وقعت في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة عشرة آلاف رجل .

(واقبلت الأحزاب حتى نزلت بمجتمع السيول من رومة ، بين الجرف وزغابة في عشرة آلاف من أحاييهم ومن تبعهم من كنانة وغيرهم . ونزلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، حتى نزلوا بدنب نقي ، إلى جانب ﴿أحد﴾ ^(١) .

وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ^(٢) ، ويمكن رسم جدول بياني لأعداد جيوش المشركين وكيف أنها صارت إلى إزدياد ثم إلى نقصان .

ولم يحصل غزو آخر للمشركين بعد معركة الخندق ، وعندما خرج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكة في السنة الثامنة للهجرة لإزاحة ولاية المشركين عن البيت الحرام ، لقوله تعالى ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ إِنْ أُولِئَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَفَنُّونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ^(٣) ، ولنقضهم بنود صلح الحديبية ، وعلمت قريش خرج لمحاربتة بضع عشرات من قريش ، وكانوا متفرقين ، وإن أصبر بعضهم على القتال ، ولكنهم سرعان ما انهزموا .

وخرجت يوم الفتح بنات سعيد بن العاصي الذي قتل يوم بدر كافراً يلطمن وجوه الخيل بخمرهن وقد نشرن شعورهن فتبسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذكر أبيات حسان بن ثابت الأنصاري التي قالها بخصوص فتح مكة قبل الفتح يمدح بها النبي صلى الله

(١) جوامع السيرة ١/١٨٦ .

(٢) سورة آل عمران ٥٤ .

(٣) سورة الأنفال ٣٤ .

عليه وآله وسلم ويصف حال هؤلاء النسوة قبل الحدث وهو من قول ودعاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لحسان (اهجهم يعني المشركين وروح القدس معك " . وإنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لحسان : " اللهم أيده بروح القدس لمناضلته عن المسلمين)^(١) ، وأبيات حسان هي :

(عَفَتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ ... إِلَى عَذْرَاءَ مَنْزِلُهَا خَلَاءُ
 دِيَارٍ مِنْ بَنِي الْحَسْحَاسِ قَفَرٌ ... تُعْفِيهَا الرُّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ
 وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنْيْسٌ ... خِلَالِ مَرْوَجِهَا نَعَمٌ وَشَاءُ
 فَدَخَ هَذَا ، وَلَكِنْ مِنْ لَطِيفٍ ... يُؤَرِّقُنِي إِذَا ذَهَبَ الْعِشَاءُ
 لَشَعْنَاءِ الَّتِي قَدْ تَيَمَّمَتْهُ ... فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مِنْهَا شِفَاءُ
 كَانَ خَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ ... يَكُونُ مَزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءُ
 إِذَا مَا الْأَشْرِبَاتُ ذَكَرْنَ يَوْمًا ... فَهِنَّ لَطِيبُ الرِّاحِ الْفَدَاءُ
 نَ وَلِيهَا الْمَلَامَةُ إِنْ أَلَمْنَا ... إِذَا مَا كَانَ مَغْثٌ أَوْ لِحَاءُ
 وَنَشْرِبُهَا فَتَتْرَكُنَا مُلُوكًا ... وَأَسْدًا مَا يُنْهِنُنَا اللَّقَاءُ
 عَدَمْنَا خَلَيْنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُشِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدَهَا كَدَاءُ
 يُنَازِعُنِ الْأَعْنَةَ مُصْغِيَاتٍ ... عَلَى أَكْتَفَاهَا الْأَسْلُ الْظَمَاءُ
 تَظَلُّ ، جِيَادُنَا مُتَمَطَّرَاتٍ ... يُلَطْمُهُنَّ بِالْخُمْرِ النَّسَاءُ
 فِيمَا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا ... وَكَانَ الْفَتْحُ وَأَنْكَشَفَ الْغَطَاءُ
 وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لَجِلَادِ يَوْمٍ ... يُعِينُ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
 وَجَبْرِيلُ رَسُولُ اللَّهِ فِينَا ... وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
 وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا ... يَقُولُ الْحَقُّ إِنْ نَفَعَ الْبَلَاءُ
 شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صِدْقُوهُ ... فَقُلْتُمْ لَا نَقُومُ وَلَا نَشَاءُ
 وَقَالَ اللَّهُ قَدْ سِيرْتُ جُنْدًا ... هُمُ الْأَنْصَارُ عَرْضَتُهَا اللَّقَاءُ
 لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ ... سَبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ

فَنُحَكِّمُ بِالْقَوَافِي مِنْ هَجَانَا ... وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدَّمَاءُ
 أَلَا أَبْلِغُ أَبَا سَفِيَّانَ عَنِّي ... مُغْلَغَلَةً فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ
 بَأَنَّ سَيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عَبْدًا ... وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتْهَا الْإِمَاءُ
 هَجَوْتَ مُحَمَّدًا وَأَجَبْتُ ... عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
 أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكَفَاءٍ ... فَشَرَكْنَا لَخَيْرِكَمَا الْفِدَاءُ
 هَجَوْتَ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا ... أَمِينُ اللَّهِ شَيْمَتُهُ الْوَفَاءُ
 أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سِوَاءُ ؟
 فَإِنْ أَبِي وَوَالِدُهُ وَعَرِضِي ... لِعَرِضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ
 لِسَانِي صَارِمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ ... وَبِحَرِي لَا تُكْذِرُهُ الدَّلَاءُ^(١).

(قال ابن إسحق ودخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أذاخر حتى نزل بأعلى مكة وضربت له هناك قبة.

وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو قد جمعوا أناسا بالخدمة^(٢) ليقاتلوا^(٣)).

وكان أحد المشركين وهو حسان بن قيس البكري ، أو حماس بن قيس بن خالد الديلي بني بكر قد وعد امرأته بخادم يأسره من المسلمين حينما سمع بقدوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لفتح مكة فحذرت وقالت له (ما رأيته يقاتلكم من مرة إلا ظهر عليكم)^(٤).

وفيه شاهد بأن المسلمين لم ينهزموا في معركة أحد ، وأن أبا سفيان وجيشه عندما عادوا من معركة أحد وأظهروا النصر في المعركة على جيش المسلمين لم يصدقهم أهل مكة رجالاً ونساءً

(١) السيرة / لابن هشام ٤٢١/٢ .

(٢) الخدمة : جبل معروف من جبال مكة .

(٣) عيون الأثر ١٩١/٢ .

(٤) مغازي الواقدي ٣٣٥/١ .

لأصالة الإطلاق في حديث المرأة أعلاه وتحذيرها لزوجها من الحجة في لزوم عدم محاربة النبوة والإيمان ، والتي جعلها الله عز وجل قربة من الناس ، كل فرد بحسبه .

وهل تحذير هذه المرأة خاص لزوجها ، أو هو عام لمشركي مكة الجواب هو الثاني ، وكثير من الرجال والنساء في مكة قاموا بتحذيرهم ، وتطلعوا بشوق للفتح ، وهو من مصاديق صفة المبين للفتح بقوله تعالى ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾^(١) ، فقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يظهر على المشركين في كل معركة .

ولما أظلمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، انهزم حسان وجاء إلى بيته ودخل مرعوباً فزعاً .

فقال له زوجته تسخر منه : أين الخادم الذي وعدتني ، فأنني لم أزل منتظرة له ، فقال

(إِنَّكَ لَوْ شِهِدْتَ يَوْمَ الْخَنْدَمَةِ ... إِذْ فَرَّ صَفْوَانٌ وَفَرَّ عَكْرِمَةُ وَأَبُو يَزِيدٍ قَائِمٌ كَالْمَوْتَمَةِ ... وَاسْتَقْبَلْتَهُمُ بِالسُّيُوفِ الْمُسْلِمَةِ يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجَمْعُهُ ... ضَرْبًا فَلَا يَسْمَعُ إِلَّا غَمْغَمَةً لَهُمْ نَهْيَتْ خَلْفَنَا وَهَمَّهُمْ ... لَمْ تَنْطِقِي فِي اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَةٍ)^(٢).

ثم أمرها أن تغلق باب الدار فقالت : لم .

قال لأنه من يدخل ويغلق بابه فهو آمن .

لقد أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند دخوله مكة حقن الدماء ومنع الإقتال ، وهو شاهد بأن مكة لم تفتح عنوة وغزواً ، وأعطى النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأمن والأمان لكل من :

الأول : من دخل المسجد الحرام .

(١) سورة الفتح ١.

(٢) الروض الأنف ٤/١٦٣.

الثاني : من دخل دار أبي سفيان .

الثالث : من دخل دار حكيم بن حزام .

الرابع : من أغلق بابهُ ، أي أن الأمان يتغشى أهل الدار كلهم

وأموالهم ومتاعهم وأنعامهم .

ويدل الخبر أعلاه على شمول الأمان حتى للذين تصدوا

بالسيوف للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه يوم فتح مكة .

وقال محمد بن سعد ، وأخبرنا عمرو بن عاصم الكلابي قال:

حدثنا جعفر بن سليمان ، قال: حدثنا ثابت البناني ، قال: إنما قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : من دخل دار أبي سفيان فهو

آمن ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أؤذي وهو بمكة

فدخل دار أبي سفيان آمن ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم يوم

فتح مكة : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن^(١).

ولم يثبت هذا القول ، ولم ينقل عن النبي وأصحابه إنما ورد

عن ثابت البناني وعلى فرض صحة النسبة إليه فهو تابعي ، سكن

البصرة ، وصحب أنس بن مالك أربعين سنة مات سنة ١٢٧ هجرية

وعمره ٨٦ سنة .

إنما ذكر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بيت أبي سفيان

على نحو الخصوص بناء على اقتراح من عمه العباس بن عبد

المطلب الذي قال : (يا رسول الله إنه يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً

يكون في قومه ، فقال: " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن

دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابهُ فهو آمن ، ومن دخل

دار حكيم بن حزام فهو آمن^(٢).

(١) المنتظم ٧٢/٢.

(٢) المختصر في أخبار البشر ٩٦/١.

ولم يذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم دار أبي سفيان وحده فقد ذكر معه دار حكيم بن حزام وهو ابن أخي خديجة بنت خويلد زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم (فهو من مسلمة الفتح هو وبنوه عبد الله ، وخالد ، ويحيى ، وهشام ، وكلهم صحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعاش حكيم بن حزام في الجاهلية ستين سنة وفي الإسلام ستين سنة)^(١).

وحكيم بن حزام هذا هو الذي اشترى زيد بن حارثة لعمته خديجة بنت خويلد من سباء في الجاهلية في سوق حباشة وهو سوق بناحية مكة ، وكان العرب يجتمعون فيه أياما من كل سنة (فوهبته خديجة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتبناه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة قبل النبوة وهو ابن ثمان سنين وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكبر منه بعشر سنين وقد قيل بعشرين سنة وطاف به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين تبناه على حلق قریش يقول: " هذا ابني وارثاً وموروثاً " . يشهدهم على ذلك هذا كله معنى قول مصعب والزبير بن بكار وابن الكلبي وغيرهم.

قال عبد الله بن عمر: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت: " ادعوهم لأبائهم)^(٢).

أما أخوه خالد بن حزام بن خويلد القرشي الأسدي فهو من المسلمين الأوائل وهاجر إلى الحبشة ، فنهشته حية في الطريق إليها فمات قبل أن يدخل أرض الحبشة ، وذكر أن فيه نزل قوله تعالى

(١) الاستعاب في معرفة الاصحاب ١/١٠٧.

(٢) الاستعاب في معرفة الاصحاب ١/١٦١.

﴿وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(١).

المسألة العاشرة : من معاني الجمع بين الآيتين دعوة الناس للفرار من مستنقع الخبث إلى رياض الطيب ، من البخل وشدة وطأته على النفس والغير إلى السماحة والكرم وإخراج الحقوق الشرعية .

ومن مفاهيم الخبث في الآية أنه يجب حقوق الفقراء فيزيد من حزنهم وألمهم ومعاناتهم ، وقد يكون هذا الحجب سبباً للجريمة وانتشارها فمتى ما أدى الأغنياء واجباتهم المالية فإن الفقراء يحسون بالتأسي ويعلمون أن لهم حقاً عند الأغنياء لم ولن يخلوا به .

فيميلون للصبر ، ويتحلون بالزهد ، وقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا (دار الصبر) فلا بد أن يصبر الإنسان طوعاً وقهراً وانطباقاً وفي الصبر وجوه :

الأول : الصبر في طاعة الله عز وجل ، وأداء العبادات ، وهو من أسرار تسميتها التكاليف .

الثاني : الصبر عن محاربة الله عز وجل ، إذ تشترك النفس والعقل والجوارح فيه ، قال تعالى ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

(١) سورة النساء ١٠٠.

(٢) سورة يوسف ٥٣.

فيأتي العقل والواعز الإيماني ليزجر الإنسان عن إرتكاب الفواحش .

الثالث : الصبر على الإبتلاء ومنه الصبر حال المرض والآفة الجسمانية ، وهو أمر يصيب البر والفاجر ، فمن لم يؤت العبادات ويصبر عليها قد يتليه الله عز وجل بالأذى والمرض الشديد ، وأيهما أسمى الصبر على طاعة الله عز وجل وحبس النفس على العبادة أم الصبر على البلاء ، الجواب هو الأول .

فإن قلت لماذا قيّدت الكلام أعلاه بالحرف (قد يتليه) الذي يفيد التقليل الجواب إن الله عز وجل واسع كريم ، فقد ينعم على الإنسان بالصحة حتى مع كفره وضلالته لتكون الصحة في المقام من الإستدراج والإملاء الذي ورد في آية السياق ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَلِّيهِمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطَلِّيهِمْ لَعْنًا لِّزُدَّاوُاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(١).

ليبان أن الصبر على أداء العبادات حرز ونجاة من العذاب المهين في الآخرة .

الرابع : الإبتلاء والمصيبة في الأهل والمال وهو أمر يتغشى الناس جميعاً ويستلزم منهم الصبر ، ويكون مناسبة للتدبر بحقيقة الحياة الدنيا وأنها إلى زوال ، وأن المشيئة فيها لله عز وجل وحده ، (عن أنس بن مالك ، عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل ، عليه السلام ، عن الله ، تبارك وتعالى قال : « إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر

(١) سورة آل عمران ١٧٨.

جميل استحيت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا^(١).

لقد ذكرت آية السياق التمييز بين الخبيث والطيب ، وفصل الخبيث عن مجتمع المؤمنين ، ومن وجوه وأسباب هذا الفصل والشواهد عليه الصبر ، فالطيب هو الذي يتحلى بالصبر ويتخذه جلباباً في حياته ويحتمل الصبر وجوهاً :

الأول : إنه أمر وجودي في ذاته .

الثاني : إنه أمر عديم .

الثالث : إنه أمر وجودي في ذاته وأثره .

والصحيح هو الثالث ، فمن معاني الصبر التحمل وعدم الانتقام والبطش ، وجاء القرآن بالتأكيد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بالصبر ليكون من معانيه عدم مقابلة غزو المشركين للمسلمين بمثله ، وعدم الانتقام منهم ، فكان صبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآله عليه وسلم معجزة وشاهداً على أنه لا يقول ولا يفعل إلا بالوحي ، قال تعالى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ صَبِرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(٢) ، وفي الآية ترغيب للمسلمين بالعفو عن آذاهم وحاربهم ، إذ أن العفو في المقام فرع الصبر ومصدق له .

(١) مسند الشهاب القضاعي ٥/١٨٣.

(٢) سورة النحل ١٢٦-١٢٧.

وعن (الإمام الصادق (عليه السلام): اصبروا على الدنيا فإنما هي ساعة فما مضى منه فلا تجد له ألماً ولا سروراً، وما لم يجر فلا تدري ما هو؟ وإنما هي ساعتك التي أنت فيها فاصبر فيها على طاعة الله واصبر فيها عن معصية الله)

وهل في الصبر تنزه وفرار عن مستنقع الخبث ، الجواب نعم ، لأن ذات الصبر عنوان للطيب بذاته وتعاهده وموضوعه لأنه طاعة لله عز وجل واجتناب للعادات المذمومة ، وهل يمكن القول أن الإسلام انتشر بالصبر وليس بالسيف ، الجواب نعم مع لحاظ أمور :
الأول : التضاد بين الصبر والسيف ، لبيان أن دعوى انتشار الإسلام بالسيف لا أصل له .

الثاني : قانون الصبر في طاعة الله عز وجل جهاد .

الثالث : مجئ المدد من عند الله عز وجل مع الصبر ، إذ يتوالى نزول آيات القرآن ، وتترى المعجزات الحسية على يد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وهل تدخل جماعات من الناس الإسلام بسبب ما يرونه من صبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، الجواب نعم ، ومن مصاديق هذا الصبر صبرهم عندما يرون ما يمليه الله عز وجل للذين كفروا من الرزق والمال الوفير والجاء ، فقد كان لقريش شأن عند القبائل العربية ، وحظوة عند ملوك الروم وفارس واليمن والحبشة ، ومنهم من يعرف باسمه في البلاط الملكي ، وكان المسلمون مستضعفين في مكة والمدينة ، قال تعالى ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ

مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ
بِنَصْرِهِ وَزَادَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾.

وحتى الذين هاجروا إلى الحبشة منهم بعثت قریش خلفهم
بعض رجالها ليتصلوا بحاشية النجاشي ويقدموا لهم وله الهدايا ثم
دخلوا على النجاشي وشكوا له أمر المهاجرين وطلبوا إعادتهم إلى
مكة شبه مقيدین ، فأبى عليهم النجاشي في موقف وسخاء كريم
يتجدد في كل زمان ، وينال الثناء من أجيال المسلمين .

المسألة الحادية عشرة : لقد ذكرت آية البحث تفضل الله عز
وجل على الناس باتيانهم من فضله وإحسانه ، ومع هذا فإن الذين
كفروا والمنافقين ييخلون بما يجب عليهم من الحقوق ، قال تعالى
﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يُخَلُّ وَمَنْ يُخَلُّ فَإِنَّمَا يَخِلُّ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ
وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ (٢) ز

وورد لفظ (يخيل) ثلاث مرات في القرآن كلها في الآية أعلاه
وهو من الأمور النادرة في القرآن لتسمية هذه الآية آية ذم البخل
وفيها تأكيد لقانون أن الذي ييخل بالزكاة إنما يضر نفسه فجاءت آية
البحث رحمة بالناس جميعاً للنجاة من الاضرار بالذات الذي
يجلبه البخل بالحقوق الشرعية .

أما بالنسبة لآية السياق فذكرت الإملاء للذين كفروا ، وتحتمل
النسبة بين الإملاء وتفضل الله عز وجل وجوهاً :
الأول : نسبة التساوي بينهما .

(١) سورة الأنفال ٢٦.

(٢) سورة محمد ٣٨.

الثاني : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وهو على شعبتين :

الأولى : فضل الله عز وجل أعم من الإملاء .

الثانية : الإملاء هو الأعم والاكثر .

الثالثة : نسبة العموم والخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء

بين فضل الله عز وجل والإملاء ، ومادة للإفتراق بينهما .

والمختار هو الشعبة الأولى من الوجه الثاني أعلاه ، فالإملاء

من الله عز وجل فرع من فضل الله عز وجل لبيان مسألة بخصوص

آية السياق وهي أن فضل الله عز وجل على الناس يجب ألا يكون

سبباً لإزدياد الإثم إنما هو شاهد على سعة رحمة الله عز وجل

ووجوه التخفيف عن الناس في الدنيا والآخرة ، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ

يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾^(١) ، فافراد ومصاديق فضل الله

عز وجل على الإنسان في كل ساعة من أيام حياته أكثر من أن

تحصى ، فيجب أن لا يكون أي فرد منها سبباً لزيادة آثام الإنسان .

ليكون من مصاديق زيادة إثم الذين كفروا حرمانهم الفقراء من

حقهم في أموالهم ، وبخلهم بالمال اللازم لصد هجوم غزو المشركين

في معركة أحد والخندق ، وفي ذم المنافقين ، وتوثيق سوء قولهم ،

ورد في التنزيل ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ

اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا

يَفْقَهُونَ﴾^(٢) .

(١) سورة النساء ٢٨ .

(٢) سورة المنافقون ٧ .

ولم يرد لفظ (لا تنفقوا) في القرآن إلا مرة واحدة في الآية أعلاه
ليبين فضل الله عز وجل في استئصال النهي عن الإنفاق في سبيل
الله .

وأيهما أشد ضرراً الذي ينهى عن الإنفاق كما في الآية أعلاه أم
الذي ييخل بالحقوق ويمتنع عن الزكاة كما في آية البحث ، الجواب
هو الأول .

وفي أيام غزو الأحزاب للمدينة وإحاطتهم بها كان المنافقون
يأتون بالأعذار الواهية للإنسحاب إلى بيوتهم ، وفي التنزيل ﴿وَإِذْ
قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ
 يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾^(١).

ومن معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الحسية أنه
كان يأذن لأي أحد منهم بالإنصراف مع أن عدد أصحابه معه في
الحنديق لا يبلغ أحياناً أكثر من ثلاثمائة ، وفي الوقت الذي كان فيه
عدد جيش المشركين عشرة آلاف رجل .

(وعن حذيفة قال « لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ، ونحن صافون
قعود ، وأبوسفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقريظة اليهود
أسفل نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ،
ولا أشد ريحاً منها ، أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهي ظلمة ما
يرى أحد منا أصبعه ، فجعل المنافقون يستأذنون النبي صلى الله
عليه وآله وسلم ويقولون ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾^(٢) .

(١) سورة الأحزاب ١٣.

(٢) سورة الأحزاب ١٣.

فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، يتسللون ونحن ثلثمائة أو نحو ذلك ، إذ استقبلنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً رجلاً حتى مرّ علي ، وما علي جنة^(١) من العدو ، ولا من البرد إلا مرط^(٢) ، لامرأتي ، ما يجاوز ركبتي ، فأتاني وأنا جاث على ركبتي فقال : من هذا؟

قلت : حذيفة فتقاصرت إلى الأرض فقلت : بلى يا رسول الله كراهية أن أقوم.

فقال : قم . فقممت فقال : إنه كان في القوم خبر ، فأتني بخبر القوم.

قال : وأنا من أشد الناس فزعاً ، وأشدّهم قرأً ، (القرء: البرد، وليلة قرّة ويوم قر وطعام قارّ.

وفي الحديث: " ول حارها من تولي قارها " .
والقرّة: ماتصبيه من القر.

ورجل مقررّ. وهو أقر من القرّ أي أبرد من الكافور ويكون بارداً، قال امرؤ القيس: على حرج كالقرّ تخفق أكفاني^(٣).

(١) أي سائر مناسب يحجبني عن العدو (وعن الأصمعي: ملاءة معلمة من خز أو صوف صوف البرجد كساء غليظ مخطط يصلح للخباء وغيره المشملة كساء يشتمل به دون القطيفة المرط كساء من خز أو صوف يؤتزر به المطرف كساء في طرفيه علمان، عن ابن السكيت اللقاع بالقاف كساء غليظ، عن الليث، وزعم الأزهري أنه تصحيف، وأنه بالفاء لا غير السبجة والسبيجة كساء أسود، عن الفراء البت كساء من صوف غليظ يصلح للشتاء والصيف، وينشد لبعض الأعراب من الرجز: من يك ذا بت فهذا بتي ... مصيف مقيظ مشتي) فقه اللغة ٥٤/١.

(٢) المرط : ملحفة يؤتزر بها والجمع أمراط ومروط.

(٣) العين ٣٧٠/١.

فخرجت فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم احفظه من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، ومن فوقه ، ومن تحته قال : فوالله ما خلق الله فرعاً ولا قرأ في جوف إلا خرج من جوفي ، فما أجد منه شيئاً .

فلما وليت قال : يا حذيفة لا تحدث في القوم شيئاً حتى تأتيني ، فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم ، نظرت في ضوء نار لهم توقد ، وإذا برجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ، ويمسح خاصرته ويقول : الرحيل . . . الرحيل . . .

ثم دخل العسكر فإذا في الناس رجال من بني عامر يقولون : الرحيل . . . الرحيل يا آل عامر لا مقام لكم ، وإذا الرحيل في عسكرهم ما يجاوز عسكرهم شبراً فوالله أني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم ، ومن بينهم الريح يضربهم بها ، ثم خرجت نحو النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما انتصفت في الطريق أو نحو ذلك ، إذا أنا بنحو من عشرين فارساً متعممين ، فقالوا : اخبر صاحبك أن الله كفاه القوم ، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يشتمل في شملة يصلي ، وكان إذا حزبه أمر صلى ، فأخبرته خبر القوم أني تركتهم يرتحلون . فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ . . . ﴾ (١) (٢) .

المسألة الثانية عشرة : تضمنت كل من آية السياق وآية البحث
نفي تحقيق الخير فيما يفعله الذين كفروا من الإمتناع عن الإنفاق إذ أخبرت آية البحث بأن الإملاء والغبن والسعة التي يعيشها الذين

(١) سورة الأحزاب .٩

(٢) الدر المنثور ١٣٠/٨

كفروا بفضل من الله عز وجل سبب ومادة لتراكم آثامهم وذنوبهم ليس لذات الإملاء بل بسبب إتخاذ المشركين هذا الإملاء مادة في المعاصي ، وسبباً في الإقامة على الكفر ، والغفلة عن أداء الواجبات العبادية خلافاً للواجب ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾ (١).

أما آية البحث فأخبرت بأن البخل والإمتناع عن دفع الحقوق شر على أصحابه في الدنيا والآخرة ، ومن الشر الذي يلحق الذين كفروا في الدنيا توبيخ آية البحث لهم ، من جهات :
الأولى : كشف سوء ظن الذين كفروا .

الثانية : دلالة آية البحث على قانون وهو سعي الذين كفروا لما هو شر لهم .

الثالثة : إخبار القرآن عن سوء عاقبة الذين كفروا في الآخرة .
وهل هذا الإخبار ونزول القرآن بالوعيد للذين كفروا من أسباب محاربتهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
الجواب نعم .

ليكون نزول هذا الوعيد في مكة مع ضعف واستضعاف المسلمين فيها ، ونزوله في المدينة وعدم إنقطاعه شاهداً على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ

مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١﴾

ليكون من مصاديق القرآن إنه كتاب الوعيد للذين كفروا ومن غير خشية أو خوف ، أو مهادنة لهم ، ومن الإعجاز في المقام أمور:
الأول : تناقص عدد المشركين بدخول طائفة منهم الإسلام .
الثاني : إعتزال كثير من العرب قتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالث : إبتلاء طائفة من رؤساء الكفر بالآفات والأمراض وأسباب الإستئصال والهلاك ، وهو من مصاديق قوله تعالى في آية البحث ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ (٢).

الرابع : صيرورة الوعيد من مواطن الآخرة جزء من الواقع اليومي للناس فيتناقل الناس آيات القرآن ، ومنها الوعيد بالعذاب الأليم للذين كفروا ومنه ما ورد في خاتمة آية السياق في ذم الذين كفروا وسوء عاقبتهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٣) .

الخامس : الإخبار عن قانون هو الإملاء والإمهال من عند الله عز وجل للناس جميعاً ، فإن قلت قد ذكرت آية السياق خصوص الذين كفروا بقوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ لِيُذْذَبُوا إِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٤) .

(١) سورة النحل ١٠٢ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٧٨ .

(٤) سورة آل عمران ١٧٨ .

الجواب إن الإملاء للمؤمنين من باب الأولوية ليتعاهدوا سنن الإيمان وينالوا الأجر والثواب بإتخاذهم الإملاء من عند الله عز وجل وسيلة لأعمال البر والصلاح ، فيكون الإملاء من عند الله عز وجل لهم على وجوه :

الأول : إنه رحمة بالمؤمنين .

الثاني : فيه ترغيب للناس بالإيمان .

الثالث : السعة ورغد العيش للمؤمنين ابتداء من فضل الله عز وجل ،
وجزاء على الإيمان وإخراج الزكاة ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ
طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾^(١).

وعن (عبد الله بن عمرو) « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن نوحاً لما حضرته الوفاة قال لابنه : إني قاصر عليك الوصية ، أmerk باثنتين وأنهاك عن اثنتين ، أmerk بلا إله إلا الله ، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعن في كفة ووضع لا إله إلا الله في كفة لرجحت بهن ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة لقصمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء ، وبها يرزق كل شيء وأنهاك عن الشرك الأكبر.

وأخرج ابن أبي شيبة عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ألا أعلمكم ما علم نوح ابنه؟ قالو : بلى ، قال : أmerk أن تقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، فإن السموات لو كانت في كفة لرجحت بها ، ولو كانت حلقة

قصمتها ، وأمرك بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة الخلق وتسييح الخلق ، وبها يرزق الخلق^(١).

لقد توجه نوح عليه السلام بالدعاء إلى الله ليبطش بالذين كفروا ، كما ورد في التنزيل ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يَفْلُتُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَجْرًا كَثِيرًا﴾^(٢).

(عن ابن عمر قال : لما استشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم الناس من أسارى بدر : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ملكان من الملائكة أحدهما أحلى من الشهد والآخر أمر من الصبر ، ونيان من الأنبياء أحدهما أحلى على قومه من الشهد والآخر أمر على قومه من الصبر ، فإما النبيان فنوح قال { رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً }^(٣) ، وأما الآخر فإبراهيم إذ قال { فمن تبغني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم }^(٤) ، وأما الملكان فجبريل وميكائيل ، هذا صاحب الشدة وهذا صاحب اللين)^(٥).

وجاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالرحمة والتمييز بين الخيث والطيب ، ومن خصائص هذا التمييز أمور :
الأول : أنه طريق للتوبة والإنابة ، فمن الفطرة نفرة النفوس من النعت بالخيث خاصة وأن الإنذار من هذا النعت نزل من السماء ،

(١) الدر المنثور ٤/٤٥٥.

(٢) سورة نوح ٢٦-٢٧.

(٣) سورة نوح ٢٦.

(٤) سورة إبراهيم ٣٦.

(٥) أنظر الدر المنثور ٤/٤٩٢.

ومن أسرار خصوصية هذا التنزيل جعل الناس حريصين على الإبتعاد عن هذا الخبث وأسبابه ومقدماته .

الثاني : تنمية ملكة المعرفة عند المسلمين ، وصيرورتهم في حال إرتقاء متصل ، ومن مصاديقه الحذر من الفعل المكروه .

الثالث : قيام المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يصلح النفوس ، ولا يعلم منافع آية السياق في إنحسار الخبث إلا الله عز وجل ، ومن أسرار تلاوة المسلمين القرآن كل يوم الدعوة للتعاون والتعااضد لإجتناّب الخبث .

الرابع : صبر المسلمين على المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، وعدم الإفتتان بهم وبما يقولون ، قال تعالى ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَبِيلًا﴾^(١).

الخامس : اعتزال المؤمنين للمنافقين والذين يسعون في إحداث الفتنة ، قال تعالى ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(٢).

الرابع : تسخير النعم الإلهية في سبيل الله عز وجل بأداء الفرائض والتحلي بالخلق الكريم لذا قالت الآية السابقة ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٣).

الخامس : الحصانة والعصمة من السيئات ، فادراك الإنسان لقانون هو أن النعم التي عنده من الله عز وجل واقية من فعل المعاصي والسيئات .

(١) سورة المزمل ١٠.

(٢) سورة البقرة ١٩١.

(٣) سورة آل عمران ١٧٩.

السادس : إقامة الحجة على الذين كفروا ، إذ جعل الله عز وجل الحياة الدنيا (دار التأديب) ومن الآيات أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم (قال : أدبني ربّي فأحسن تأديبي) ^(١) ، ويقتبس الناس الأخلاق الحميدة ، ويدركون قبح البخل والشح ، وكل يوم من حياة الإنسان ، هو مناسبة للتعلم ، ويتلقى الإنسان شواهد التعليم طوعاً وقهراً وتفضل الله عز وجل وأنزل القرآن وجعله جامعة العلم ويتلو كل مسلم ومسلمة آيات القرآن خمس مرات في اليوم لتكون هذه التلاوة تأديباً للذات والغير .

المسألة الثالثة عشرة : ابتدأت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَلَا

يُحْسِنُ﴾ وتقديرها بلحاظ آية السياق ﴿وَلَا يُحْسِنُ الَّذِينَ يَخْلُونِ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ^(٢) ، فمن معاني الكفر الجحود بالنعمة ، وتؤكد آية السياق حقيقة وهي توالي النعم على الذين كفروا وهو المستقراً من قوله تعالى ﴿نُلِي لَهُمْ﴾ وتدل صيغة المضارع على حقيقة وهي ان المشركين يمحذون بالنعمة ولا يشكرون الله عز وجل ومع هذا فإن الله عز وجل يملئ لهم .

وهل استمر إملاء الله عز وجل لمشركي قريش بعد معركة بدر ، الجواب إن الإملاء من الكلبي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً ، فكانت الأموال تترى على قريش قبل معركة بدر من تجارة الشام واليمن والحبشة والمدن الأخرى قال تعالى

(١) الكشف وإبان - للثعلبي ٣٣٢ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٠ .

﴿لَا يَلَافُ قُرَيْشٌ * إِلَّا لَهُمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾^(١) ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾^(٢) ، أنه دعوة وشرط لتوالي النعم ، والإملاء من عند الله عز وجل ، فلما جحدوا وشهروا السيوف بوجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسالت دماء الصحابة أبتليت قریش بنقص الاموال ، وهم الظاهر بقلّة الإبل وعدد القوافل التي تسير إلى الشام واليمن ، وإنشغال المشركين عن التجارة مع كثرة أنعامهم في الحروب والإعداد للمعارك والبذل للمقاتلين وعوائلهم .

ومن معاني قوله تعالى ﴿لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾^(٣) ، إتخاذهم المال الوفير والإملاء من الله عز وجل في الحرب على النبوة والتنزيل ، ويحتمل إتخاذ المال بهذه الكيفية وجوهاً :

الأول : إنه من البخل الذي تذكره آية البحث .

الثاني : تسخير المال في محاربة النبوة والتنزيل أشد من البخل .

الثالث : ليس من صلة وملازمة بين الإملاء من فضل الله عز وجل وبين البخل الذي تحذر منه آية البحث .

والصحيح هو الثاني أعلاه ، والبخل أمر وجودي وإن كان نوع إمتناع إلا أنه حبس للمال والحق الشرعي ، وهو أقل ضرراً من الظلم بالهجوم على المدينة لقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ،

(١) سورة قريش ١-٢ .

(٢) سورة قريش ٣ .

(٣) سورة آل عمران ١٧٨ .

ومن أفراد جيش المشركين من يقبض الأجرة والمال ليشارك في الهجوم على مدينة الرسول وغزوها .

ومن خصائص آية البحث بعث المسلمين على البذل والكرم والعطاء خاصة وأن آية السياق تبين قانون إملاء ورزق للكافرين ليدل بالأولوية القطعية على الإملاء للمؤمنين فيجب أن يسخره في سبيل الله عز وجل .

صلة خاتمة آية البحث بأية السياق

لقد أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١).

وفيه مسائل :

الأولى : تقدير خاتمة آية البحث بلحاظ آية السياق على وجوه :

الأول : يا أيها الذين آمنوا الله بما تعملون خبير .

الثاني : يا أيها الذين كفروا الله بما تعملون خبير .

الثالث : يا أيها الذين نافقوا الله بما تعملون خبير .

الرابع : يا أيها الناس الله بما تعملون خبير .

الثانية : لقد وقعت معركة بدر في السابع عشر من شهر رمضان

من السنة الثانية للهجرة وأنتصر بها المسلمون ، ودخلت طائفة من الناس الإسلام .

وصار الكفار يخشون على أنفسهم ، فاتخذت طائفة منهم إظهار

الإسلام غطاء وساتراً لما يضمرون من الكفر .

فنزلت آية البحث بالإخبار عن علم الله عز وجل بهم وبما

يخفون في صدورهم من الكفر ومفاهيم الضلالة ، وجاءت آية

السياق بقانون وهو تمييز المنافقين وفصلهم عن المؤمنين .

وهل يقدر الناس على هذا الفصل ، الجواب لا ، إذ يحضر المنافقون صلاة الجماعة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويخرجون إلى معارك الدفاع ، ولكن الله عز وجل يتليهم بما يجعلهم يحرون على ألسنتهم ما تخفيه صدورهم ، فيكون من وجوه تقدير آية السياق وجوه :

الأول : حتى يميز الله الخبيث من الطيب .

الثاني : حتى يميز الله عز وجل ورسوله الخبيث من الطيب في القول والفعل .

الثالث : حتى يميز الناس الخبيث من الطيب في الآخرة .

الرابع : حتى يميز الخبيث من الطيب بالقول والفعل .

الخامس : حتى يميز الخبيث من الطيب في تلقي الأوامر والنواهي الإلهية ، فالطيب يبادر إلى الإمثال ، أما الخبيث والمنافق فانه يمتنع أو يتردد عن الإمثال ويكثر من السؤال الإنكاري ، وفي التنزيل ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^(١).

ترى لماذا يميز الله الخبيث من الطيب ، فيه وجوه :

الأول : لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار امتحان واختبار وابتلاء ، ومن ضروب الإمتحان التمييز والفصل بين الخبيث والطيب .

الثاني : إرادة التخفيف عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين .

الثالثة : سلامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في ميدان القتال والوقاية من غدر المنافقين .

الرابع : سلامة القرآن من التحريف ، فقد يسعى الخبيث والمنافق إلى تحريف كلام الله ، أو المعنى والمقصود منه ودلالته ، فجاءت آية السياق لعزل الخبيثين ومنهم كل من :

أولاً : المنافقون .

ثانياً : الفاسقون .

ثالثاً : الظالمون .

وقد وردت مادة الخبيث بصيغة المفرد والجمع اثنتي عشرة مرة في القرآن منها أربع مرات في آية واحدة ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾^(١).

(و) عن الزبير بن العوام قال : جئت حتى جلست بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ بطرف عمامتي من ورائي . ثم قال : يا زبير إني رسول الله إليك خاصة ، وإلى الناس عامة ، أتدرون ماذا قال ربكم .

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال ربكم حين استوى على عرشه ، فنظر خلقه : عبادي أنتم خلقي وأنا ربكم أرزاكم بيدي ، فلا تتعبوا فيما تكفلت لكم ، فاطلبوا مني أرزاكم أتدرون ماذا قال ربكم؟

قال الله تبارك وتعالى : أنفق أنفق عليك ، وأوسع أوسع عليك ، ولا تُضَيِّقْ أَضَيِّقْ عَلَيْكَ ، ولا تُصِرْ فَاَصِرْ عَلَيْكَ ، ولا تخزن فأخزن عليك .

إن باب الرزق مفتوح من فوق سبع سموات ، متواصل إلى العرش ، لا يغلق ليلاً ولا نهاراً ، ينزل الله منه الرزق على كل امرئ بقدر نيته ، وعطيته ، وصدقته ، ونفقته .

فمن أكثر أكثر له ، ومن أقل أقل له .
ومن أمسك أمسك عليه .

يا زبير فكل ، واطعم ، ولا توك فيوكي عليك ، ولا تحص
فيحصى عليك ، ولا تقتريقتري عليك ، ولا تعسر فيعسر عليك ، يا
زبير إن الله يحب الانفاق ، ويبغض الاقتار .

وإن السخاء من اليقين ، والبخل من الشك ، فلا يدخل النار
من أيقن ، ولا يدخل الجنة من شك .

يا زبير إن الله يحب السخاوة ولو بفلق تمرة ، والشجاعة ولو
بقتل عقرب أو حية . يا زبير إن الله يحب الصبر عند زلزلة الزلازل
، واليقين النافذ عند مجيء الشهوات ، والعقل الكامل عند نزول
الشبهات ، والورع الصادق عند الحرام والخبيثات . يا زبير عظم
الإخوان ، وجلل الأبرار ، ووقر الأخيار ، وصل الجار ، ولا تماش
الفجار . من فعل ذلك دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب ، هذه
وصية الله إلي ووصيتي إليك^(١) .

الخامس : إشاعة لغة الحكمة بين المسلمين والمنع من الكذب
والغش ، فمن معاني الخبيث في الآية الكلام القبيح وأسباب
الضلالة .

لقد أراد الله عز وجل تنزيه مجتمعات المسلمين من المفاهيم
والأخلاق المذمومة ، ليكون هذا التنزيه طريقاً للأجر والثواب
الذي تذكره خاتمة الآية .

ومن الآيات قيام كل مسلم ومسلمة بتلاوة قوله تعالى
﴿أَمْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) تلاوة عينية واجبة في كل ركعة من الصلاة

(١) الدر المنثور ٨/ ٢٤٨ .

(٢) سورة الفاتحة ٦ .

الصلاة اليومية ليكون الطيب في القول والعمل وتنقية الباطن من مصاديق الصراط المستقيم الذي تذكره الآية أعلاه .

وفيه مسألة وهي أن الطيب مرتبة عظيمة تنال بالدعاء والرياضة ، لذا فإن أداء الصلاة والفرائض العبادية الأخرى هي طيب وطريق إلى الطيب ومن مصاديقه التقوى .

لذا أختتمت آية الصيام برجاء بلوغ مرتبة التقوى ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١).

الثالثة : من مصاديق صلة خاتمة آية البحث بآية السياق أن عدم إطلاع الله عز وجل الناس على علوم الغيب رحمة بهم ، وهو من مصاديق الإبتلاء وأسباب التخفيف في الدنيا إذ جعلها الله عز وجل دار عمل وجد وسعي وكسب .

ولأن الله عز وجل خبير بما يعمل الناس حجب عنهم أسرار وكنوز الغيب ، ولكنه تفضل ببعث الأنبياء والرسل ، ليكون من معاني الإستدراك في قوله تعالى ﴿وَلَكِنِ اللَّهُ يَجْتَبِي مَن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾^(٢) بيان الأنبياء والرسل لعلوم من الغيب ، وهذا البيان

من وجوه :

الأول : نزول الآيات من عند الله سبحانه .

الثاني : الوحي للأنبياء .

الثالث : أدعية الأنبياء .

(١) سورة البقرة ١٨٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٧٩ .

الرابع : بشارة الأنبياء ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الرابعة : من الإجهاد وعلوم الغيب بخصوص آية البحث وجوه :

الأول : فضل الله عز وجل على المؤمنين والمنافقين لقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١) لبيان عدة قوانين .

أولاً : قانون فضل الله لا يحده الكفر .

ثانياً : قانون فضل الله لا يحجبه نفاق .

ثالثاً : قانون فضل الله يتغشى الناس جميعاً .

رابعاً : قانون مصاحبة فضل الله لأيام الحياة الدنيا ، وأيهما أكثر على العباد ، فضل الله في الدنيا أم فضله في الآخرة ، الجواب هو الثاني .

الثاني : إخبار آية البحث عن وجود طائفة من الناس يخلون بالحقوق الشرعية ، فالذي لم يره الناس يدفع الحقوق الشرعية يحتمل أنه دفعها بالسر ، وفيه الأجر والثواب (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العدل ، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل .

ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا عليه وتفرقا عليه .

ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال : إني أخاف الله تعالى .

ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لم تعلم يمينه ما ينفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)^(١) .

لقد كشفت آية البحث عن حال المنافقين وأنهم لا يخرجون الصدقات لا علانية ولا سراً ، وفي قوله تعالى ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١) ، قيل (ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية هي في صدقة التطوع ، قال ابن عباس : جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها ، يقال بسبعين ضعفاً ، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرا يقال بخمسة وعشرين ضعفاً ، قال : وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها)^(٢).

وموضوع الآية أعلاه أعم .

الثالث : تفضل الله عز وجل على الناس ومنهم المنافقون والذين كفروا ، فلا ينحصر رزقهم بما كتب الله عز وجل لهم إنما يؤتيهم الله عز وجل نافلة وزيادة من عنده سبحانه ، وكل من الرزق المكتوب والنافلة هو من فضل الله إلى جانب مسألة وهي من مصاديق فضل الله أنه يرزق الذين كفروا مع جحودهم بربوبيته ، قال تعالى ﴿كُلَّا نُمِدُّهُ هَؤُلَاءَ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾^(٣).

الرابع : بيان قانون وهو أن إمساك الحقوق الشرعية ، وعدم إخراجها شر على أصحابها إذ يظنون أنه إدخار وحفظ للمال ،

(١) الكشف والبيان للثعلبي ١١٢/٢.

(٢) سورة البقرة ٢٧١.

(٣) المحرر الوجيز ١/٣٣٧.

(٤) سورة الاسراء ٢٠.

وبقاء للملكيته في أيديهم يتصرفون به متى شاءوا ويدفعون به عوادي الزمان .

فجاءت آية البحث لتتحدثهم ، وتبين أنه شر وضرر لهم ، وسيأتي في باب التفسير كيف يكون البخل شراً على أصحابه .

الخامس : شدة ونوع العذاب الذي يلقاه الذين يمتنعون عن الإنفاق من أموالهم ، قال تعالى ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾^(١) ، فيحج الكفار عن الفقير والمسكين ما جعل الله لهما في أموالهم ، إذ قال تعالى ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا﴾ ولا يقدر على هذا الوصف والإخبار إلا الله سبحانه .

السادس : الإخبار عن يوم القيامة وحتمية وقوعه ، وأنه يوم الجزاء .

السابع : وراثة الله عز وجل للسموات والأرض .

الوجه الثالث : صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنُضِرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى : ابتدأت آية السياق بالخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والمتضمن النهي والتنزيه عن الحزن على فعل قبيح يقوم به الكفار .

(١) سورة الذاريات ١٩ .

(٢) سورة آل عمران ١٧٦ .

(٣) أنظر الجزء الثالث والسبعين بعد المائة الذي اختص بتفسير هذه الآية .

إذ قال الله تعالى ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾^(١)،
وهناك مسائل :

الأول : هل الخطاب في الآية أعلاه خاص بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : هل يشمل الخطاب النبي والصحابة .

الثالث : هل يشمل المسلمين جميعاً .

أما المسألة الأولى فالجواب لا ، لأن الأصل في الخطاب المتحد هو العموم إلا أن يدل دليل على الإختصاص ، ولا يشارك النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أحداً في الخطاب كما في قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ﴾^(٢) ، وقوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾^(٣) .

وقد يكون الخطاب من شطرين في ذات الآية أحدهما خاص للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والآخر عام للأمة كما في قوله تعالى ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٤) .

فأول الآية أعلاه وموضوع الوحي فيها خاص بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أما الصبر فهو خطاب وأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) سورة آل عمران ١٧٦.

(٢) سورة الكهف ١١٠.

(٣) سورة النساء ٧٩.

(٤) سورة الاحزاب ٢.

الله عليه وآله وسلم والأمة رجالاً ونساءً مثل ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(١).

وورد لفظ (قل) خطاباً إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من ثلاثمائة مرة في القرآن ، ويفيد أغلبها المعنى العام وإرادة الأمة عامة.

وإن ورد اللفظ خاصاً ، ومنه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾^(٢).

وقوله تعالى ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾ في آية السياق خاص لفظاً وعام حكماً ، وهو شامل للصحابة وأهل البيت وعموم المسلمين والمسلمات وتقديره ﴿وَلَا يَحْزَنُكُمْ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنُيْضِرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

فإن قيل إذا كان المراد المعنى العام الشامل للمسلمين والمسلمات فلماذا لم تقل الآية ، ولا يحزنكم ، أو : ولا يحزنك وأمتك ، الجواب من جهات :

الأولى : إكرام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثانية : تأكيد مرتبة الصبر السامية التي يتحلى بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) سورة الأعراف ١٥٨.

(٢) سورة الطلاق ١.

الثالثة : توثيق الأذى الشديد الذي يلاقيه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من المشركين ، ومكرهم وكيدهم له وللأمة .
قال تعالى ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(١).

وفيهذا الجمع بين الآية أعلاه وآية البحث لزوم الإحتراز من مسارعة الذين كفروا بالكفر ، ومنه مكرهم وكيدهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن هذا المكر وجوه :
الأول : إيذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في مكة قبل الهجرة ، وحتى بعد الهجرة كان المشركون يؤذون المسلمين والمسلمات الذين لم يهاجروا .

الثاني : حصار قريش لبني هاشم في شعب أبي طالب في مكة لثلاث سنوات ولم يختص هذا الحصار بالإقتصاد والحرمان من سبل العيش ، إنما كان حصاراً إجتماعياً ، وإمتناعاً عن الزواج من نساء بني هاشم ، أو تزويجهم .

وهل كانت قريش تعلم أضرار زواج الأقارب وما يسمى بالزواج اللحمي أو الزواج الداخلي ، أو الاندوجامي والذي يسبب مشاكل صحية عديدة إذا تعاقب بين الأجيال ، وقيل أنه يورث اثنين وثمانين مرضاً من الإجهاض المتكرر والإعاقة ، وقلة وزن المولود ، وأورام القولون ، ولكن رحمة الله عز وجل في المقام هي الحاكمة ، قال تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢) ، وكانت القبائل في عموم الأرض تميل إلى الزواج من الأقارب

(١) سورة النحل ١٢٧.

(٢) سورة الرعد ٣٩.

خاصة مع كثرة الحروب والإقتتال وحاجة القبيلة إلى التآلف والتكتاف .

الثالث : محاربة قريش الصلاة ، والإستهزاء بالتنزيل فصحيح أن هذا الأذى لم يتوجه إلى شخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلا أنه أشد وطأة عليهم لأنه حرب على الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال : ما أؤذي نبي مثل ما أؤذيت^(١).

الرابع : إجهاد قريش في إغراء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالمال والرياسة عليهم بشرط أن يكف عن تبليغ الرسالة ، وزاولوا ضغوطاً ونوع تهديد على عمه أبي طالب بهذا الصدد والذي قام بجمعهم مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليسمع منهم ، وليقول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كلمته المباركة الخالدة بحضور وجهاء قريش :

(يَا عَمَّ ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي ، وَالْقَمَرَ فِي سَآرِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ)^(٢).

الخامس : نعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه ساحر وأنه مجنون ، وتحتمل طريقة ومناسبة هذا النعت جهات :

الأولى : الحديث الخاص والمناجاة بين المشركين أنفسهم .

الثانية : تلقي قريش لوفود الحاج والمعتمرين وتشويه أنباء الوحي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والطعن به لبعث النفرة في نفوسهم وقد تقدم حديث الطفيل بن عمرو الدوسي ، الذي كان رئيساً لقبيلة دوس وكان شاعراً لبيباً ، فقدّم مكة وخشي

(١) تفسير الرازي ٤٥٤/٢.

(٢) سيرة ابن هشام ٢٦٦/١.

رؤساء قريش لإتصاله بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسماعه القرآن ، وسهولة التمييز بين كلام الله عز وجل وبين الشعر بالنسبة له ، وهو لا يخشى الذين كفروا أو رئيس قبيلة يمنعه من التدبر في معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم والقرب منه ودخول الإسلام .

وإذا دخل الطفيل الإسلام فان قبيلته تتبعه لذا استقبله رؤساء الشرك في مكة وحذروه من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأخبروه أنه يفرق بين الأب وابنه ، والأخ وأخيه ، أي بدخول بعضهم الإسلام ، وعدوه سحراً ، إنما هو الهداية والرشاد وسلطان المعجزات التي تجذب القلوب .

الثالثة : الإلتقاص من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بحضرة المسلمين والمسلمات لصدهم عن طاعة الله عز وجل ورسوله ، ولبعث الشك في نفوسهم .

الرابعة : مخاطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجهاً لوجه بالجرح والنعث بالجنون ، كما ورد في التنزيل ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾^(١) ، وقصد نعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالجنون في الآية أعلاه من وجوه :

الأول : تكذيب قريش لإعلان النبي صلى الله عليه وآله وسلم النبوة .

الثاني : استهزاء قريش بتلاوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الآيات القرآن .

الثالث : إعراض وصدود قريش عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن القرآن كلام الله عز وجل .

الرابع : استخفاف وإنكار قریش لسعي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فلم يقدر المشركون على تصور حقيقة أن الإسلام بدأ بخديجة وعلي عليهما السلام وعدد قليل من الصحابة وأنه سيشع وينجذب الناس لدخول الإسلام وأداء هذه التكاليف العبادية .

الخامسة : إنكار المشركين لما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الإخبار عن وقوف الناس بين يدي الله عز وجل للحساب ، وأنهم يدخلون النار لإصرارهم على إتخاذهم الأوثان شركاء لله عز وجل ، وجحودهم بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

و(عن ابن عباس قال : لما سمع أبو جهل ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾^(١)، قال لقریش : ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم أفيعجز كل عشرة منكم أن ييطشوا برجل من خزنة جهنم ، فأوحى الله إلى نبيه أن يأتي أبا جهل فيأخذ بيده في بطحاء مكة فيقول له ﴿أَوَلَيْ لَكَ فَأَوَلَيْ﴾ * ثُمَّ أَوَلَيْ لَكَ فَأَوَلَيْ ﴿^(٢)﴾^(٣) .

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾ بلحاظ آية البحث وجوه .

الأول : ولا يحزنك الذين يخلون بما آتاهم الله من فضله ، وإذا كانت المسارعة في الكفر من قبل الكافرين تحزن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فهل البخل بما آتاهم الله عز وجل يحزنه أم أنه

(١) سورة المدثر ٣١ .

(٢) سورة القيامة ٣٤-٣٥ .

(٣) الدر المنثور ١٠/١٣٦ .

أدنى مرتبة من المسارعة في الكفر فلا يحزن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الجواب هو الأول ، لذا فإن آية البحث دعوة على جهات :

الأولى : مواساة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لإجتماع خصال مذمومة عند الذين كفروا .

الثانية : تحذير المسلمين من إقتباس العادات المذمومة التي يتصف بها الذين كفروا .

الثالثة : بعث المسلمين على الإنفاق في سبيل الله .

الرابعة : دعوة المسلمين للشكر لله عز وجل على توالي النعم ، وعلى عدم صيرورتها سبباً لزيادة الآثام .

الخامسة : بيان حاجة المسلمين لنزول الآيات التي تأمرهم بأداء الزكاة والصدقات ، وتحذر من منعها أو حجبها عن مستحقيها ومع أن السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع فإن وجوب الزكاة وبيان مستحقيها وكيفية توزيعها لم ينحصر بيانه بالسنة وما فيها من الأوامر والنواهي إنما تعددت الآيات القرآنية التي تتضمن الأمر بالزكاة وذكر أصناف المستحقين ، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ

وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١)

وفال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ انْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظِمِمْ مِّنْ لَّوِشَاءُ اللَّهِ أَطْعَمَهُ إِنِ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢)

(١) سورة التوبة ٦٠.

(٢) سورة يس ٤٧.

الثاني : يا أيها الذين آمنوا لا يحزنكم بخل طائفة من الناس بالحقوق الشرعية فان الله عز وجل ﴿هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾^(١)، فما أن يمنع الناس حق الفقراء في أموالهم حتى يفتح الله عز وجل للفقراء أبواباً من فضله ، قال تعالى ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢).

وكم من فقير سأل غنياً إعانتة فامتنع الغني لتدور الأيام ويحدث العكس ، فيقوم الذي كان فقيراً باعانتة وقضاء حاجته.

الثالث : يا أيها النبي لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ، واشكروا الله عز وجل على نعمة دخول الناس الإسلام .

الرابع : يا أيها النبي لا يحزنك إيذاء المشركين لك ولأهل بيتك وأصحابك فان الفرج قريب ، لبيان قانون وهو أن نهى الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عن الحزن على مسارعة الذين كفروا في الكفر والضلالة بشارة قطع هذه المسارعة والمنع منها.

ومن معاني ووجوه تقدير الآية : ولا يحزنك مسارعة الذين كفروا في الكفر فان الله عز وجل يزيحهم عن سلطان الأثر والتأثير لذا جاءت الآية والتي تقع بين آية السياق والبحث بالحث على الإيمان والتقوى ، ومنه رجاء الفرج والفتح لقوله تعالى ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٣).

(١) سورة الذاريات ٥٨.

(٢) سورة النور ٣٢.

(٣) سورة آل عمران ١٧٩.

المسألة الثانية : من خصائص القرآن أنه مدرسة التأديب الأولى في التاريخ ، إذ يدعو إلى الأخلاق الحميدة والسنن الرشيدة ، ويبعث على الإستعداد لعالم الآخرة ، وهو أمر يترشح عن التقيد بسنن التقوى واختيار الفعل الأحسن وما يخلو من الضرر للذات والغير ، رجاء الثواب والأجر العظيم يوم القيامة ، قال تعالى ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ * مِنْ عَمَلِ الصَّالِحِينَ ذَكَرُوا أَنشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ^٩ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(١) ، وأخبرت آية السياق عن حرمان الذين كفروا أنفسهم من هذا الثواب إذ أخبرت عن قانون وهو أن المسارعة في الكفر سبب لأمرين :

الأول : إنعدام الحظ والنصيب في الآخرة .

الثاني : العذاب العظيم يوم القيامة .

ولو اكتفى الكافر بالكفر ولم يسارع فيه فهل تكون ذات العقوبة الأليمة له ، أم لابد من المسارعة في الكفر ومحاربة النبوة والتنزيل ، الجواب هو الأول ، إذ لا تدل آية السياق على أن المسارعة في الكفر وحدها هي العلة للعذاب العظيم للذين كفروا .

إنما اختيار الكفر والتلبس به هو سبب للعذاب كما أن تجدد الإقامة على الكفر كل يوم هو من المسارعة في الكفر ويسارع الكافر إلى أجله وسوء عذابه في الآخرة ، فكل يوم ينقضي من عمر الإنسان يقربه من الآخرة .

وتعطي آية البحث مندوحة وفرصة للتدارك للناس لنيل الثواب بالتزهد عن البخل بالحقوق الشرعية التي هي جزء يسير مما هو فائض عن الحاجة ، فإن إدخره الإنسان لورثته فإن الوزر والحساب يكون عليه هو .

بينما يكون دفع الحقوق الشرعية وسيلة لنزول شأيب الرحمة من عند الله عز وجل ، قال تعالى ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾^(١).

المسألة الثالثة : أخبرت آية السياق عن قانون وهو عدم إضرار الذين يسارعون في الكفر بالله عز وجل في ملكه ، وعدم الإضرار بالمؤمنين لأن الله عز وجل لا بد أن يظهر دينه ليكون من باب الأولوية أن الذين ييخلون بما آتاهم الله عز وجل من فضله لن يضرروا الله شيئاً ، وهم لا يضررون المؤمنين.

فإن قلت إنهم يحجبون حقوق الفقراء والمحتاجين التي جعلها الله عز وجل أمانة شرعية في أيديهم ، والجواب ما كتبه الله عز وجل من رزق للفقراء لا بد أن يصل إليهم ، والله عز وجل هو الرزاق ذو القوة المتين كما جاء بالتنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾^(٢).

فمن يمنع عنهم رزقهم فإنما يضر نفسه ، ويدل قوله تعالى ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٣) ، أي أن المال والأعيان التي

(١) سورة النساء ٩.

(٢) سورة الذاريات ٥٨.

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

يخل بها الكفار والمنافقون تحضر يوم الحساب لتكون طوقاً في أعناقهم .

المسألة الرابعة : لقد أخبر الله عز وجل عن قانون من الإرادة التكوينية وهو قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١)، وفيه بلحاظ آية السياق وجوه :

الأول : حزن النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الذين يسارعون في الكفر من تجليات الرحمة العامة في رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : عدم حزن النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الذين كفروا من الرحمة العامة في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالث : حزن وعدم حزن النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الذين كفروا من الرحمة العامة لنبوته .

والمختار هو الوجه الثاني فقد كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يجتهد في دعوة الناس إلى الإيمان ، ويجزئه إقامة شطر من الناس في مستنقع المعصية فنزلت آية السياق للتخفيف عن الناس ، وتبين أن العذاب الاليم ينتظر الذين يحاربون النبوة والتنزيل ، وأن الوعيد بهذا العذاب من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢)، من جهات :

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

الأولى : بعث الخوف والفرح في قلوب الذين كفروا ، قال تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبَشِّرِ الْمُظَالِمِينَ﴾^(١).

الثانية : منع الناس من الإفتتان بما عند الذين كفروا من الجاه والشأن والمال ، فيدرك الناس بما رزقهم الله عز وجل من العقل أن هذه النعم الدنيوية أمر زائل ، وما دامت عاقبته العذاب فلا خير فيه .

الثالثة : الوعيد الذي تذكره آية السياق باب قريب للتوبة والإنابة ، إذ تفرغ النفوس من العذاب ، ويجتهد كل إنسان في اجتباب الأذى والضرر القليل والمؤقت فكيف وقد أخبرت آيات القرآن الذين كفروا عن إقامتهم في النار .

وما أن يتوب الإنسان حتى ينجو من الذم الوارد في آية البحث بخصوص البخل عن الحقوق الشرعية فان قلت لقد كان في سنوات عمره يبخل بها ويحارب النبوة والتنزيل فهل تشملها التوبة وسنن المغفرة .

الجواب نعم ، قال تعالى ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾^(٢) ، وورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال (الإسلام يجب ما قبله)^(٣).

المسألة الخامسة : من معاني الجمع بين آية البحث والسياق الذم المتعدد للذين كفروا من جهات :

(١) سورة آل عمران ١٥١.

(٢) سورة طه ٨٢.

(٣) الكشف والبيان ٣٦٨/٧ .

الأولى : الذم على إختيار الكفر والإقامة عليه.

الثانية : التوبيخ على المسارعة في الكفر سواء كانت المسارعة فردية أو جماعية.

وتفضل الله عز وجل وندب المسلمين لصلاة الجماعة خمس مرات في اليوم ليرى الكفار كيف أن المسلمين يتعاونون في الخشوع والخضوع لله عز وجل ويتلون آية البحث وآية السياق ، وكل تلاوة للقرآن في الصلاة فيها تأديب عام ، وذم إضافي للذين كفروا وتذكير لهم بلزوم التوبة والإنابة ، إذ تجذب حال الخشوع بين يدي الله عز وجل قلوب الناس طوعاً وقهراً ، وفي التنزيل ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾^(١).

الثالثة : ذم الذين كفروا بحرمانهم أنفسهم من الحظ والنصيب من رحمة الله عز وجل في الآخرة ، التي ترى وتكون قريبة من اهل المحشر وبين ظهرانهم حتى يطمع بها ابليس .

الرابعة : إختتام آية السياق بالإخبار عن العذاب الأليم للذين كفروا ذم وتوبيخ لهم ، ومن إعجاز القرآن دلالة آيات الوعيد على ذم الذين كفروا لأنهم استحقوه ومصاديقه الواقعية بسوء إختيارهم ، قال تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٢) ، وكذا فإن آيات الوعد للمؤمنين ذم للذين كفروا لأنهم حرموا أنفسهم من هذه النعمة ، لبيان عدم وجود برزخ بين الوعد والوعيد ، وكذا بالنسبة للعاقبة ، قال تعالى ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(٣).

(١) سورة ابراهيم ٣٧.

(٢) سورة النحل ١١٨.

(٣) سورة الشورى ٧.

المسألة السادسة : ذكرت آية البحث البخل والشح وحبس الحقوق الشرعية ، فهل هو من المسارعة في الكفر ، الجواب نعم بالنسبة للذين كفروا لأن دفع الزكاة خطاب تكليفي للناس جميعاً ، وإذا كان البخل في الحقوق شراً للذين كفروا في الحياة الدنيا فمن باب الأولوية القطعية أن المسارعة في الكفر شر لهم ووبال عليهم في الدنيا أيضاً.

وورد لفظ (آتاهم الله) بصيغة الماضي فهل تدل الآية على حبس فضل الله عنهم عندما يخلون بما آتاهم الله ، الجواب لا دليل عليه ، إنما جاءت صيغة الماضي لإقامة الحجة على الذين كفروا باتصال فضل الله عليهم في أفراد الزمان الطولية.

المسألة السابعة : إذا كان الذين يسارعون في الكفر لا يضررون الله شيئاً قلّ أو كثر كما في آية السياق ، فهل بخل الذين كفروا بما آتاهم الله من فضله يضر الله والمؤمنين.

الجواب لا ، للأولوية القطعية ، فالمسارعة في الكفر له مصاديق متعددة فردية وعامة وهو أشهر من البخل ، ومن المسارعة في الكفر الإنفاق على الجيوش التي حاربت النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة يسمعون بإعداد قریش للجيوش لقتالهم وانفاقهم الأموال الطائلة على المقاتلين كما في معركة أحد والخندق ، وهذا الإنفاق ليس خافياً على أحد ، وتتحدث به العرب ليكون من معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم انقلاب المشركين عن قتالهم النبي بالخبيثة والخسران ، وتركهم لطائفة من فرسانهم قتلى في ميدان المعركة.

وفي معركة أحد ونتائجها والتي كان المشركون يتفاخرون بنتائجها نزل قوله تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(١).

المسألة الثامنة : لقد ذكرت كل من آية السياق والبحث اليوم الآخر ، إذ ذكرته آية السياق بلفظ (الآخرة) وذكرته آية البحث بلفظ (يوم القيامة) وفيه إنذار للذين كفروا وإقامة للحجة عليهم في النشاطين وزجر عن عبادة الأوثان.

وقال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق وهم ولد عملاق ، ويقال ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، رأهم يعبدون الاصنام ، فقال لهم : ما هذه الاصنام التي أراكم تعبدون ، قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا .

فقال لهم : ألا تعطوني منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه فأعطوه صنما يقال له هبل ، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

قال ابن إسحاق : ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل عليه السلام ، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم .

فحيث ما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة .

حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنا من الحجارة وأعجبهم ، حتى خلفت الخلف ونسوا ما كانوا عليه .

وفي الصحيح عن أبي رجاء العطاردي، قال: كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجرا جمعنا حثية من التراب وجئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنا بها^(١).

ولم تكن صبغة الوثنية هذه تتغشى أهل مكة والجزيرة كلهم ، إذ توارثت أمم منهم التوحيد ، وصبروا على الحاد الأكثر من الناس ، وتطلعوا إلى معجزة من عند الله تنقذهم وخافوا من عذاب عظيم ينزل بالناس جميعاً ، فانعم الله عز وجل عليهم ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

ومن الناس من كان يخشى نزول صاعقة من السماء عليهم لعبادتهم الأوثان ، ففضل الله عز وجل برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن لتضمن آية السياق والبحث ذم الذين كفروا ، وفضحهم ، ودعوتهم للهداية والإيمان ومن مفاهيم آية البحث الثناء على المؤمنين الذين ينفقون من أموالهم في إدخال الغبطة والسرور في نفوس الفقراء.

ومن آيات القرآن ما جمعت بين الأمر بالإنفاق والترغيب بالإحسان بالقول والفعل والتحذير من البخل والشح قال تعالى ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣).

المسألة التاسعة : ذكرت آية البحث قانوناً وهو كل ميراث السموات والأرض لله عز وجل ، فهو سبحانه هو الخالق

(١) سورة البقرة ١٩٥.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٣) سورة البقرة ١٩٥.

للسموات والأرض وما فيهن والمالك لها أيام الحياة الدنيا ،
والوارث لها يوم القيامة ليكون من مصاديق إطلاق هذا الميراث
بلحاظ آية السياق أمور :

الأول : سلامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الحزن على
الذين كفروا لأن كل ميراث السموات والأرض لله عز وجل .

الثاني : تأكيد مصداق وبرهان على قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ لَنُيْضِرُّوا اللَّهَ
شَيْئًا﴾^(١) ، فما دام كل ميراث السموات والأرض والجبال والأنهار والبحار
لله عز وجل ، فليس من ضرر من الكفار ، قال تعالى ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا
خِيَاَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٢) .

الثالث : تدل آية البحث على قانون وهو حضور الناس جميعاً
في الآخرة لأنهم جزء من ميراث السموات والأرض وما فيهن ،
وهو من أسرار خلق الإنسان من طين الأرض ودفنه وعودته إليها
، وحتى الذي لا يدفن فان أجزاءه تعود إليها ، قال تعالى ﴿مِنْهَا
خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾^(٣) .

الرابع : ميراث السموات والأرض من سلطان الله عز وجل
ومنه عذاب الذين كفروا بربوبيته وأنكروا النبوة والميعاد ، وسعوا
في محاربة الأنبياء والتنزيل ، وأختتمت آية السياق بتأكيد هذا
القانون ليكون من بركات نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم
التحذير من الكفر والضلالة والفجور لأن عاقبتها الخلود في
العذاب .

(١) سورة آل عمران ١٧٦ .

(٢) سورة الأنفال ٧١ .

(٣) سورة طه ٥٥ .

وعن أبي ذر : أوصاني خليلي صلى الله عليه و سلم بسبع أمرني أن أنظر إلى من هو دوني و لا أنظر إلى من هو فوقي .
وأمرني بحب المساكين و الدنو منهم و أمرني أن لا أسأل أحدا شيئاً .

وأمرني أن أصل الرحم و إن أدبرت و أمرني أن أقول الحق و إن كان مرا و أمرني أن لا تأخذني في الله لومة لائم و أمرني أن أكثر من قول لا حول و لا قوة إلا بالله فإنها من كنز الجنة^(١) .
الشعبة الثانية : صلة آية البحث بالآيات المجاورة التالية لها ، ومنها :

الوجه الأول : صلة آية البحث بالآية التالية ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَحَنُؤُنَا غَنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٢) ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى : جاءت آية البحث بالإنذار والوعيد للذين يخلون بالحقوق الشرعية ، ويمتنعون عن مساعدة الفقراء ، مع أن الله عز وجل رغب الناس جميعاً بهذا الإنفاق وجعله كالقرض له ، والدين عليه ، قال تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾^(٣) ، لبيان قانون وهو ليس من برزخ في عالم الحساب ، فاما أن ينفق الإنسان مما رزقه الله فيثيبه عليه ، واما أن يمتنع فيعاقبه ، بمعنى أن العقاب يوم القيامة لا ينحصر بارتكاب

(١) شعب الإيمان ٢٤٠/٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

(٣) سورة البقرة ٢٤٥ .

المعاصي والسيئات إنما يشمل حبس الزكاة ، والإمتناع عن إعانة الفقراء.

و(عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قيل لي : يا محمد ، قل تسمع ، وسل تعط ، قال : فقلت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك ، وأنا غير مفتون ، اللهم إني أسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحباً يلغني حبك)^(١).

المسألة الثانية : جاءت كل من آية البحث وآية السياق بصيغة الجملة الخبرية ، وتتضمن كل واحدة منهما ذم الذين كفروا بلحاظ سوء فعل صادر منهم كما في آية البحث ، أو قول منكر كما في آية السياق ، وفيه وجوه :

الأول : تأديب المسلمين والمسلمات .

الثاني : بيان حال شطر من الناس وتقصيرهم في القول والفعل .

الثالث : إصلاح المسلمين للجدال والإحتجاج .

الرابع : تفقه المسلمين في الدين ، وارتقاؤهم في المعارف الإلهية .

الخامس : بيان سماوي عن قانون وهو أن الله يسمع كل كلام يصدر من الفرد أو الجماعة .

السادس : التحذير والإنذار من الظلم النفسي بالتجراً والتعدي على مقام الربوبية ، فقد أخبرت كل الملل السماوية عن قانون وهو أن السموات والأرض ملك لله عز وجل .

ومن إعجاز القرآن أنه لم يرد فيه لفظ (مالك) إلا مرتين أحدهما بخصوص الدنيا وهو قوله تعالى ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي

الْمَلِكُ مَنْ تَشَاءُ وَنَزَعَ الْمَلِكُ مِمَّنْ تَشَاءُ وَعَزَمَ مَنْ تَشَاءُ وَنَذَلَ مَنْ تَشَاءُ بِبِدِكَ الْخَيْرِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(١) ، والأخرى بخصوص عالم الآخرة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٢) ، وإذا أخبر الله عز وجل أنه يؤتي الملك في الدنيا لمن يشاء فيجب أن يخرجوا الزكاة ، ويدفعوا الحقوق الشرعية أما في الآخرة فليس من صدقة هبة من الناس لملك قل أو كثر ، ، لذا يتلو كل مسلم ومسلمة ما يخص الآخرة وهو قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٣) سبع عشرة مرة في الصلاة اليومية الواجبة ، وفيه ترغيب لهم بدفع الحقوق الشرعية.

المسألة الثالثة : لقد أخبرت آية السياق عن إدعاء الذين جحدوا بأنهم أغنياء وإذا كانوا أغنياء فلماذا يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، لبيان مسألة وهي أن آية البحث حجة على الذين كفروا ، فمن كان غنياً ينفق الكثير ولا يخشى الفقر والعوز ، وبما أنهم أظهروا البخل وتفاخروا به فهم ليسوا أغنياء.

ولم تقيد آية البحث مقدار البخل من طرف القلة أو الكثرة ، مما يدل على أن أي إنفاق ذي شأن يطرد صفة البخل عن الإنسان ، نعم قد جاء الكتاب والسنة ببيان مقدار النصب التي تجب فيها الزكاة فمثلاً في الحبوب من الخنطة والشعير والتمر تجب الزكاة إذا بلغ الحاصل خمسة أوسق ، والوسق ستون صاعاً ، والصاع أربعة أمداد.

(١) سورة آل عمران ٢٦.

(٢) سورة الفاتحة ٤.

(٣) سورة الفاتحة ٤.

ويساوي كل مد ثلاثة أرباع الكيلو فيكون المجموع نحو (٨٥٠) كغم ، وقيل يساوي المد الواحد ٥٦٠ غراماً ، فيكون مجموع النصاب (٦٧٢) كغم.

وهل الفرق بين النصابين أعلاه من دوران الأمر بين الأقل والأكثر ، فيجزي الأقل وهو (٦٧٢) كغم ، ومن الإحتياط دفع الأكثر وهو (٨٥٠) الجواب لا ، والأولى الإتفاق بلحاظ الأوزان الحديثة على مقدار كل من :

الأول : المد .

الثاني : الصاع : وهو أربعة أمداد .

الثالث : الوسق : وهو ستون صاعاً .

وتحذر آية البحث من الإمتناع عن الصدقة الواجبة والمستحبة ، فليس من حصر لموارد الصدقة المستحبة قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

المسألة الرابعة : تضمنت آية البحث قانوناً وهو أن الله عز وجل يؤتي الناس من فضله وإحسانه ، وذكرت خصوص الذين يخلون بالأموال مما يدل بالأولوية القطعية على أن الله يؤتي المؤمنين الذين ينفقون ويتصدقون من أموالهم من فضله أيضاً ، مع إقرارهم بأن ما في أيديهم هو من فضل الله ، وفي التنزيل ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ
بَاقٍ﴾^(٢).

(١) سورة البقرة ٢٧٤.

(٢) سورة النحل ٩٦.

المسألة الخامسة : لقد أخبرت آية البحث عن قول جماعة بالتنزيل بأن الله عز وجل فقير وأنهم أغنياء لأن الله عز وجل أمرهم أن يقرضوه بالتصدق على الفقراء فهل لهذا القول موضوعية في بخلهم بالحقوق الشرعية ، الجواب نعم لذا جاءت الآيتان متعاقبتين.

وأيهما أكثر قبحاً البخل بالحقوق الشرعية أم القول بأن الله عز وجل فقير ونحن أغنياء ، المختار هو الثاني وهو أصل للبخل ، والإمتناع عن الإنفاق في سبيل الله .

ليبان قانون في إعجاز القرآن وعالم القول والفعل بالإخبار عن أصل الفعل القبيح ولزوم إجتنابه ، لقد كان الذين ييخلون بالحقوق الشرعية يتفاخرون بهذا البخل ويتناجون به فجاءت آية البحث والسياق للزجر عنه ، وتفضحان هذا البخل مع بيان قبحه ، وضرره على ذات البخيل .

المسألة السادسة : تتضمن كل من آية البحث وآية السياق إنذار الذين كفروا والجاحدين بتذكيرهم بعالم الآخرة ولا يختص هذا الإنذار بالذين ييخلون بالحقوق الشرعية ، أو الذين تلقوا قوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾^(١) ، بالسخرية وإدعاء أنهم أغنياء ، إنما يشمل الكفار جميعاً ، فاذا كان الله عز وجل يكتب ما تقوله جماعة منهم بخصوص آية أو دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للتصدق وإخراج الزكاة فانه سبحانه يكتب إيذاء كفار قريش للنبي وأهل بيته وأصحابه وإصرارهم على القتال في معركة بدر ، وتجهيزهم لثلاثة آلاف رجل لمحاربتة

وأصحابه في معركة أحد ، ثم عشرة آلاف في معركة الخندق وقتلهم المهاجرين والأنصار كما ذكرت آية السياق قتل الأنبياء بغير حق.

المسألة السابعة : تدعو كل من آية البحث والسياق الى الحوار ، وتعلم المسلمين صيغ الإحتجاج ، وفيه نبذ للعنف ، ومنع من الإرهاب ، وشاهد على الإستغناء عنه وعدم الحاجة إليه ، فاما أن ينصاع الإنسان للحجة والبرهان بأن الله عز وجل هو الغني ، وأن الإنفاق في سبيله لمنفعة ذات العبد المنفق ، وأما أن يبقى مصرأً على الجحود فأخبرت كل من آية البحث والسياق عن العقاب الأليم الذي ينتظره في الآخرة.

المسألة الثامنة : من الإعجاز في كل من آية البحث والسياق مجئ الوعيد بصيغة المضارع ، ففي آية البحث ورد قوله تعالى ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ أما آية السياق فورد قوله تعالى ﴿سَنَكُتُّ﴾^(١)، فمع ان التطويق بما يخلوا يكون يوم القيامة فقد ورد بلفظ السين وتفيد المستقبل القريب.

ووردت كتابة ما قالوا بسين الإستقبال مما يدل على امهال الذين كفروا وعدم كتابة ما قالوه رجاء توبتهم (وعن أبي أمامة : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ أو المسيء فإن ندم واستغفر الله منها وألقاها وإلا كتبت واحدة)^(٢).

إن مجئ الإنذار بصيغة المضارع شاهد على أن الله عز وجل هو الرحيم بالعباد ، الحليم الرؤوف الذي يمهلهم ، ومع الإمهال يبعث الأنبياء وينزل الكتب السماوية التي تتضمن بيان قبح الذنوب

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) المعجم الكبير ٨/١٨٥.

والمعاصي وتذكير العباد بأفعالهم ، ولا يختص التنزيل بالإنذار إنما يتضمن البشارة والمدح للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ، والوعد لهم بالثواب العظيم مع عدم وجود حاجب بين الذين كفروا وبين التوبة والوعد الكريم .

ويمكن إنشاء قوانين متعددة بخصوص إنذارات القرآن :
الأول : قانون الإنذار طريق التوبة .

الثاني : قانون الإنذار السماوي باعث للنفرة من المعاصي .

الثالث : قانون الإنذار تثبيت للمؤمنين في مقامات التقوى إذ نزل القرآن بلغة إياك اعني واسمعي يا جارة .

الرابع : قانون إنذارات القرآن والسنة زجر عن نصرة الذين كفروا في حربهم على النبوة والتنزيل .

الخامس : قانون دلالة الإنذارات السماوية على حب الله عز وجل للعباد .

السادس : قانون إنذارات القرآن حجة على الناس ، قال تعالى ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ^(١) .

السابع : قانون الإنذار تذكير بعالم الآخرة ومنه الإنذار الوارد في كل من آية البحث والسياق .

المسألة التاسعة : ورد في آية البحث الوعيد للذين كفروا بقوله تعالى ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة الأنعام ١٤٩ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٠ .

وورد الوعيد في آية السياق بقوله تعالى ﴿وَقُولُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(١)، فهل من عذاب الحريق هذا التطويق الذي تذكره آية البحث أم أنه أمر آخر مستقل ومختلف عنه.

المختار أن هذا التطويق غير عذاب الحريق وإن كان جزءاً من هذا العذاب الأليم ، وفيه دلالة على أن محاربة الكفار للأنبياء وقولهم بأن الله عز وجل فقير ومحتاج إليهم أشد من البخل في الحقوق الشرعية ، وكل فرد منهما أمر قبيح إجتماعاً في آيتين متجاورتين لتحذير الناس من الكفر وما يترشح عنه من القول.

وحينها قال الله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٢)، استبشر المؤمنون ، وعلموا أن إعطاء الصدقة إلى الفقير تصل إلى يد الله عز وجل ، وأنه سبحانه يحب عباده الفقراء ويمجزي من يساعدهم.

(عن ابن عباس رفعه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : ما نقصت صدقة من مال قط وما مد عبد يده بصدقة إلا ألقيت في يد الله قبل أن تقع في يد السائل ولا فتح عبد باب مسألة له عنها غنى إلا فتح الله عليه باب فقر)^(٣).

(وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن المؤمن يتصدق بالتمر أو بعدلها من الطيب ولا يقبل الله إلا الطيب ، فتقع

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة البقرة ٢٤٥.

(٣) المعجم الكبير ٤٠٥/١١.

في يد الله فيريها له كما يربي أحدكم فصيله حتى تكون مثل التل العظيم ،
ثم قرأ ﴿يَسْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾^{(١)(٢)}.

وتضمن الحديثان أعلاه قانوناً وهو أن الله عز وجل هو الذي يتلقى الصدقة بيده بدل الفقير ، وهو أمر أسرع وأعظم من الكتابة وتدوين الصدقة وحسناتها ، ويحتمل الحديثان أعلاه من جهة أوان الثواب وجوهاً :

الأول : اقتران الثواب بدفع الصدقة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣).

الثاني : تعقب الثواب للصدقة .

الثالث : مجئ الثواب عند الحاجة إليه .

الرابع : إدخار الثواب ليوم القيامة ، وهو الذي يدل عليه الحديثان أعلاه فإن الله عز وجل ينمي ويبارك في الصدقة حتى تصير كالتل العظيم .

والمختار هو الجمع بين الوجوه أعلاه وعدم التعارض بينها.

(عن أبي أمامة ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن صاحب الشمال ليرفع القلم سبع ساعات عن العبد المسلم إذا عمل الخطيئة فإن ندم عليها واستغفر الله منها ألقاها عنه وإلا كتبها سيئة واحدة)^(٤).

إن مجئ آية البحث والسياق بصيغة الإستقبال في نزول العقوبة شاهد على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه يتلو

(١) سورة البقرة ٢٧٦.

(٢) الدر المنثور ٢/٢٤٢.

(٣) سورة يس ٨٢.

(٤) مسند الشاميين ٢/٢٠٦.

الوحي الذي ينزل عليه من عند الله عز وجل ولا يخبر عن تعجيل عقوبة شاء الله برأفته إرجاءها ، ليكون هذا الإرجاء طريقاً للتوبة والإنابة ، ومن أسمائه تعالى (الحنان) ، و(عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عاد رجلاً قد صار مثل الفرخ المنتوف فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل كنت تدعوا له بشيء أو تسأله شيئاً؟

قال : كنت أقول اللهم (ما كنت معاتبي) به في الآخرة فعجله لي في الدنيا. فقال : سبحان الله إذا لا تستطيعه ولا تطيقه فهلاً قلت : اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. فدعا الله بها فشفاه الله) (١).

ومن الإعجاز في الشريعة الإسلامية بخصوص التذكير بالإندار الوارد في آية البحث والسياق أمور :
الأول : وجوب الصلاة خمس مرات في اليوم واللييلة ، وفيه مسائل .

الأولى : ذكر صلاة الصبح والعشاء والإشارة إلى صلاة الظهر
 بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ أَذُنُكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يُلْغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدُ مِنْهَا طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢) .

(١) الكشف والبيان- للثعلبي/١/٣٩٦ .

(٢) سورة النور ٥٨ .

الثانية : تعيين أوان صلاة الظهر والعصر ، قال تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾^(١) ، والمراد من طرفي النهار أوان صلاة الظهر وصلاة العصر ، بلحاظ انقسام النهار إلى شطرين :

الأول : ما ينتهي عند الظهر .

الثاني : ما ينتهي عند العصر والأصال .

الثالثة : قال تعالى ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(٢) ، والمراد من دلوک الشمس صلاة الظهر ، وقيل المغرب ، والأول أصح .

والغسق هو وقت الظلمة حتى نهايتها ليشمل المغرب والعشاء .

الثاني : تلاوة كل مسلم ومسلمة آيات من القرآن في كل ركعة من الصلوات اليومية ومجموعها سبع عشرة ركعة .

الثالث : الإجهار بالتلاوة في ركعتي صلاة الصبح ، والركعات الثلاثة لصلاة المغرب والركعات الأربعة لصلاة العشاء .

الرابع : التدبر عند التلاوة بما يفيد تفقه المسلمين في الدين ، قال تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٣) .

والغبطة والسعادة بما في القرآن من البشارات والإيعاظ والخشية من الله عز وجل لما تتضمنه آياته من الإنذار والوعيد .

ومع قولنا بأن كل آية بشارة تدل في مفهومها على الإنذار لمن يمتنع عن العمل بمضامينها ، وأن كل آية إنذار بشارة في مفهومها لمن

(١) سورة هود ١١٤ .

(٢) سورة الاسراء ٧٨ .

(٣) سورة الأعراف ٢٠٤ .

اجتنب القول والفعل الذي ورد الإنذار بخصوصه ، وامتنع عن مقدماته ، مع أن ذات القول القبيح قد يكون مقدمة للمعصية بالجارحة والفعل وكذا العكس ، ومقدمة الحرام حرام إن كان إتيانها كفعل بقصد التوصل إلى الحرام كتطيب وتزين المرأة لغير زوجها .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (يبعث الناس على نيّاتهم)^(١).

وقد جمعت آية الحث والسياق بين الأمرين إذ تتضمن آية السياق الإخبار عن قول منكر للذين كفروا وجحودهم بالربوبية المطلقة بقولهم إن الله عز وجل فقير ، أما الفعل والجارحة فهو إمساك وبخل الذين كفروا بالحقوق الشرعية ، وامتناعهم عن أدائها لإقامة الحجة على الذين كفروا وبيان مصداق لمسارعتهم في الكفر بالقول والفعل .

ومع هذا تتوالى آيات الإنذار لترغيبهم بالتوبة والإنابة ، ولا يعلم ما في آية البحث والسياق من النفع وإصلاح الناس إلا الله عز وجل ، وكل آية منهما واقية من الإنصات والإنقياد إلى الذين كفروا ، فقوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٢) ، تأديب وحصانة للناس ، ويدل في مفهومه على قانون وهو أن السموات والأرض كلها ملك لله عز وجل ، وحاضرة عنده .

(١) الكشف والبيان-للثعلبي ٢٩/١٣.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

ومن مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١)
إعانة الناس بتنمية ملكة الإحتراز من إتباع الذين كفروا في مقالاتهم
الباطلة ، وغلق باب المغالطة عليهم .

المسألة العاشرة : جاءت آية البحث بصيغة المواساة للنبي محمد
صلى الله عليه وآله وسلم على تكذيب المشركين لمعجزاته وإخباره
عن نبوته ، وأنه رسول من عند الله عز وجل .
لتجتمع لغة الإنذار للذين كفروا مع إكرام النبي محمد صلى
الله عليه وآله وسلم ومن يكذب بالنبي ورسائله ييخل بما آتاه الله
عز وجل من فضله .

وكان هذا البخل فرع التكذيب بالنبوة إذ نزل القرآن بالندب
إلى الإنفاق والصدقة وتسمية الصدقة الواجبة (الزكاة) لأنها
تطهير للأموال وتنقية النفوس ، وإصلاح للمجتمعات ، وإزاحة
للكدورة بين الأغنياء والفقراء ، وفي هذه التسمية دعوة للناس
للعصمة من البخل .

وفي وصف المحسنين الذين نزل القرآن رحمة بهم ، قال تعالى
﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^(٢) ،
وبلحاحظ الجمع بين الآيتين تشمل المواساة النبي صلى الله عليه وآله
وسلم والمسلمين وفيه أمور :

الأول : الكفاية بإنفاق المؤمنين في سبيل الله عز وجل .

الثاني : فضل الله عز وجل على المسلمين في إعانتهم على
الإنفاق .

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة لقمان ٤.

وفيه تقليص وانحسار للفقر الذي كان يتغشاهم ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرٍّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١) ، وتضمنت آيات القرآن الوعد من الله عز وجل بالغنى للمسلمين ، قال تعالى ﴿اللَّهُ يُسَيِّطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢) .

والفقر والعوز إبتلاء شديد يقهره الإيمان ، ويصاحب الإيمان حسن التوكل على الله عز وجل ورجاء فضله .

الثالث : في قوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٣) دعوة للمسلمين للصبر ، وحث على الدعاء والمسألة بأن يأتيهم الله عز وجل من فضله الذي تذكره آية البحث فلا يحتاج المؤمنون أموال الغني الكافر ، وتقدير الآية : كما آتاهم الله من فضله فإنه يؤتيكم من فضله فلا تبخلوا به مثلما بخل به الذين كفروا .

الرابع : إخبار آية البحث عن العذاب الذي يلقيه الذين يمتنعون عن الصدقات يوم القيامة ، إذ جعل الله عز وجل الدنيا دار عمل وكسب ، وهذا العمل موضوع للإبتلاء في ذاته وأثره ونتائجه .

وما يؤتي الله عز وجل الناس من فضله ليس من عملهم ولكنه رحمة وإحسان من عند الله عز وجل يستلزم من العباد الشكر ، ومن مصاديق الشكر في المقام إخراج الحقوق الشرعية ، لذا نعت الله عز وجل الذين يمتنعون عنها بالبخل مع ذلهم وتخويفهم

(١) سورة آل عمران ١٢٣ .

(٢) سورة العنكبوت ٦٢ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٠ .

وإنذارهم بالعذاب ، ولا يريد الله عز وجل منهم كل ما آتاهم من فضله ، إنما تكون الصدقة والزكاة والخمس جزء يسيراً من فضل الله عز وجل عليهم والذي لا يختص بالمال فيشمل صحة الأبدان والجاه والشأن ، لذا تسمى زكاة الفطر بزكاة الأبدان مع قلتها .

الوجه الثاني : صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ

كَذَّبَ رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾^(١) ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى : جاءت آية السياق بصيغة الخطاب للنبي محمد

صلى الله عليه وآله وسلم ، ويتعدد معنى الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومنه وجهان :

الأول : الخطاب الخاص للنبي صلى الله عليه وآله وسلم كما

في قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(٢) .

الثاني : الخطاب العام الذي يتوجه في القرآن إلى النبي صلى

الله عليه وآله وسلم فيدخل فيه غيره وتلحق به الأمة وهو على شعبتين .

الأولى : الخطاب الخاص للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لفظاً

، وهو شامل للمسلمين والمسلمات حكماً منه قوله تعالى ﴿قُلْ

أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفْرَقُ

(١) سورة آل عمران ١٨٤ .

(٢) سورة الاعراف ١٥٨ .

بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَتَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾، ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُكُمْ وَسُخْرُوكُمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبُشْرُ الْمِهَادِ﴾ (٢).

الثانية : الخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لفظاً وهو شامل للناس جميعاً في حكمه منه قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِالنَّاسِ الْفُضْلَ بَدَأَ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣).

ومن الوجه الأول أعلاه ما ورد في آية السياق بقوله تعالى ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (٤)، والأذى الذي لاقاه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من جهات كثيرة منها :
الأولى : الأذى الذي لاقاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في شخصه وبدنه ، ومنها :

الأول : قيام السفهاء بحشو التراب على رأس النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : نضد الفرث وهو (السَّرْقِينُ ما دام في الكَرشِ) (٥) ، ولكن المقصود في الخبر أعم من بقاءه في الكرش لإرادة المشركين إيذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالث : رمي الدماء والقذارة على باب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) سورة آل عمران ٨٤.

(٢) سورة آل عمران ١٢.

(٣) سورة آل عمران ٧٣.

(٤) سورة آل عمران ١٨٤.

(٥) المحيط في اللغة ٤٠٩/٢.

الرابع : طرح رحم الشاة في برمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والبرمة قدر من حجر والجمع البرام .

الخامس : بصق أمية بن خلف في وجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد لقي أمية حتفه في معركة بدر كافراً وكان في مكة يبالغ ويكثر من تعذيبه لبلال .

السادس : قيام عُقبة بن أبي معيط بوطئ النبي صلى الله عليه وآله وسلم في رقبتة وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان ، وفي سبب نزول قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾^(١).

وفي الآية (ورد عن ابن عباس قال : أبو جهل بن هشام حيث رمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسلا على ظهره وهو ساجد لله عز وجل .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله : { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى } قال : نزلت في عدو الله أبي جهل ، وذلك أنه قال : لئن رأيت محمدا صلى الله عليه وآله وسلم يصلي لأطأن على عنقه)^(٢).

السابع : إلقاء الأوساخ على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو ساجد في البيت الحرام لإيذائه وصرف الناس عن الإنصات له ، وعن الميل إلى الصلاة ، والتدبر في قدسيته .

(١) أنظر الروض الأنف ٤٠/٣ .

(٢) سورة العلق ٩-١٠ .

(٣) الدر المنثور ١٠/٣٠٢ .

(وعن عبد الله بن مسعود قال: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا على قریش غير يوم واحد، فإنه كان يصلي ورهط من قریش جلوس، وسلا جزور قريب منه.

فقالوا: من يأخذ هذا السلا فيلقيه على ظهره؟ فقال عقبه بن أبي معيط: أنا.

فأخذه فألقاه على ظهره.

فلم يزل ساجدا حتى جاءت فاطمة فأخذته عن ظهره.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " اللهم عليك بهذا الملاء من قریش، اللهم عليك بعقبة بن ربيعة، اللهم عليك بشيبة بن ربيعة، اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، اللهم عليك بعقبة بن أبي معيط، اللهم عليك بأبي بن خلف أو أمية بن خلف، شعبة الشاك.

قال عبد الله: فلقد رأيتهم قتلوا يوم بدر جميعا، ثم سحبوا إلى القلب غير أبي، أو أمية بن خلف، فإنه كان رجلا ضخما فتقطع. (١)، وقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أبي بن خلف في معركة أحد كافرا إذ أصر أبي على طلب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقتله وكان يتقدم في ساحة المعركة قبيل إنتهائها.

وهو ينادي: أين محمد (أين محمد؟ لا نجوت إن نجا) (٢).

فسمعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، فقالوا يا رسول الله هذا يطلبك ولا نريده ان يصل إليك ليعطف عليه رجل منا.

إذ أرادوا عدم تعرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى خطر قريب.

(١) السيرة النبوية لابن كثير/١/٤٦٨.

(٢) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي/١/٢٨٤.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : دعوه ، أي أمرهم أن يتركوه حتى يكون قريباً من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقصد قتله وستقوم عليه الحجة وفي قوله صلى الله عليه وآله وسلم (دعوه) مسائل .

الأولى : إنه حجة على الذين كفروا من قريش .

الثانية : تأكيد سعي رجالات قريش العام والخاص لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالثة : فيه شاهد على حفظ الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ودفع شرور قريش عنه مع إجتماع أسباب البطش عندهم ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

الثانية : ما أصاب أهل البيت من الحصار والقهر والإيذاء البدني وتحريم قريش التناكح معهم ، وإظهار السخرية ببني هاشم رجالاً ونساء ، وتوجيه اللوم لهم لأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أعلن نبوته ، وأظهر الثبات على دعوته .

الثالثة : الأذى والضرر الذي لحق صحابة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأوائل رجالاً ونساء .

الرابعة : الخسائر التي لحقت أهل مكة عامة بسبب حرب قريش على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتعطيل التجارات وحصول النقص في عدد القوافل التي تسير بين مكة والشام ، وبين مكة واليمن .

الخامسة : إرباك الناس في أداء المناسك ، وكثرة اللغط ، وقيام قريش اثناء موسم الحج وأيام العمرة بالإجهار بالعداء لمن ينصر ويتبع النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، وبذل كفار قريش الوسع في الإفتراء على النبي محمد والتزليل ، وصاروا يرصدون من يتصل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، وهو من مصاديق عدم أهلية قريش لولاية البيت الحرام وقوله تعالى ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولِئَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١). إن قوله تعالى في آية البحث ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢) الوارد في آية البحث زاجر للذين كفروا عن إيذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتخويف ووعيد لهم

المسألة الثانية : لقد ابتدأت آية السياق بالإخبار عن تكذيب الذين كفروا للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي قبح تكذيب الذين كفروا له بلحاظ آية البحث وجوه :

الأول : وجوب إخراج الأغنياء من أموالهم للفقراء وفي وجوه البر والإحسان وقد يقوم بعض الكفار آنذاك باعانة الفقير وبالكرم ولكنه لا يرى وجوب هذا الفعل إنما بظنه إحساناً منه ، فجاء القرآن بقانون وجوب الزكاة ، قال تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣).

ومن مصاديق النبوة في سنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم القولية والفعلية أنه يأخذ الزكاة من الأغنياء ليعطيها إلى

(١) سورة الأنفال / ٣٤.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠.

(٣) سورة التوبة ١٠٣.

الفقراء ، ويدفع ما يرده من الإنفال والخمس إلى الفقراء أيضاً ، وفي التنزيل ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(١) ، فالله غني عن الصدقات ، إنما هي أعمال الناس ترد عليهم ، وفيه حمد وثناء على الله عز وجل في كل حال .

الثاني : حصول النماء والبركة والزيادة في المال بدفع الزكاة ، وتلقى الذين كفروا معاني البركة في دفع الزكاة بالتكذيب والسخرية.

الثالث : ذكر القرآن لطائفة من الناس يخلون بالحقوق الشرعية.

الرابع : حرب آية البحث على الشرك وعبادة الأوثان ، وزجر الناس عن التزلف والتقرب إليها ، إذ تخبر الآية بأن ما في أيدي الناس من النعم هو من عند الله وحده.

الخامس : تتحدى آية البحث الذين كفروا بأن حبس الحقوق الشرعية سبب لصيرورة المال الذي عندهم شراً لهم .

ومن خصائص الإنسان أنه يرى وجود المال عنده خير من عدم وجوده ، والزيادة فيه أفضل وأحسن له من النقيصة سواء في الكم أو الكيف ، وفي النقد أو العقار أو الزراعات ، قال تعالى ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾^(٢).

فجاءت آية البحث لتنسخ هذه الرؤية بخصوص حبس الحقوق الشرعية ، وهو شاهد على صدق نبوة محمد لما تتجلى معه من الشواهد والمصاديق الواقعية ، فلم تمر بضع سنوات على بعثة النبي

(١) سورة البقرة ٢٦٧

(٢) سورة النحل ٩٦.

محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى ظهر النقص في أموال قريش بما صار أمراً معلوماً عند أهل الجزيرة والشام واليمن.

السادس : الإنذار والوعيد بأن حق الله الذي عند الأغنياء يكون وبالاً عليهم.

السابع : من الصعب على الإنسان أن يقبل تقيض الظاهر والمتسالم العرفي ، إذ يحسب أغنياء قريش أن أموالهم خير لهم ، وفيها الجاه والشأن والرفعة ، فتفضل الله عز وجل وأنزل آية البحث للإخبار بان هذه الأموال شر بأيديهم إذا أصروا على إمساك الحقوق الشرعية .

الثامن : لقد نزل القرآن بذكر الجنة وأنها ثواب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(١).

ونزل القرآن بذكر النار وأنها مقام الذين ماتوا على الكفر والجحود ، وجاءت آية البحث بالإخبار عن عذاب مخصوص وهو أفعى يطوق عنق الذي يشح ويبخل بالحقوق الشرعية.

التاسع : إخبار آية البحث عن قانون من الإرادة التكوينية وهو ملك الله عز وجل وحده لميراث السموات والأرض ، فليس من مخلوق إلا وهو ميراث لله عز وجل يوم القيامة ليفعل الله عز وجل في الميراث ما يشاء بحكمته وقد أخبر عن قانون وهو جعل مال الزكاة الذي يخل به أصحابه أفاعي في أعناقهم يوم القيامة ليعرفوا بهذه المعصية .

العاشر : لقد أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

خَيْرٌ﴾^(١) ، وتلقى المسلمون هذا القانون بالتصديق ، وصاروا يستحضرونه عند كل قول وفعل ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾^(٢) ، أما الذين أقاموا على الكفر فانهم تلقوا الآية بالتكذيب إذ كانت أموالهم عزيزة عندهم ويظنون أنها تنفعهم وتحميهم ، بينما هي خسارة في النشأتين .

المسألة الثالثة : لقد تضمنت آية البحث نفي الخير في مسألة مسك أموال الزكاة ، وجاءت الآية بصيغة الفعل المضارع (يخلون) وهل يشمل مضمون الآية الذين حبسوها من الأمم السابقة ، فيه وجوه :

الأول : يلقي الذين حبسوا الزكاة من الأمم السابقة ذات العاقبة لوحدة الموضوع في تنقيح المناط.

الثاني : التباين النسبي بحسب ما جاء به الأنبياء السابقون إذ يحتمل أن عقاب الذين يتخلفون من أمهم عن الزكاة أخف مما جاء في الشريعة الإسلامية .

الثالث : من الشرائع السابقة ما لا تتضمن عقوبة على مانع الزكاة ، أو ليس في ناحية نبي الزمان فقراء ومحتاجون.

والمختار مجئ كل نبي بوجوب الزكاة والبشارة والثواب بنفعها ، وبيان عقوبة مانعها ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة الأنبياء ٤٩.

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^(١)، إن عقوبة مانع الزكاة عامة وشاملة للناس جميعاً لأن مقدار الزكاة حق للفقراء في أموال الأغنياء في كل زمان ، وهو باب من أبواب امتحان واختبار الناس في الحياة الدنيا.

وفي حديث إسراء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم برفقة جبرئيل : ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الإبل والغنم ويأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها ، قال : ما هؤلاء يا جبريل ، قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله شيئاً^(٢).

المسألة الرابعة : أخبرت آية السياق عن قانون من الإرادة التكوينية وخلافة الإنسان في الأرض وهو مجئ الرسل بآيات قدسية من جهات :

الأولى : البينات الواضحات والدلالات.

الثانية : التنزيل والمواعظ والأحكام والكتب السماوية التي بين دفتين ، (يقال زبرت الكتاب إذا كتبه)^(٣).

الثالثة : البراهين الساطعة ، والحجج الباهرة ، والشرائع والأحكام.

وتدل آية البحث بالدلالة الالتزامية على تكذيب الكفار بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من وجوب الزكاة.

المسألة الخامسة : ورد لفظ الجلالة ثلاث مرات في آية البحث ، ولم يرد في آية السياق ، ولكن مضامينها تدل على ذكر الله وتدعو إليه وتطرد الغفلة عن الناس من جهات :

(١) سورة الأنعام ٤٨.

(٢) الدر المنثور ١٩٦/٦.

(٣) المحرر الوجيز ٣٧٠/٥.

الأولى : نزول آية السياق من الله عز وجل .

الثانية : تقدير قوله تعالى ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ على وجوه :

الأول : فان كذبوك وأنت رسول الله .

الثاني : فان كذبوك في الإخبار عن كونك رسول الله ، قال

تعالى ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾^(١).

الثالث : فإن كذبوك فاشكروا الله عز وجل على إيمان

المهاجرين والأنصار .

ولم يرد لفظ (الرسول) ولفظ (لرسوله) في القرآن إلا في الآية أعلاه ، لبيان قانون وهو الحاجة لتأكيد رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مواجهة المنافقين ، وإقامة البرهان والدليل على صدق نبوته ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنُزُلُ الْمَصِيرِ﴾^(٢).

إعجاز الآية الذاتية

جاءت الآية بصيغة الغائب لبيان نكتة وهي أن المقصود فيها ليس المؤمنين والتالين لآيات القرآن في الصلاة الواجبة والمستحبة ، وتقدير الآية : وأعلموا لا يحسن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير لهم .

ولم تأت الآية بحرف الإستقبال للبعيد (سوف) انما وردت بحرف الإستقبال للقريب السين (سيطوقون) لبيان قرب عذاب الذين كفروا ز

(١) سورة المنافقون .١

(٢) سورة التوبة ٧٣.

وصحيح أن الآية قيدت تطويق العذاب للذين كفروا في الآخرة ، ولكن هل من عذاب لهم في الدنيا ، الجواب نعم ، ومنه آية البحث التي هي توبيخ وذم للذين يمتنعون عن إخراج الحقوق الشرعية .

وآية البحث من مصاديق قوله تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(١) فليس من إنسان إلا وفضل الله عز وجل يأتيه ظاهراً وباطناً وبالذات والواسطة ، ليكون فضل الله عز وجل طريقاً لنعيم الآخرة ، فكأن آية البحث تحت الناس للسعي لدخول الجنة بالإيمان والإنفاق في سبيل الله ، وتقول لهم إتخذوا فضل الله عز وجل جسراً وطريقاً للثبات الدائم في النعيم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) .

وتبين الآية أموراً في صيغة عمل الإنسان من جهات .

الأولى : الخير في الدنيا .

الثانية : الشر في الدنيا .

الثالثة : الخير في الآخرة .

الرابعة : الشر في الآخرة .

وأخبرت آية البحث عن حرمان الذين ييخلون بالحقوق من الخير مطلقاً سواء في الدنيا أو الآخرة ، وبينت آية البحث العقوبة الخاصة للبخل بالزكاة ، وتقدير الآية : سيطوقون يوم القيامة بما بخلوا به في الدنيا .

(١) سورة الأنعام ١٤٩.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

وهل ينحصر عذاب الكفار بهذه العقوبة ، الجواب لا ، إنما بينت الآية وجهاً وصفاً للعذاب على معصية مخصوصة ، مما يدل على تعدد ضروب عذاب الذين كفروا .

وذكرت الآية قانوناً ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) ، ترى لماذا ورد هذا القانون في ذات الآية التي تدم الذين كفروا على بخلهم ، الجواب من جهات :

الأولى : تأكيد قانون وهو أن البخل ليس خيراً للذين كفروا .

الثانية : إظهار الله عز وجل دينه ، ونصره لنبيه ، (عن ابن عباس قال : أخذ النبي {صلى الله عليه وآله وسلم} بعضادتي الباب يوم فتح مكة وقد لاذ الناس بالبيت ،

وقال : الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ثم

قال : ما تظنون؟

قالوا : نظنّ خيراً ،

أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت ،

قال : وأنا أقول كما قال أخي يوسف : لا تثريب عليكم اليوم)^(٢) .

الثالثة : بعث النفرة في النفوس والمجتمعات من البخل ، والدعوة إلى هجرانه والتتزه عنه .

الرابعة : دعوة الناس لرجاء فضل الله عز وجل لنيله والفوز به .

الخامسة : الوعيد للذين كفروا ، وأنهم يقفون بين يدي الله عز وجل للحساب .

(١) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٢) الكشف والبيان-للثعلبي ٢٣٢/٧ .

السادسة : دعوة المسلمين للعصمة من البخل رجاء فضل الله عز وجل ، واكتناز الحسنات .

وأختتمت آية البحث بقانون عام ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١) ، وتحمّل صيغة الخطاب في الآية وجوهاً :

الأول : يا أيها الناس الله بما تعملون خبير .

الثاني : يا أيها الذين آمنوا الله بما تعملون خبير .

الثالث : يا أهل الكتاب الله بما تعملون خبير .

الرابع : يا أيها الذين كفروا الله بما تعملون خبير ، وفي التنزيل ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٢) .

الخامس : يا أيها الذين تبخلون بفضل الله إن الله بما تعملون خبير .

السادس : يا أيها الذين تنفقون من فضل الله ، الله بما تعملون خبير .

ويمكن تسمية آية البحث آية (سيطوقون) ولم يرد هذا اللفظ أو لفظ (يطوقون) من غير حرف سين الإستقبال ، أو يطوق بصيغة المفرد إلا في آية البحث.

إعجاز الآية الغيري

تبين الآية نزول القرآن بتنظيم الحياة اليومية ونظم المجتمعات من جهات:

الأولى : الفرائض العبادية ، ووجوب إخراج الزكاة .

الثانية : حسن الصلة بين الأغنياء والفقراء ، وحمل كل منهما

على عدم قطعها ، فقد يقطعها الأغنياء لما عندهم من النعم ، أو يقطعها الفقراء لما يرون من استكبار وترفع الأغنياء ، فجاءت الزكاة

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة البقرة ١٤٠.

الواجبة لتكون نوع صلة بين الفريقين ، وباعثاً للود بينهم ، وهل الزكاة من حبل الله عز وجل في قوله تعالى ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾^(١) ، الجواب نعم.

و(عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض.

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي شريح الخزاعي قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن هذا القرآن سبب . طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا بعده أبداً .
وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني عن زيد بن أرقم قال « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إني تارك فيكم كتاب الله ، هو حبل الله ، من اتبعه كان على الهدى ، ومن تركه كان على الضلالة. »^(٢)

لقد جاء فرض الزكاة والبعث على الصدق الواجبة والمستحبة والكفارات في القرآن لتكون سبباً للألفة والتآلف بين الناس .

الثالثة : الزكاة حرب على الإرهاب ، ومانع دونه ، وزاجر عن السرقة والنهب والتخريب والغبن ، والإستيلاء على أملاك الغير
لذا فإن قوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾^(٣) نهى عن

(١) سورة آل عمران ١٠٣.

(٢) الدر المنثور ٤٠١/٢.

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

مقدمات السرقة والجناية والنهب ونحوه ، فمتى ما أخرج الغني زكاة ماله وأنفق منه في سبيل الله امتنع عن الإستحواذ على حق ومال غيره ، لقانون وهو الذي يعطي من ماله طاعة لله عز وجل يتنزه عن الإستيلاء على مال الغير بغير حق .

الرابعة : بالإففاق الحسن تنمية للأخلاق الحميدة ، ونشر للفضائل في المجتمعات .

الخامسة : قهر ودفع الأخلاق المذمومة كالحسد والحقد والكراهية والبغضاء بين الناس .

ومن الإعجاز في آية البحث أنها تجعل الناس يدركون قانوناً وهو القبح الذاتي للبخل ، وأنه لا يجلب لصاحبه إلا الشر ومن بركات آية البحث إجتناّب كثير من الناس البخل والشح .

قال تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ ^(١) ، ليكون من معاني الشر للبخلاء الذي تذكره آية البحث قوله تعالى في الآية أعلاه (فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى) .

(عن ابن عباس في قوله : { فأما من أعطى } من الفضل { واتقى } قال : اتقى ربه { وصدق بالحسنى } قال : صدق بالخلف من الله { فسنيره للعسرى } قال : الخير من الله { وأما من بخل واستغنى } قال : بخل بماله واستغنى عن ربه { وكذب بالحسنى } قال : بالخلف من الله { فسنيره للعسرى } قال : للشر من الله) ^(٢) .

(١) سورة الليل ٥-١١ .

(٢) الدر المنثور ١٠/٢٨٠ .

و(قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ما من يوم طلعت شمسهُ إلا وكل بجنتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى ، ولا آبت شمسهُ إلا وكل بجنتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين :

اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً تلفاً . فأنزل الله في ذلك كله قرآنًا في قول الملكين :

يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١) وأنزل في قولهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً تلفاً { والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلّى }^(٢) إلى قوله { للعسرى }^(٣).

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن سعيد بن أبي هلال رضي الله عنه . سمعت أبا جعفر محمد بن علي رضي الله عنه وتلا ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٤) فقال : حدثني جابر رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً فقال إنني رأيت في المنام كان جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه : ضرب له مثلاً فقال : اسمع سمعت أذنك .

(١) سورة يونس ٢٥.

(٢) سورة الليل ١-٢.

(٣) سورة الليل ١٠.

(٤) سورة يونس ٢٥.

واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ، ثم بنى فيها بيتاً ، ثم جعل فيها مأدبة ، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، فالله هو الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة وأنت يا محمد رسول ، فمن أجابك دخل الإسلام .

ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل منها^(١) ، وتتضمن آية البحث تعليم وتأديب الناس من جهات :
الأولى : الإخبار عن سوء ظن الذين كفروا .
الثانية : بيان القبح الذاتي للبخل .

الثالثة : البخل سبب للأذى ونزول البلاء بصاحبه .^(١)
الرابعة : تأكيد عالم الحساب والجزاء يوم القيامة والإخبار بأن البخل والإمتناع عن دفع الحقوق الشرعية سبب للعقاب الأليم يومئذ .

الخامسة : عودة كل الأملاك والأموال والمعادن إلى الله عز وجل ، والذي تدل عليه مسألة موت الأفراد .
 فما من ملك أو سيد أو غني أو فقير إلا ويأتي عليه الموت ، والرسول أشرف الخلق ، ويأتيهم الموت مثل عامة الناس ، قال تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(٢).

(١) الدر المنثور ٥/٢٢٩.

(٢) سورة آل عمران ١٤٤.

وقال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَنَنْكَرُ لَكُمْ رَبِّهُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١).

ليكون المعنى بلحاظ الآية أعلاه من سورة آل عمران أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كباقي البشر لا بد أن يأتيه الموت ، فيجب أن لا تحصل ردة ، ولا يمسك المسلمون عن الإنفاق في سبيل الله ولا ينصتون إلى أقوال المنافقين ، ولا يخشون غلبة فلول الردة مثل جيش مسيلمة الكذاب وسجاح بنت الحارث من بني تغلب التي ادعت النبوة وتابعها بعض رؤساء قومها ، ولما التقت سجاح بمسيلمة الكذاب فعرض عليها الزواج وقال لها : هل لك أن أتزوجك فأكل بقومي وقومك العرب . قالت نعم .

(ولما وقع عليها مسيلمة، خرجت إلى قومها وهي تنظف عرقاً، قالوا: ما عندك؟ قالت: وجدته أحق بالأمر مني، فبايعته، وزوجته نفسي، قالوا: ومثلك لا يتزوج بغير مهر؟ .

فقال مسيلمة: جعلت مهرها أن رفعت عنكم صلاة الغداة والعتمة)^(٢)، (وأذن شبت بن الربيعي بأن مسيلمة نكح سجاح وأصدقها ترك صلاتين)^(٣)، ولما انكشف زيف أمرها (قال عطارد بن حاجب بن زرارعة:

أضححت نيتنا أنثى يطاف بها ... وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا
فلعنة الله رب الناس كلهم ... على سجاح ومن بالإفك أغوانا
أعني مسيلمة الكذاب لا سبقت ... أصداء غيث مزن حيث ما كانا
وقال الأغلب العجلي:

(١) سورة الكهف ١١٠.

(٢) الأوائل للعسكري ١/١٢٦.

(٣) البد والتاريخ ١/٣٠٧.

إن سجاحاً لاقت الكذاب ... سألتها فأعيت الجواب
وهتكت عن سترها الحجاب ... ولا رحاباً^(١).

لقد كان للأمر الإلهي في القرآن بوجوب الزكاة والنهي عن
البخل كما في آية البحث موضوعية في القضاء على المرتدين ، ومنع
صيرورة سلطان للمنافقين .

لقد احتاج المسلمون أموال الزكاة أيام النبوة والنبي صلى الله
عليه وآله وسلم بين ظهرانيهم قال تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً
تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

واحتاجوا لها بعد وفاته لوجوبها ، وهذه الحاجة تشمل الغني
والفقير ، وهي عون في حروب الردة ، لتكون آية البحث واقية لهم
من الإرتداد ومدداً لهم في محاربة المرتدين ، وهل يعلم المسلمون
عند نزول هذه الآية أنها ستكون سلاحاً ومدداً لمحاربة الإرتداد
الذاتي والغيري ، الجواب من إعجاز القرآن تجدد منافعها .

ولما رأت سجاح توالي القضاء على المرتدين مثل جماعة
طليحة بن خويلد الأسدي ثم قتل مسيلمة وكانت عنده هربت
وعادت إلى قومها واسلمت (فتزوجها رجل من قومها، فولدت له
ثلاثة وماتت بالبصرة.)^(٣).

وامتنع عدد منهم عن تأييدها ونصرتها منهم سادة بني مالك ،
وكرهوا موادعة وكيع لها^(٤).

(١) الأوائل للعسكري ١/١٢٥.

(٢) سورة التوبة ١٠٣.

(٣) الأوائل للعسكري ١/١٢٦.

(٤) أنظر الكامل في التاريخ.

وبعد انتقال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى اختلف بنو تميم على أقسام :
الأول : الذين بقوا على إسلامهم ، وبعثوا زكاتهم إلى المدينة المنورة .

الثاني : الذين توقفوا للنظر حتى ينكشف الأمر ، مع جلاء الأمور بنزول تمام القرآن وثبات المهاجرين والأنصار على الإسلام ، وحرصهم على منع الإرتداد أو علو صوت النفاق .

الثالث : الذين ارتدوا ومنعوا الزكاة فجاءت سجاح بنت الحارث بن سويد التغلبية من الجزيرة تدعي النبوة ، ومعها جيش من قومها وغيرهم تريد غزو المدينة المنورة إذ بلغهم انتقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى فمرت ببلاد تميم فاستجاب لها كثير منهم .

وهل للإمتناع عن الزكاة موضوعية في نصرة طائفة من الناس لسجاح الجواب نعم ، ليكون من الإعجاز الغيري لآية البحث أنها تمنع من الإرتداد ، وهي عون للمسلمين في حرب الردة ولهذا اتفق الذين حولها على قتال الناس ، قالوا لها : بمن نبداً ، فقالت فيما تسجعه (أعدوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب) ^(١).

والرباب فرع من بني تميم ، ولعلها أدركت الخصومة والشقاق بين الأمراء الذين معها وبين فرع الرباب .

إن قولها واستعدوا للنهاب وتأيدهم لقولها ، وعدم الإعتراض عليه دليل على حاجة الناس آنذاك إلى الإسلام وأن حب النهب والسلب متأصل فيهم ، ولا سبيل إلى النجاة والمعافة منه إلا النبوة والتنزيل .

(١) الكامل في التاريخ ٣٧٠/١.

فرحم الله عز وجل الناس برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعندما توفي بقي القرآن وتلاوة كل مسلم ومسلمة له في اليوم والليلة يدعو الناس إلى نبذ العنف والإرهاب ، والنهب والسلب ، ويحذر من البخل كما في آية البحث ليدل هذا التحذير بالأولوية القطعية على لزوم إجتناّب التعدي والظلم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

ومن إعجاز الآية الغيري بيانها لقانون وهو أن الأذى والعذاب الذي يلقيه الذين يمتنعون عن دفع الحقوق الشرعية يوم القيامة شديد وأليم ، وهذا الإخبار حقيقة وقانون من الإرادة التكوينية وهو من أسرار خلق الإنسان وإكرام الله عز وجل له بجعله ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢)،

ومن النعم المصاحبة للخلافة توالي فضل الله عز وجل على الناس ، ولزوم شكره تعالى على النعم ، ومن مصاديق هذا الشكر إخراج جزء يسير من الزائد عن المؤونة للفقراء والمساكين وإعمار المساجد والطرق وإصلاح ذات البين ، ونشر المعارف الإسلامية وفيه حرب على الإرهاب والعنف .

فنزلت آية البحث للإنذار من التخلف عن مقامات الشكر لله عز وجل .

ويمكن القول أن تعاهد دفع الزكاة والإنفاق في سبيل الله عز وجل هو جهاد ، وفيه غنى عن الغزو والهجوم ، وهو من القوة ومقدمة لرباط الخيل في قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ

(١) سورة الانبياء ١٠٧.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿١﴾ ، إذ أن الزكاة والإنفاق في طاعة الله عز وجل قوة وسبب لإملاك الخيل والدروع والعدة التي تجعل المشركين يهابون جانب المسلمين .

ليكون من إعجاز آية البحث الغيري منع وقوع المعارك والقتال ، إذ أن بخل المسلمين وامتناعهم عن دفع الزكاة والإنفاق في طاعة الله عز وجل سبب لإغراء المشركين بهم .

لقد التفت رجالات قريش ورؤساء المشركين في الجزيرة في بدايات الإسلام إلى تناميهِ بسرعة فائقة وتوالي دخول الناس فيه تباعاً فهجموا للإجهاز عليه في معركة بدر ، وعندما انكسروا وخابوا ولحققتهم الهزيمة فيها ، أخذتهم العزة بالإثم ونسبوا خسارتهم إلى عدم إعدادهم لمعركة بدر إعداداً كافياً ، فاخذوا يتجهزون لمعركة أحد سنة كاملة ، وانفقوا الأموال الطائلة في كل مكان من وجوه :

الأول : شراء الخيل والإبل .

الثاني : شراء وإصلاح السيوف والدروع .

الثالث : دفع الأموال والمرتبات إلى المقاتلين والمستأجرين وهم ثلثا أفراد جيشهم الذي توجه إلى معركة أحد ، ومجموعه ثلاثة آلاف رجل .

الرابع : الإنفاق على عوائل المقاتلين .

الخامس : إعداد المؤن للمقاتلين في ساحات التدريب ، وفي الطريق إلى المعركة ، وفي ميدان القتال .

السادس : إنفاق كفار قريش لإستمالة القبائل . ومنعها من غزو قريش عند غيابهم في قتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾^(١) ، ولم يرد لفظ (تكون عليهم) في القرآن إلا في الآية أعلاه .

السابع : إنفاق قريش على الدعاية وبث الأخبار الكاذبة ، وإرسال رسائل التهديد والوعيد للمهاجرين والأنصار .
ليدل النهي الوارد في آية البحث عن البخل وحبس الحقوق بالأولوية القطعية على حرمة الإنفاق في الباطل وفي غزو المسلمين .
ويدل إنفاق قريش هذا على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يغز أحداً .

فصول الآية

المراد من هذا الباب علم جديد في التفسير يتعلق بكل مضمون ومقصد في الآية القرآنية على نحو الإستقلال وهو غير باب الصلة بين أول وآخر الآية وفصول آية البحث هي :

الأول : وجود طائفة من الناس يشحون بالحقوق الشرعية .

الثاني : الإنذار والوعيد للذين يتخلفون عن الزكاة .

الثالث : قانون المال الذي بأيدي الناس هو من عند الله ، وفضل ونافلة منه ، وهل يحتمل أن الفضل خاص بأموال الذين كفروا والمنافقين أم أن جميع أموال الناس هي فضل ونافلة من عند الله ، الجواب هو الثاني .

الرابع : الإمتناع عن دفع الحقوق الشرعية أذى وضرر على صاحبه ، في النشأتين .

الخامس : بيان قانون وهو أن ظن وحساب البخلاء في الحقوق الشرعية ضلالة ، ولا يجلب لهم إلا الشر .

السادس : بيان العقوبة يوم القيامة لمن يمتنع عن دفع الحقوق الشرعية .

السابع : تذكير آية البحث بيوم القيامة ، وأنه أوان الحساب على الأعمال مما يدل بالدلالة التضمنية على حضور أعمال البشر معهم يومئذ .

الثامن : عودة الملك كله لله عز وجل ، ومسكن الملائكة في السماء ولكنهم لم يتنافسوا على ملك فيها إنما انقطعوا إلى عبادة الله عز وجل لأنهم يعلمون بقانون ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) ، وميراثه لهما ، وليعمر الناس الأرض بالتقوى والصلاح .

ومن مصاديق الخلافة توالي النعم على الناس ولزوم الشكر لله عز وجل عليها ، ومنه إخراج الحقوق الشرعية والإنفاق في طاعة الله ، ولكن المنافقين وضعيفي الإيمان امتنعوا عن دفع الزكاة ، وظنوا أن بقاء الحقوق بأيديهم ينفعهم في ساعة الضيق ، وحال الفقر ، فأخبرت الآية بأن الحقوق التي في أيديهم إنما هي في الأصل نافلة على رزقهم الأصلي ، وزيادة على ما يحتاجون إليه ، وفي حبسها أذى وتوبيخ وحساب وعقاب .

التاسع : إحاطة الله عز وجل علماً بالناس ومساكنهم ومحل وجود كل واحد منهم في أي ساعة من أيام حياته وفعله من جهات:

الأولى : ما فعله العبد في الزمن الماضي .

الثانية : ما يفعله في الوقت الحال والحاضر .

الثالثة : ما يفعله في المستقبل .

ومن معاني اختتام آية البحث بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١)، دعوة الناس للمبادرة للإتفاق في سبيل الله عز وجل ، وللإقلاع عن البخل ونحوه .

الآية سلاح

تبعث آية البحث على الإتفاق في سبيل الله ، وتذم البخل والشح وتبين سوء عاقبة الذي يحبس الحقوق الشرعية لما فيه من الإضرار الخاص والعام ، وحجب ما كتب الله عز وجل للفقراء في أموال الأغنياء ، وحصول النقص في المال الذي ينفق في سبيل الله .

وهل في هذا الذم دعوة للتوبة من البخل في الحقوق والشح مطلقاً ، الجواب نعم .

ومن إعجاز آيات القرآن أنها تكشف عما تخفيه الصدور من الرغائب والعزائم من خير أو شر لتثيت الأول ، وصرف الناس عن الثاني ، وفي الشاء على الله عز وجل ورد في التنزيل ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(٢)، فأخبرت آية البحث عما يظنه الذين كفروا والمنافقون بأن البخل والإمساك خير لهم ، لأنه بقاء للمال في أيديهم .

فجاءت الآية بأمرين :

(١) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٢) سورة غافر ١٩ .

الأول : سوء العقاب على هذا المال المحبوس ، إذ يحضر في الآخرة ليكون أفعى يطوق رقاب أصحابه .

لتكون آية البحث سلاحاً يبعث على إخراج الحقوق الشرعية في أوانها ، وعدم التسويف فيها ، أو الإمتناع عن دفعها .

ومن إعجاز الآية انها تزجر الابن عن نهى أبيه عن دفع الزكاة ، وتمنع المرأة من نهى زوجها عن دفعه ، وكذا منع الأب والزوج الابن والزوجة عن دفع الزكاة والإنفاق في سبيل الله عز وجل ، وتجعل عالم الحساب الأخروي حاضرا في الوجود الذهني .

مفهوم الآية

إبتدأت آية البحث بذكر الذين يخلون ، وليس المراد الحرص على المال وجمعه والإمتناع عن الإسراف أو التفريط به ، إنما المقصود البخل بالزكاة وحقوق الفقراء والمساكين ، إذ إمتحن الله عز وجل الأغنياء بأن جعل للفقراء حقاً في أموالهم ، وامتنح صبر الفقراء إذا رأوا بعض الأغنياء يمنعون حقهم ، فقد تفضل الله بتوبيخ وإنذار الأغنياء على هذا البخل ، وقد يشكر الفقير الله عز وجل لسلامته من هذا التوبيخ واللوم ، وليكون قوله تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(١) عوناً للفريقين في الإمتثال لأمر الله عز وجل ، فيحتاج إخراج الزكاة الصبر والخشوع لله عز وجل لذا فمن مفاهيم آية البحث الثناء على المؤمنين ، ومسارعتهم في الإنفاق من أموالهم ، ولم يكتف القرآن بالثناء عليهم بالمفهوم ، إنما جاءت آيات متعددة تتضمن في منطوقها هذا الثناء عليهم وبيان كيفية الإنفاق بخصوص الزائد عن المؤنة (وعن ابن عباس : أن نفراً من الصحابة حين أمروا بالنفقة في سبيل

الله أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا لا ندري ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا ، فما تنفق منها؟ فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ أُنْفِقُ مَا عَلَّمْتُكُمْ﴾^(١) وكان قبل ذلك ينفق ماله حتى لا يجد ما يتصدق به ، ولا ما لا يأكل حتى يتصدق عليه^(٢).

قد يكون البخل والشح من أسباب ظهور الفتن ، فنزلت الآية ليعيش الناس بصفاء ، إذ يجذب الكرم وإخراج الحقوق الشرعية وتسخيرها في سبيل الله عز وجل القلوب ، ويجلب الغبطة والسعادة قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^(٣).

وتدعو آية البحث الناس للإحتراز والإستعداد لعالم الآخرة وعالم الحساب ثم الجزاء يوم القيامة ، فاذا كان البخل سبباً للعقوبة الأليمة والمستديمة يومئذ فكيف بمن يحارب النبي والتنزيل من كفار قريش ومن والاهم ، وهل تشير آية البحث في مفهومها إلى قبح هذه المحاربة والوعيد عليها أم أن الآية تختص بدم البخل وحبس الحقوق .

الجواب هو الأول لذا تتضمن الآية الإنذار من محاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإنفاق الأموال في إيذاء المؤمنين ، فيكون التصرف في المال على وجوه :

الأول : الإنفاق في سبيل الله عز وجل .

الثاني : حبس المال وعدم الإنفاق .

(١) سورة البقرة ٢١٩.

(٢) الدر المنثور ٩/٢.

(٣) سورة مريم ٩٦.

الثالث : الإنفاق في المعاصي والإعانة على الباطل .

الرابع : بذل الأموال في محاربة النبوة والتنزيل .

وجاءت آية البحث في الزجر عن الوجوه الثلاثة الأخيرة لتدل في مضمونها على الترغيب بالوجه الأول وهو الإنفاق في سبيل الله عز وجل ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١)، (٢).

وتقدير الآية في مفهومها ليحسن الذين ينفقون مما آتاهم الله من فضله هو خير لهم ، فمن مفاهيم لغة الإنذار في آية البحث الثناء على المؤمنين الذين ينفقون في سبيل الله عز وجل ، وهذا الإنفاق على وجوه :

الأول : إنه موضوع البشارة بالنعيم في الآخرة ، قال تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَشْيِئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْ أَكْثُهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣).

الثاني : الإنفاق باعث للسكينة في النفوس ، ففي إخراج الحقوق الشرعية صحة في البدن وسكينة في القلب ، قال تعالى ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (٤).

الثالث : النجاة من الفزع والخوف ويتلقى المؤمنون الذم للذين يخلون بما آتاهم الله عز وجل بالبذل والعطاء في سبيل الله عز

(١) سورة آل عمران ١٣٣.

(٢) أنظر الجزء الثامن والتسعين الذي يتضمن تفسير الآية أعلاه .

(٣) سورة البقرة ٢٦٥.

(٤) سورة آل عمران ٩٢.

وجل ، وتكون آية البحث عوناً ومدداً لهم في الإحتجاج على الذين كفروا من جهات :

الأولى : لوم الذين يخلون ويمسكون الحقوق الشرعية .

الثانية : دعوة الذين كفروا إلى التوبة والإنابة ، وتتقوم التوبة والإنابة بالإتفاق في سبيل الله عز وجل .

الثالثة : إتخاذ المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة وعوناً للإتفاق في سبيل الله عز وجل ، والحث عليه وإجتباب البخل والشح ، قال تعالى ﴿وَلَنْكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١) ، لقد أراد الله عز وجل للناس التنزه عن الرذائل والأثرة فأخبرهم بأن ما في أيديهم من فضل الله عز وجل .

ليسألوه سبحانه أن يرزقهم من فضله ، ومن الإعجاز في تشريع الصلاة وعدد ركعاتها وأوقاتها والقراءة فيها وجوب قراءة سورة الفاتحة وجوباً عينياً على كل مسلم ومسلمة سبع عشرة مرة ، ومنها الآية الكريمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢) .

ليكون من معاني الآية أعلاه بلحاظ آية البحث مسائل :

الأولى إعلان المسلمين تعاهدتهم لعبادة الله عز وجل في السراء والضراء ، وفي حال الغنى والفقر .

(١) سورة آل عمران ١٠٤ .

(٢) سورة الفاتحة ٥ .

الثانية : استعانة المسلمين بالله عز وجل ليؤتيهم من فضله الواسع ، وفي التنزيل ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(١).

الثالثة : تبعث الآية الكريمة المسلمين للإستعانة بالله عز وجل على الإنفاق والتصدق وإخراج الحقوق الشرعية .

الرابعة : تقدير الآية أعلاه من سورة الفاتحة (وَأَيُّكَ النَّاسُ) للنجاة من البخل .

الخامسة : من مصاديق قوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) أداء الزكاة بلحاظ أنها عبادة واجبة .

ويدل ذم آية البحث للذين ييخلون ويقبضون أيديهم في أوان الإنفاق والحاجة إليه ، على قانون وهو المدح والثناء من الله عز وجل للذين يمثلون لأمر الزكاة .

ولم يأت الذم واللوم للذين ييخلون بفضل الله عز وجل إلا بعد أن تم تبليغهم بوجوب الزكاة ، ورأوا طائفة من المؤمنين ينفقون في سبيل الله عز وجل ويطعمون الفقراء ، ويواسون المساكين ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(٢).

لقد ذكرت الآية فضل الله عز وجل الذي يؤتيه للناس ، وهل غير الله عز وجل يؤتي الناس من فضله ، الجواب لا ، وهو من مصاديق إنحصار ملك السموات والأرض بالله عز وجل فهو وحده المالك والذي له المشيئة المطلقة يهب ما يشاء من المال والنعيم وطول

(١) سورة يونس ٥٨.

(٢) سورة المائدة ٦٧.

العمر وكثرة الولد لمن يشاء ، وفي التنزيل ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا لَهُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾^(١) .
ولم يرد لفظ (يهب) في القرآن إلا في الآية أعلاه ، وورد فيها
مرتين .

إنفاضات الآية

لقد رزق الله عز وجل الإنسان العقل ليميز به الحق عن الباطل ،
والصحيح عن الفاسد ، والنافع عن الضار ، وبالإضافة إلى
العقل الفردي هناك العقل الجماعي العام الذي يساعد الإنسان في
المشورة وحسن الاختيار إلا ان تغلب الغفلة والجهالة .

فتفضل الله عز وجل بوقاية الناس منها بأن بعث الأنبياء
والرسل وأنزل الكتب السماوية لمنع العقل الفردي والجماعي من
الشطط ، قال تعالى ﴿وَكَلَّمَكَ عَلَىٰ مَنَ أُنْبِئَ الرُّسُلِ مَا نَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ
وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) ، ومن الشطط
والخطأ البخل والإعتقاد بأن فيه نفعاً للذات .

فجاءت آية البحث بالإخبار بالقطع والحتم بوقوف الناس بين
يادي الله عز وجل للحساب وأنه سبحانه يعاقب على البخل والشح
لأنه منع لفضل الله عز وجل عن الناس .

فمن معاني آية البحث الإخبار بأن ما في أيدي الناس كله من
فضل الله عز وجل ، وفي التنزيل ﴿قُلْ إِنِّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣) .

(١) سورة الشورى ٤٩ .

(٢) سورة هود ١٢٠ .

(٣) سورة آل عمران ٧٣ .

وأيهما أكثر في أمثال العرب ذكر الكريم أم البخيل ، المختار هو الثاني إذ يكثر العرب من نواذر البخلاء بصيغة اللوم وكان الناس بالفطرة يدركون أموراً :

الأول : المال الذي بأيدي الناس هو من فضل الله عز وجل .

الثاني : حق الناس عامة والفقراء خاصة في أموال الأغنياء ، أما الحق العام فهو على شعبتين :

الأولى : إكرام الغني للضيف .

الثانية : في إعانة الفقراء رضا وسكينة للناس جميعاً ، وهو من معاني الأخوة الإنسانية في قوله تعالى ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾^(١).

ومن الأمثلة عن البخيل (موت البخيل وماله وافر - منه مات فلان عريض البطان. ومات يبطنته لم يتغضغض منها شيء. والتغضغض: النقصان.

البخيل يعطي مرة منه قولهم: ما كانت عطيته إلا بيضة العقر، وهي بيضة الديك. قال الزبيرى: الديك ربما باض بيضة)^(٢).

وجاء القرآن بعلم جديد بخصوص البخل وذمه ، بأن فيه ضرراً على صاحبه ، وهذا الضرر في الدنيا والآخرة ، كما أن البخيل لا يتنفع من بخله أبداً لأنه سيكون من ميراث السموات والأرض الذي يختص به الله عز وجل ، وفي التنزيل ﴿يَوْمَ هُمْ

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) العقد الفريد ١/٢٩٣.

بَارَزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لَمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١﴾.

ويحكم العقل بقبح البخل ولكن غلبة الحرص على الإنسان تدفعه إلى البخل ، وهناك أمثلة كثيرة عند العرب تشني على الكريم وتذم البخيل

ويقال (أَبْخَلُ مِنْ صَبِيٍّ وَمَنْ كَسَعَ قَالُوا : هو رجل بلغ من بخله أنه كَوَى إِسْتَكَلَبَهُ حَتَّى لَا يَنْبَحَ فَيَدُلُّ عَلَيْهِ الضَّيْفُ) ^(١)، ويتوارث الناس أخبار الرجل الكريم كما في كرم وسخاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكرم الإمام الحسن عليه السلام ، وأخبار حاتم الطائي .

وجاءت آية البحث لتخبر الناس بأنهم يفارقون المال بالموت (عن سفيان أنه قال في قوله : { وَيُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا } ^(٢)) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما منكم من أحد إلا وماله وارثه أحب إليه من ماله . قالوا يا رسول الله : ما منا أحد إلا وماله أحب إليه من مال وارثه . قال : ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيته ، أو لبست فأبليت ، أو أعطيت فأمضيت ^(٣)، أي الإنسان يحب ماله ويتعاهده ويحرسه إنما هو مال الوارث إذ يغادره بالموت ، ومن الآيات في خلق الإنسان أن الإنسان لا يعلم أوان أجله ، فقد يعمر ويبلغ عمره تسعين سنة ، وهو في كل دقيقة من حياته التي

(١) سورة غافر ١٦.

(٢) مجمع الأمثال ١/١٢٠.

(٣) سورة الفجر ٢٠.

(٤) الدر المنثور ١٠/٢٦٢.

مرت عليه معرض للموت فيكون احتمال الموت متجدداً ومتكرراً
كالآتي :

$٦٠ \times ٢٤ = ١٤٤٠$ حساب عدد دقائق اليوم واللييلة .

$١٤٤٠ \times ٣٦٥ = ٥٢٥٦٠٠$ عدد المرات التي يحتمل فيها موت الإنسان
في السنة الواحدة .

$٩٠ \times ٥٢٥٦٠٠ = ٤٧٣٠٤٠٠٠$ عدد المرات التي يحتمل فيها حلول
أجل هذا الإنسان بلحاظ دقائق العمر ، وإذا نظرنا إلى أن موت
الفجأة قد يحل بجزء من الدقيقة فيكون العدد أضعاف هذا الرقم
وقد صرف الله عز وجل عن العبد الموت فيها كي يشكره ويطيعه
وينفق في سبيله ، وهذا الإنفاق من أسباب دفع الأجل ، ومحو
البلاء.

(وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم : برىء من الشح من أدى الزكاة وقرى
الضيف وأدى في النائبة)^(١) ، (عن ابن عباس أن أعرابياً أتاه
فقال : إنا أناس من المسلمين ، وههنا أناس من المهاجرين
يزعمون أنا لسنا على شيء . فقال ابن عباس : قال نبي الله
صلى الله عليه وآله وسلم : من أقام الصلاة ، وآتى الزكاة ،
وحج البيت ، وصام رمضان ، وقرى الضيف ، دخل
الجنة)^(٢).

وأخرج ابن أبي شيبة والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي في
الشعب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) تفسير ابن كثير ٧٢/٨.

(٢) الدر المنثور ٩٩/٢.

وسلم : لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً .

وأخرج الترمذي والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : خصلتان لا يجتمعان في جوف مسلم البخل وسوء الظن^(١).

إن دفع الزكاة عصمة من الشح ، وسلامة من البخل ، ولا يجتمع الإيمان مع الطمع والحرص ، ويدرك معه العبد أن الرزق من عند الله عز وجل وأنه سبحانه فرض الزكاة.

ومن خصائص الملائكة أنهم يدعون للناس ليتقربوا إلى منازل الطاعة وتتقرب هي منهم وإبعادهم عن مستنقع الرذيلة.

ويسأل الملك الله عز وجل أن يجذب إنساناً لعمل صالح أو يبعده عن معصيته ، إن قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ

فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) ، وفيه شاهد على الصلة بين الملائكة وجنس البشر بفضل من الله تعالى ، وكأن من وجوه تقدير الآية أعلاه ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣) فاعينوه .

(١) الدر المنثور ٩/٤٦٣.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

وهل في تلاوة كل مسلم ومسلمة لقوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١)،
عدة مرات في اليوم في الصلاة الواجبة توسل لإعانة الملائكة للمسلمين في
سبل الهداية والرشاد .

الجواب نعم ، ومنه دفع البخل والشح عن المسلمين والناس ،
وتقريبهم إلى منازل الطاعة .

ويتفضل الله عز وجل ويذكر المسلمين والناس جميعاً بوجوب الزكاة
والتصدق من المال ، ومنه آية البحث فهي من عمومات قوله تعالى ﴿وَذَكِّرْ
فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، وعن (أنس بن مالك أن النبي {صلى
الله عليه وآله وسلم} قال : يُنادي مناد كل ليلة : لدوا للموت وينادي مناد
: ابنوا للخراب ،

وينادي مناد : اللهم هب للمنفق خلفاً ،

وينادي مناد : اللهم هب للممسك تلفاً ،

وينادي مناد : ليت الناس لم يخلقوا ،

وينادي مناد : ليتهم إذ خلقوا فكروا فيما له خلُقوا .^(٣) ومع

إخبار آية البحث أن ميراث السموات والأرض كله لله عز وجل ،

وأن ما في أيدي الناس من فضله سبحانه فإنه يندبهم للصدقة

والإنفاق ليخلف على الناس خيراً كثيراً ، وفي التنزيل ﴿بَلِّدَاهُ

مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^(٤) .

(١) سورة الفاتحة ٦ .

(٢) سورة الذاريات ٥٥ .

(٣) الكشف والبيان للثعلبي ٢٢٤/١١ .

(٤) سورة المائدة ٦٤ .

لذا تنمي الصدقة عند المتصدق والمتصدق عليه ملكة الدعاء ورجاء الفضل العظيم من عند الله عز وجل وآية البحث دعوة لإجتنب البخل ، وفي هذا الإجتنب منافع :

الأولى : طهارة النفس .

الثانية : الثبات على الإيمان .

الثالثة : إدراك تجلي البركة والنماء في المال .

الرابعة : نشر شأيب المودة بين الناس ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^(١) ، وإجتنب البخل من العمل الصالح .

الخامسة : تحقق مصداق من التكافل الإجتماعي يكون عوناً للناس على أداء الفرائض والتنزه عن الجريمة .
ويحتمل الأصل فيما جبلت عليه النفوس في أصل الخلقة وجوه:

الأول : جبلت النفوس على الخير .

الثاني : جبلت النفوس على البخل .

الثالث : الكرم والبخل عرض واكتساب .

والمختار هو الأول والثالث ، وأن البخل عرض غير ثابت فنزلت آية البحث لتنزيه المجتمعات منه ، ومن سبل هذا التنزيه الإخبار عما ينتظر الذي يمنع الحقوق الشرعية من العذاب الأليم في الآخرة .

الآية لطف

تبين الآية حجب الذين كفروا للحقوق ومنعهم لما جعل الله عز وجل من نصيب في أموالهم للفقراء ، قال تعالى ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾^(١) ، والسائل الذي يسأل الناس ، ويبين حاجته لهم رجاء إعانتة ، والمحروم الذي عجز عن الكسب ، أو فقد آتته ومؤنته ، وقال تعالى في ذم الكافر الذي أعرض عن الدعوة إلى الإيمان ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾^(٢) ، أي جعل ماله في وعاء وحرز إدخاراً له ، ومنعاً للحق الشرعي .

(وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أنفقي هكذا وهكذا، ولا تُوعي فيوعي الله عليك، ولا توكي فيوكي الله عليك" وفي لفظ: "ولا تحصي فيحصي الله عليك")^(٣).

ومن أسماء الله (اللطيف) وقد ورد هذا الاسم مرتين في القرآن ومقترناً باسم الخبير ، وفي التنزيل ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ خَلْقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٤) ، لبيان أن الله عز وجل نهى عن البخل والشح لأنه مخالف للفطرة الإنسانية وأصل الخلقة ، فلا يحتاج بعض البخلاء بالحقوق يوم القيامة باتخاذهم البخل منهاجاً ، إنما نفخ الله عز وجل من روحه في آدم وجعله وزوجه حواء يقيمان في الجنة برهة من الزمن ،

(١) سورة الذاريات ١٩.

(٢) سورة المعارج ١٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٧٠/٥.

(٤) سورة الملك ١٤.

ويلتقيان بالملائكة ويأكلان من ثمارها ، فمن حق كل إنسان ذكراً أو أنثى الإفتخار بأن أبوي الناس أقاما في الجنة وأكلا من ثمارها ، وثما لحمهما ودمهما من هذه الثمار لتبقى سنخية وأثر هذا الأكل يتنقل في أبدان الناس جميعاً إلى يوم القيامة ، وهو من الإعجاز في الخطاب القرآني للناس بصفة بني آدم عند التذكير العام للناس ، قال تعالى ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرَائِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

لتدل الآية أعلاه على أن أهل كل زمان هم أبناء لآدم نفسه ، وفيه دعوة للألفة والرحمة والشفقة بين الناس ، ونبذ الحروب والغزو والقتال.

وليكون من معاني قوله تعالى ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) ، إنكار الملائكة للقتل بين الناس مع أنهم أخوة لأب واحد ، وهذا الفعل القبيح تجلّى في قتل قابيل بن آدم لأخيه هايل ، قال تعالى ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمُ بَنَاءُ بَنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

(١) سورة الأعراف ٢٧.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة المائدة ٢٧.

فقد ذكرت الآية أعلاه ابني آدم الصليبين بذات الصفة التي خاطبت بها الآية أعلاه من سورة الأعراف عموم الناس ذكوراً وأنثاء ، والله عز وجل لطيف بالعباد في كل آن وعلى كل حال والعطاء والمنع ، والصحة والمرض ، وبسط الرزق وقبضه من لطف الله بالعباد ، وفي التنزيل ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾^(١).

وهل دفع الزكاة من المتاع أم أن البخل بها والإمتناع عن الإنفاق من المتاع لما فيه من الإدخار .

الجواب هو الأول ، لأن الإنفاق مؤونة إلى الآخرة ، قال تعالى ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾^(٢) ، ولم يرد في القرآن لفظ (الزاد ، أو زاد) من غير تعريف إلا في الآية أعلاه لبيان قانون وهو ليس من زاد يصاحب الإنسان إلى الآخرة إلا التقوى والخشية من الله عز وجل وطاعته ، والبخل بالحقوق نقيض التقوى.

والله عز وجل أعلم بما يصلح الأفراد والمجتمعات وأسباب استدامة الحياة الإنسانية في الأرض .

وآية البحث من لطف الله عز وجل بالعباد جميعاً ، بالغني والفقير ، والكريم والبخیل ، والمؤمن والكافر إنها حرب على البخل والشح مطلقاً ، وزجر عن الإمتناع عن الحقوق الشرعية.

(١) سورة الرعد ٢٦.

(٢) سورة البقرة ١٩٧.

الآية بشارية

لقد أكرم الله عز وجل الناس بالنبوة والتنزيل لتبليغ الناس بأن الدنيا دار بشارية إذ يتنعم التابع للنبوة ، التالي للكتاب بتلقي البشارات التي تشمل مواطن الدنيا والتي تخص الدار الآخرة.

وصحيح أن آية البحث إنذار للظالمين ، وتوبيخ للبخلاء الذين يسكون الزكاة إلا أنها تتضمن في منطوقها ومفهومها البشارة من جهات :

الأولى : إبتدأت آية البحث بالوعيد للذين كفروا ، وهو في مفهومه وعد من الله عز وجل للمؤمنين .

الثانية : إخبار آية البحث بأن ما في أيدي الناس فضل من الله عز وجل ، وهو سبحانه يعطي الزائد والفضل للذي ييخل بالحقوق ، فمن باب الأولوية أن يطمع المؤمن بفضله وإحسانه ، وفي الآية تذكير له بوجوب الإنفاق إن وسع الله عز وجل عليه .

الثالثة : إذا كان البخل بفضل الله عز وجل معصية وسبباً للبلاء والشرف فإن الإنفاق بقصد القرية إلى الله عز وجل هو خير للمؤمنين في الدنيا والآخرة .

الرابعة : نجاة المؤمنين والفقراء عامة من عقوبة تطويق العنق يوم القيامة بأفعى ، لإختصاص هذه العقوبة بالذين ييخلون بفضل الله عز وجل والزائد عن مؤونتهم من غير إسراف .

ومن البشارة في الدنيا الإخبار عن قانون سماوي ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) ، إذ ينقطع الظلم والاستحواذ على الحقوق وليس من وسوسة (ابليس) أو فتنة أو غواية يوم القيامة .

وما دام الميراث لله عز وجل وحده فإنه يكرم المؤمنين على إيمانهم ، وفي الآية بشارية الثواب على الإنفاق في سبيل الله عز وجل ، قال تعالى

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١).

وفي الآية مواساة للفقراء والمحتاجين والذين يرون حقهم محبوساً في أيدي البخلاء من الأغنياء فإن المال يعود كله لله عز وجل ، وجعل الله عز وجل التوارث بين الناس في الدنيا تذكيراً بصيرورة الميراث كله لله عز وجل فلا بد أن ينقطع هذا التوارث ، ولا يستطيع الناس قطعه أو وقفه إنما يرجع إلى الله عز وجل ، وتعجز الخلائق وإن اجتمعت عن تملك أي جزء من أجزاء السموات والأرض .

واختتمت آية البحث بالبشارة للذين آمنوا الذين يتعاهدون معالم الإيمان في الأرض بالتقيد بالعبادات والسنن .

الآية إنذار

ابتدأت آية البحث بقوله تعالى (ولا يحسبن) ونزول هذه الكلمة من عند الله عز وجل نوع إنذار وتخويف ووعيد ، ودليل على أن الله عز وجل يعلم بأفعال العباد ، وبما يعتقدون ويظنون وما تنطوي عليه نفوسهم من جهات :

الأولى : الهم بالفعل ، وقصد إتيانه .

الثانية : الرغبة والأمانى .

الثالثة : إتخاذ القول والفعل بلغة لأمر ما .

الرابعة : ما يضمه الناس في صدورهم مما لا يحيط به إلا الله

عز وجل ، وفي التنزيل ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٢).

(١) سورة البقرة ٢١٦.

(٢) سورة فصلت ٥٣.

ومتى ما علم الإنسان أن الله عز وجل يعلم ما في صدره فانه يخشاه ، ويتجنب ما نهى عنه .

الخامسة : ما يضممه الإنسان في نفسه من النوايا الحسنة ، ولا يقف علم الله عز وجل بالعلم بها بل إنه سبحانه يهيئ الأسباب لإتيان المصداق الفعلي لهذه النوايا أو إمتناعه عنها عند تحقق شرائطها طمعاً بالمال مثلاً ، ليكون من معاني ﴿الَّذِينَ يَخْلُونِ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١).

دعوة الإنسان إلى فعل الخير وتهئية أسبابه ومقدماته ، وإعانة الله له إن علم نيته إتيانه ، فعليه أن يبادر إلى فعله فان الله عز وجل علم ما في نفسه ورحمه ، وهيئ له مقدمات العمل الصالح لبيان قانون وهو أن اللطف الإلهي يتغشى الناس جميعاً .

(وأخرج ابن أبي شيبة عن جعفر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أشد الأعمال ثلاثة ، ذكر الله على كل حال ، والإنصاف من نفسك ، والمواساة في المال)^(٢).

وجاءت آية البحث لبعث الناس على المواساة وإظهار الشفقة بالمال وإنفاقه ، وتخفيف وطأة إخراجهم ودفعه إلى الغير ، وهو من مصاديق الإنذار من البخل والإقامة على الشح ، وفيه بشارة بالثواب والأجر عند الإنفاق .

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) الدر المنثور ٦/٣٠٢.

الآية رحمة

من إعجاز القرآن أن كل آية منه رحمة من جهات :

الأولى : مضمون الآية .

الثانية : مفهوم الآية .

الثالثة : تلاوة الآية .

الرابعة : ذات التدبر في الآية .

الخامسة : دلالات الآية القرآنية .

وقد تأتي الآية بصيغة الذم والتوبيخ لقوم أو طائفة كما في آية البحث التي تضمنت بيان حال البخلاء في الصدقات والنسبة بينها وبين قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١)، عموم وخصوص مطلق ، فالآية أعلاه أعم ، إذ تخص الذين يخلون مع صفة قبيحة أخرى وهي أمرهم للناس بالبخل والإمتناع عن دفع الزكاة والحقوق ، ليطوقوا يوم القيامة بما بخلوا به وما صاروا السبب في بخل الناس به ، مع أن الذين ينصتون لهم ويطيعونهم في البخل فيطوقون بما بخلوا أيضاً .

ومن معاني الرحمة إفادة الجمع بين الآيتين إنذار البخيل من القيام بأمر الناس بالبخل سواء من ذوي القربى أو غيرهم ، وهذا الأمر من المنكر قال تعالى ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ

فَنَسِيهِمْ إِنِ الْمُنَافِقِينَ هُمْ الْفَاسِقُونَ ﴿١١﴾ ، ولم يرد لفظ (بالمنكر)

بزيادة حرف الجر الباء إلا في الآية أعلاه ، وهناك مسألتان :

الأولى : هل يختص الامر بالمنكر بالمنافقين .

الثانية : هل البخل من المنكر .

أما المسألة الاولى فالجواب لا ، إذ يقوم الكفار والفاسقون بالأمر بالمنكر والتحريض عليه .

أما الثانية فالجواب نعم ، والبخل بالحقوق فعل منكر لذا حذرت منه آية البحث وبينت قبحه ، وذكرت سوء العقاب عليه .

ولم يقف الإنذار عند هذا الحد إنما جاءت آية البحث بالإنذار من ذات البخل لتعاضد الآيتان في منع الإنسان من تحريض غيره بالبخل ومن إمساكه الحقوق الشرعية .

واجتناب الأمر بالمنكر والقبيح خطوة وطريق مباركة للنجاة من ذات الأمر .

ومن وجوه الرحمة الإلهية في آية البحث أن التطويق بالمبخل به يكون يوم القيامة ، أما الإنذار والوعيد فجاء في الدنيا وبصيغة المضارع ليشمل الذي يهمل بالبخل أو تراوده نفسه بحبس الزكاة وحق الفقراء .

وهل انتفعت طائفة من الناس من آية البحث واجتنبوا البخل بالحقوق ، الجواب نعم ، ولا يعلم كثرة عدد الذين انتفعوا منها إلا الله عز وجل ، وهو الذي يأتي إن شاء الله في المبحث التالي .

الآية موعظة

لقد جعل الله القرآن كتاب الموعظة ، من جهات :

الأولى : كل آية من القرآن موعظة.

الثانية : كل كلمة من القرآن موعظة.

الثالثة : الجمع بين كل كلمتين موعظة.

الرابعة : كل سورة من القرآن موعظة .

الخامسة : تلاوة القرآن موعظة .

السادسة : وجوب قراءة القرآن في الصلاة موعظة.

ومن خصائص الحياة الدنيا أنها (دار الموعظة) وجاءت السنة النبوية بكنوز من المواعظ والحكم ، وكان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يرتقي المنبر ليعظ أصحابه ، كما يعظهم في المسجد وفي المجالس وفي حال السفر ، وذات سيرة وسنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حكمة وموعظة .

وعن أنس بن مالك قال : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظ أصحابه فإذا ثلاثة نفر يمرون ، فجاء أحدهم فجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومضى الثاني قليلا ثم جلس ، وأما الثالث فمضى على وجهه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما هذا الذي جاء فجلس إلينا فإنه تاب فتاب الله عليه ، وأما الذي مضى قليلا ثم جلس فإنه استحيى فاستحيى الله منه ، وأما الذي مضى على وجهه فإنه استغنى فاستغنى الله عنه^(١).

ليبيان نكتة وهي لزوم الوقوف عند مواعظ القرآن والسنة النبوية والتدبر فيها واستقراء الدروس منها.

(١) المستدرك على الصحيحين ١٨/١٥.

وأية البحث من آيات فضل الله وأن بخل الكفار وحسبهم الزكاة لا يمنع من توالي فضله عليهم وعلى الناس ، وفيه دعوة للمسلمين بالصبر ، والتفقه في الدين ، وإدراك قانون وهو قرب فضل الله عز وجل من الناس جميعاً ، وفي التنزيل ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

الحاجة إلى أية البحث

لقد جعل الله عز وجل الإنسان كائناً محتاجاً إلى غيره ، وهذه الحاجة قانون ملازم لعالم الإمكان ، وهو وفق القياس الإقتراضي :

الكبرى : كل ممكن محتاج .

الصغرى : الإنسان ممكن .

النتيجة : الإنسان محتاج .

وحاجة الإنسان على وجوه كثيرة ومتجددة يصعب إحصاؤها منها:

الأول : حاجة الناس إلى فضل الله عز وجل في كل دقيقة ، ومنها الشهيق والزفير .

الثاني : حاجة الإنسان بصرف البلاء ، ودفع الآفات وهذه الحاجة متجددة في كل ساعة من ساعات وعمر الإنسان ، قال تعالى ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾^(٢).

(١) سورة الأعراف ٥٦.

(٢) سورة الرعد ١١.

الثالث : الحاجة حال اليقظة.

الرابع : الحاجة عند النوم .

وفي التنزيل ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١).

وهل هناك حاجات للإنسان لم يتوصل العلم الحديث إلى اكتشافها إنما هي تجري بفضل من الله عز وجل ، الجواب نعم .
وعن الإمام علي عليه السلام

دواؤك فيك وما تشعر ... ودواؤك منك وتستنكر

وتحسب أنك جزء صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر .

(وقال أهل البصائر وليس في العالم الآفاق شئ إلا وفي العالم

النفساني نظيره)^(٢).

وجعل الله عز وجل الناس بعضهم يحتاج إلى بعض ، ولا يستطيع الناس قضاء كل حاجات الإنسان ، وإن كان رئيساً وأميراً ليلجأ الناس إلى الله عز وجل بالدعاء ، والعمل الصالح ، ومنه الإنفاق مما رزقه الله عز وجل ، ليكون هذا الإنفاق على وجوه :

الأول : إنه تسليم وإقرار بأن النعم التي عند العبد من الله عز

وجل .

الثاني : إنه شكر الله عز وجل على فضله وإحسانه ، فمن

الشكر لله عز وجل على النعم وما فيها من الزيادة عن الحاجة والمؤونة إعانة الفقراء .

(١) سورة الأنعام ٦٠.

(٢) إبراهيم بن عمر بن حسن الرياط البقاعي ت ٨٨٥ / نظم الدرر في تناسب الآيات والسور / .

الثالث : رجاء استدامة وزيادة الفضل من عند الله عز وجل ،
 فيعطي العبد مما في يده وهو يعلم أن الله عز وجل يأتيه بالبدل
 والعوض .

ومن الآيات تجلي الشواهد الكثيرة على هذه النعمة لكل عبد
 فيدرك ما يأتيه من العوض ، وما يأتي لغيره لذا جاءت قراءة
 المعوذتين لدفع الحسد عن الإنسان فيما آتاه الله عز وجل من
 الفضل ثم البدل والعوض ، وفي التنزيل ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾* مِنْ
 شَرِّ مَا خَلَقَ^(١).

ومن خصائص الإنسان إكتساب المعارف والإتعاظ من الذات
 والغير ، تراه يفعل أمراً وعندما يتقادم الزمان يندم عليه ، ويتمنى
 لو عادت الأيام ولم يفعله ، إلا العبادة وأسباب الصلاح فإنه ليس
 فيها ندم ، فإذا انقضى شهر رمضان شكر الصائم ربه على أداء
 الفريضة ، وينظر هو والذي كان مفطراً من غير عذر قد خلا في
 شهر شوال وما فيه من إباحة الأكل في النهار ، مثلما هي مباحة في
 الليل ويبقى الأجر والثواب للصائم .

و(عن سهل بن سعد . أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
 قال : للجنة ثمانية أبواب ، فيها باب يسمى الريان يدخل منه
 الصائمون يوم القيامة ، لا يدخل معهم أحد غيرهم يقال : أين
 الصائمون؟ فيدخلون منه ، فإذا دخل آخرهم أغلق ، فلم يدخل
 منه أحد زاد ابن خزيمة : ومن دخل منه شرب ، ومن شرب لم
 يظماً أبداً)^(٢).

(١) سورة الفلق ١-٢.

(٢) الدر المنثور ١/٣٦١.

وقد ورد لفظ (الريان) في الحديث النبوي وبخصوص الجنة ولكنه ليس باباً إنما هو نهر ، (وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن أنس مرفوعاً : في الجنة نهر يقال له الريان ، عليه مدينة من مرجان ، لها سبعون ألف باب من ذهب وفضة ، لحامل القرآن) ^(١).

و(عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لعلمكم تظنون أن أنهار الجنة أخذود في الأرض لا . . . والله أنها لسايحة على وجه الأرض ، حافتها خيام اللؤلؤ ، وطينها المسك الأذفر . قلت : يا رسول الله ما الأذفر؟ قال : الذي لا خلط معه) ^(٢) ، وتبين آية البحث حاجة الإنسان إلى فضل الله عز وجل لينفق منه ، وحاجة الفقير لهذا الإنفاق ، فالجميع محتاجون الغني والفقير ، والسيد والعبد ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ^(٣) .

ويكون تقدير آية البحث بلحاظ عنوان هذا الباب على وجوه :
الأول : الذين يخلون بما آتاهم الله من فضله مع حاجتهم للتنزه عن هذا البخل .

الثاني : يحتاج الإنسان أن يعمل الصالحات .

الثالث : مجئ المدد لعمل الصالحات من عند الله سبحانه ، وهذا المدد زائد عن الحاجة الشخصية لذا وصفت الآية الحق الشرعي بأنه من فضل الله عز وجل .

الرابع : الإنفاق في سبيل الله خير محض .

الخامس : في إخراج الزكاة نجاة من عذاب طوق الأفعى .

(١) الدر المنثور ٥١/١ .

(٢) الدر المنثور ٥١/١ .

(٣) سورة فاطر ١٥ .

ومن معاني الإنذار الوارد في آية البحث تأكيد المعاد ، وأن الناس يقفون للحساب وينالون الجزاء ، وما الأوامر والنواهي في الكتب السماوية المنزلة إلا رحمة للناس .

وأخبرت آية البحث عن قانون وهو ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) ، وهناك مسائل .

الأولى : حاجة الناس إلى هذا القانون .

الثانية : من فضل الله عز وجل الذين تذكره آية البحث الإخبار السماوي عن القانون أعلاه ، لذا ذكرت آية البحث الفضل بصيغة التبعية ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ .

ومن معاني الإخبار عن هذا القانون في القرآن بعث العزة عند المسلمين ، والإستغناء عما في أيدي الناس ، وعدم حصرهم الظن بقضاء الحاجات عند الغني ونحوه .

والآية من تثبيت مفاهيم ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَكَرْسِيُّهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) ، في أذهان المسلمين ، وجعله شعاراً حاضراً في المنتديات والأسواق ، وضياءً ومنهاجاً ، وفيه رفعة وغنى عن الغزو والهجوم .

الثالثة : من إعجاز القرآن مجئ قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) ، مرتين في القرآن ، وفي ذات موضوع الإنفاق في سبيل الله ، ولزوم التنزه عن البخل ، قال تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤) ، ولم يرد لفظ (ميراث) في القرآن إلا في هاتين الآيتين .

(١) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٢) سورة المنافقون ٨ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٤) سورة الحديد ١٠ .

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بنهي الذين كفروا عن ظن مخصوص وهو الإعتقاد بأن البخل خير لهم .

ولم تذكر الآية إختيار الكفر الذي هو أشد سوء وكرهة لأن الذين ييخلون فيما آتاهم الله عز وجل من فضله لا ينحصر بإمساك الحقوق و فيشمل كلاً من :

الأول : الذين كفروا بالربوبية المطلقة لله عز وجل .

الثاني : الذين أنكروا النبوة .

الثالث : الذين لم يقرؤوا باليوم الآخر والمعاد .

الرابع : المنافقون إذ يمتنعون عن دفع الزكاة ويمسكون عن الصدقات ،

وفي التنزيل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

ويتضمن قوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾^(٢)، نهياً وظناً ، وفعلاً .

أما النهي فهو من الله عز وجل وهو باق إلى يوم القيامة وأما الظن فقد بينت الآية الكريمة عدم صحته وانه لا أصل له ، وأما الفعل فهو البخل.

لتبعث الآية القارئ لها إلى الإستمرار في القرآن ، ومعرفة بماذا يكون البخل المنهي عنه ، وهو من إعجاز القرآن بأنه يحث على متابعة قراءة كلماته ، واقتران هذه المتابعة بالتدبر ، ويحتمل التأثير والإستجابة للآية وجوهاً :

(١) سورة البقرة ١٣.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠.

الأول : الإستجابة التامة من كل الذين يقرأون الآية .
الثاني : الإستجابة لمضامين الآية القرآنية على نحو الموجبة الجزئية.

الثالث : التفصيل في شعبتين:
الأولى : يستجيب المؤمن لمضامين الآية القرآنية .
الثانية : يمحذ الذين كفروا بأحكام الآية القرآنية .
وما فيها من الأمر والنهي من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً .

والنفع من آيات القرآن لا ينحصر بالمؤمنين بل هو عام .
وتتضمن آية البحث وجوهاً :
الأول : نفي الخير عن الذين ييخلون فيما آتاهم الله عز وجل ، وهل هذا النفي مطلق ، الجواب لا ، إنما هو في خصوص أثر وعاقبة ذات البخل .

الثاني : نزول الشر والبلاء بالذين كفروا بسبب بخلهم فيما آتاهم الله عز وجل من فضله ، قال تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتوكلوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ^(١) .
الثالث : تطويق الذين كفروا بما بخلوا .

وفيه ترغيب بالسخاء والإنفاق ودفع الزكاة ، وبعث للنفرة من
البخل الشح ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

وهو من إعجاز الآية بأن تبين عدة قوانين في موضوع متحد
بخصوص النهي عن فعل مذموم ، وهما :
الأول : قانون إثبات حجب الفعل القبيح للخير والفضل من
الله عز وجل .

الثاني : قانون المعصية المتجددة تجلب الشر .
وتتجلى المعصية بالإمتناع عن دفع الحقوق الشرعية ، أما
التجدد فيتبين من صيغة المضارع (يخلون) والجمع بينه وبين صيغة
الماضي (بما آتاهم الله) فقد بخلوا بفضل الله عز وجل حين آتاهم
وبعد ما استقر عندهم ، وتجددت وتوالت أفراده .
وهل يريد منهم الله عز وجل إنفاق كل فضله الذي آتاهم ،
الجواب لا ، إنما المطلوب هو المقدار المنصوص عليه شرعاً ، قال
تعالى ﴿وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَيْرُ﴾^(٢) ، وتدلل الآية أعلاه على أن
المسلمين منزهون عن البخل بفضل الله عز وجل لأنهم لجأوا إلى
النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسألوه ماذا ينفقون .

وذكر لفظ الجلالة في آية البحث ثلاث مرات من وجوه :
الأول : ذكر الآية لفضل الله عز وجل على الناس في الدنيا ،
ويمكن تسميتها (دار فضل الله) فليس من أهل الأرض ذكراً أو
أنثى إلا وتأتيه أضعاف وضروب من فضل الله عز وجل في كل
ساعة من نهاره وليله .

(١) سورة الحشر ٩.

(٢) سورة البقرة ٢١٩.

الثاني : بيان قانون وهو عودة ميراث السموات والأرض كله لله سبحانه، إذ تهلك الخلائق كلها لا يبقى إلا الله عز وجل وهلاك الخلائق ليس في محوها وزوالها إنما هي حاضرة عند الله بما هيئة وهيئة لا يعلمها إلا هو سبحانه ، قال تعالى ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾^(١).

الثالث : لقد ذكرت آية البحث سوء فعل الذين كفروا في الدنيا واصرارهم على البخل ثم أخبرت بأن هذا الفعل لا يترك سدى ، وأنه سبب لعذابهم في الآخرة وبينت الآية نوع العذاب بخصوص ذات البخل وهل ينحصر عذابهم يومئذ بتطويق أعناقهم بما بخلوا.

الجواب لا ، إنما ذكرت الآية صنفاً من أصناف عقاب الذين كفروا ، لبيان أن العذاب على الكفر أشد وكذا العذاب على إنفاق الاموال في المعاصي ومحاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وكان مشركوا قريش يجمعون الجيوش لقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وينفقون عليها الأموال الطائلة ، فيقابلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسلاح الدعاء ، فيذهب إنفاقهم هباءً ،

(وعن رفاعة الزرقعي قال : لما كان يوم أحد انكفأ المشركون قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استعدوا حتى أثني على ربي فصاروا خلفه صفوفا فقال اللهم لك الحمد كله لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لما هديت ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما باعدت ولا مباعد لما قربت اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول اللهم إني أسألك النعيم يوم العلية والامن يوم الخوف اللهم عائد بك من شر

ما أعطيتنا وشر ما منعتنا اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك واجعل عليهم رجزك وعذابك إله الحق آمين^(١).

ورفاعه بن رافع بن مالك الزرقي صحابي توفي سنة ٤١ هجرية من بني زريق من الخزرج ، شهد بيعة العقبة الثانية والمشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وشهد واقعة الجمل ثم صفين مع الإمام علي عليه السلام .

وأسلم قبل الهجرة النبوية إلى المدينة وحضر بيعة العقبة الثانية مع أبيه الذي كان أحد النقباء ، وروى عنه ابنه عبيد ومعاذ ، وابن أخيه يحيى بن خلاد ، وعبد الله بن شداد وغيرهم.

ولم تكتف آية البحث بنقض ظن الذين كفروا بأن حجبهم للحقوق خير لهم ، فبعد أن أكدت قانوناً وهو أن هذا الحجب شر لهم ، جاء ما يدل على أن هذا الشر يشمل الحياة الدنيا والآخرة ، وذكرت سُنْخِيْتِه في الآخرة بتحول المال المحجوب إلى أفعى يطوق عنق الذي ييخل به .

ولم تبين الآية ماهية الشر في الدنيا مما يدل على أنه ظاهر وجلي.

ثم أخبرت آية البحث بأن كل ما يملكه الناس يعود ميراثه لله عز وجل وهو المالك في الدنيا والآخرة ، إنما جعل هذه الأموال عند الناس إمتحاناً واختباراً ، وفيه توبيخ اضافي للذين كفروا. وأختتمت آية البحث بالخطاب للمسلمين والناس جميعاً بأن الله عز وجل عالم وخبير بما يفصلون .

من غايات الآية

في الآية مسائل .

الأولى : إرادة إشاعة الأخلاق الحميدة ، وروح التعاون والتآلف بين الناس .

الثانية : بيان قانون وهو ما عند الناس فضل من الله عز وجل .

الثالثة : التخفيف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فلا تتجمع الأموال عند كفار قريش فيسخرونها لمحاربتهم .

الرابعة : تأكيد النعم العظيمة التي يتفضل بها الله عز وجل على الناس .

الخامسة : بيان حقيقة وهي وجود طائفة من الناس يجمعون الأموال ولا ينفقون منها في مرضاة الله عز وجل وإعانة الفقراء .

السادسة : الإجتهد بالدعاء رجاء فضل الله عز وجل ، (و) عن عبد الله بن مسعود قال : أضاف النبي صلى الله عليه وسلم ضيفا فأرسل إلى أزواجه يبتغي عندهن طعاما فلم يجد عند واحدة منهن شيئا .

فقال : اللهم إني أسألك من فضلك ورحمتك ، فإنه لا يملكها إلا أنت ، قال ، فأهديت إليه شاة مصلية^(١) .

السابعة : لزوم شكر الناس الله عز وجل على فضله وإحسانه .

الثامنة : توثيق آية البحث لجهاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعوته الناس للإنفاق ، والإنذار من سوء عاقبة البخل ، وكل من هذه الدعوة والإنذار قد يبعثان أصحاب الأموال لمحاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهم لا يريدون توجيه اللوم لهم على إكتنازهم الأموال فنزلت آية البحث ليقراها المسلمون كل يوم في

صلاتهم وخارج الصلاة ، ويتجدد معها إنذار الذين كفروا قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْزُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

التاسعة : تفقه المسلمين في الدين ، وارتقاؤهم في سلم المعارف ، وصيرورتهم على علم بأحوال الناس ، ووجود طائفة تحبس الحقوق الشرعية ويمسكون ما يجب إنفاقه من العفو والزيادة في المال ، وهل هناك أناس فقراء ولكن لو كان عندهم مال بخلوا به ، الجواب نعم ، وهل يحاسبهم الله عز وجل على سنخية البخل التي عندهم لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما الأعمال بالنيات^(٢).

الجواب لا ، لإنتفاء الموضوع ، وحتى النية بالبخل لم تتحقق لأن المراد من الحديث أعلاه وقوع العمل وموضوعية النية والقصد فيه ، ولم يتحقق عمل وبخل من الفقير.

إعجاز آية البحث

لقد ابتدأت آية البحث بالإخبار عن ظن الذين كفروا بأن البخل خير ونفع لهم لتنفى الآية هذا الظن وتمنع الناس من التصديق به.

ومن إعجاز الآية مجيؤها بصيغة الذم للبخل مطلقاً فلم تقيّد الآية البخل بالحقوق الشرعية ، إنما ذكرت عامة البخل فينصرف الفرد الأهم منه إلى الإمتناع عن دفع الزكاة والخمس والحقوق الشرعية بدليل تفسير النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهذه الآية ، إذ قال :

(١) سورة التوبة ٣٤.

(٢) الكشف والبيان ٣/ ٢٣٨.

(من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له شجاع أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، فيأخذ بلهزمته يعني شذقيه فيقول : أنا مالك . أنا كنزك . ثم تلا هذه الآية {ولا يحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله . . }^(١)^(٢)).

ويحتمل تفسير النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأية البحث أعلاه وجوهاً :

الأول : إنه كيفية تقييد للآية وأن موضوع البخل المذكور فيها بخصوص الإمتناع عن دفع الزكاة والحقوق الشرعية .

الثاني : صيرورة الكنز والمال غير المزكى ثعباناً يطوق عنق صاحبه ، ولو عفا عنه يوم القيامة الفقراء من ذويه ومن حوله فهل يسقط عنه العقاب ، ويزول عنه هذا العذاب خاصة الجواب جاء حكم العقاب بلحاظ التكليف بين الله والعبد ، والقطع ، نعم إن رحمة الله تسع المقام.

الثالث : لوقام الوارث والذرية بدفع ما في مال المورث من الزكاة والخمس فهل تبرأ ذمته أم لا ، المختار هو الأول وهو من مصاديق (قول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له)^(٣).

فان قلت قد ورد في الحديث أعلاه دعاء الابن ، والجواب يشمل الحديث دفع الزكاة من مال الأب تداركاً من باب الأولوية القطعية.

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) الدر المنثور ٤/٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٤٤٢/١.

ولو سوف وتهاون صاحب المال في إخراج الزكاة ثم ندم عندما حضره الموت وأوصى باخراجها فهل ينجو من العذاب ، الجواب نعم إن نفذت الوصية ، أما إذا لم تنفذ الوصية ، فالله عز وجل هو العالم ، وهو الذي ينشر مصاديق كثيرة من رحمته يوم القيامة ، لذا أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١).

ومن خصائص السنة النبوية أنها تفسير وبيان للقرآن ، كما أنها تقيد إطلاق القرآن وتخصص العموم .

ومن تقييد الإطلاق ما ورد في قوله تعالى ﴿فَنَنْكَاحُكُمْ مَرْيُومَ أُورُشَلِيمَ مِنْ رَأْسِهِ فَنَدِيَّةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ﴾^(٢) ، إذ ذكرت الآية الفدية على نحو الإجمال.

و(عن كعب بن عجرة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالحديبية ونحن محرمون^(٣) وقد حصرنا المشركون ، وكانت لي وفرة فجعلت الهوام تساقط على وجهي ، فمر بي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : أيؤذيك هوام رأسك ، قلت : نعم . فأمرني أن أحلق قال : ونزلت هذه الآية ﴿فَنَنْكَاحُكُمْ مَرْيُومَ أُورُشَلِيمَ مِنْ رَأْسِهِ فَنَدِيَّةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ﴾^(٤) ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : صم ثلاثة أيام ، أو تصدق بفرق بين ستة ، أو انسك مما تيسر^(٥) ، إذ أن

(١) سورة آل عمران ١٠٨.

(٢) سورة البقرة ١٩٦.

(٣) أي بلباس الإحرام وثوبيه.

(٤) سورة البقرة ١٩٦.

(٥) الدر المنثور ١/٤٢٨.

هذا الحلق استثناء ورخصة للمريض وسبق له عن أوانه عند بلوغ الهدى محله ولا يخلق إلا بعد أن يذبح الهدى وتتمام الآية الكريمة ﴿وَأَتُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلُقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١)، وكما في قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَكَدُ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ ذَيْنَ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَكَدُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَهُنَّ الثُّلَثُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ ذَيْنَ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَكَهْ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلَثِ مِنَ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ ذَيْنَ غَيْرِ مُضَارٍ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾^(٢).

فورد لفظ الوصية في الآية مطلقاً ويزاحمها الدين على الميت في حال وجوده ويتقدم عليها .

وبين النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مقدار الوصية الجائزة بأنها ثلث التركة أو أقل من الثلث.

(١) سورة البقرة ١٩٦.

(٢) سورة النساء ١٢.

التفسير

قوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ يَخْلُونُ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾

كما نزل القرآن بالبشارة والإنذار فانه جاء بالمدح والذم ، إذ يتضمن القرآن المدح من وجوه :

الأول : مدح الله عز وجل لنفسه وعظيم قدرته وبديع صنعه ، قال تعالى ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

وسياتي قانون ثناء الله على نفسه في القرآن .

الثاني : ثناء الله عز وجل على الأنبياء وشكره لهم ، ومن مصاديق ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(٢) البيان من عند الله للأسباب والمواضيع التي يمدح بها الأنبياء واستحقاقهم للمدح بصبرهم وجهادهم في سبيل الله.

وسياتي إن شاء الله قانون ثناء الله على الأنبياء ، وكيف أن هذا الثناء شاهد على أنهم لم يقوموا بالغزو والقتال ، إنما تحملوا الأذى في مرضاة الله .

الثالث : مدح الله عز وجل للمؤمنين من المليين الموحدين .

وهو من وجوه:

أولاً : مدح المؤمنين بالله من أهل الأرض .

ثانياً : مدح أصحاب الأنبياء إذ صاروا حجة على قومهم وداعية إلى الله ، وحصناً للنبي ودعوته ، قال تعالى ﴿وَكَاْنِيْ

(١) سورة البقرة ١١٧.

(٢) سورة الأنعام ١٤٩.

مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَيْتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١﴾ (٢).

ثالثاً : مدح أنصار وأتباع الأنبياء والرسل من الأجيال المتعاقبة ، وهم يحملون البشارات التي جاء بها الأنبياء ، ومنها البشارة برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ ينقل أتباع عيسى عليه السلام بشارته بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما ورد في التنزيل ﴿وَبَشِّرِ رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (٣).

وذكرت آية البحث البخل من غير حصر لموضوعه ، وفيه وجوه :

الأول : إرادة البخل والشح مطلقاً حتى على النفس .

الثاني : المقصود البخل والشح في المال دون غيره .

الثالث : إرادة الإمتناع عن دفع الزكاة ، والحقوق الشرعية .

الرابع : البخل التقصير في أداء العبادات من جهات :

الأولى : العبادات البدنية من الصلاة والصيام .

الثانية : العبادات البدنية المالية ، وهو حج بيت الله الحرام إذ

يتضمن كلاً من :

الأول : قطع المسافة إلى البيت الحرام .

الثاني : الإنفاق والمؤونة في السفر والإقامة .

الثالث : أداء المناسك .

ومن أداء مناسك عمرة التمتع لمن يعد مسكنه عن البيت

الحرام ٤٨ ميل أو أكثر وفيها النية والإحرام من أحد المواقيت الستة

(١) سورة آل عمران ١٤٦ .

(٢) أنظر الجزء الثامن عشر بعد المائة الذي اختص بتفسير هذه الآية ..

(٣) سورة الصف ٦ .

وحصر هذا الإحرام في أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة ثم الطواف حول الكعبة سبعة أشواط ثم صلاة الطواف ركعتين عند مقام إبراهيم لقوله تعالى ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(١)، والسعي بين الصفا والمروة ، ثم تقصير الشعر فيخرج المحرم من إحرامه ، ثم الإنتظار إلى اليوم الثامن من شهر ذي الحجة وهو يوم التروية للخروج إلى منى ، ويجوز البقاء في مكة والخروج إلى عرفة في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة.

وقال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم : الحج عرفة .

وعن عبد الرحمن بن يعمر الديلي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الحج عرفات ثلاثا فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك أيام منى ثلاث فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه^(٢).

والمختار هو الوجه الثالث أعلاه ، وتكون الوجوه الأخر في طوله ، وهو من إعجاز القرآن بأن تأتي الآية في موضوع وتكون دلالتها أعم ، قال تعالى ﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءِ تَدْعُونَا لِنُفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يُبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْآ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾^(٣).

جاءت آية البحث بصيغة الجمع ، وفيها وجوه :

الأول : إرادة المفرد ، وتقدير آية البحث : ولا يحسن الذي يبخل بما آتاه الله من فضله.

(١) سورة البقرة ١٢٥.

(٢) النسائي / السنن الكبرى ٤٢٤/٢.

(٣) سورة محمد ٣٨.

الثاني : إرادة الجمع من جهة الإحتساب والظن والمفرد من جهة البخل ، وتقدير الآية : ولا يحسن الذين يبخل كل واحد منهم بما آتاه الله من فضله .

الثالث : خصوص المفرد فيما يخص بخل الجماعة ، وتقدير الآية : ولا يحسن أحد الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير له ولهم .

الرابع : قد يأتي البخل من قبل الشركاء في مال تعلقت بحصة كل واحد منهم الزكاة .

الخامس : صيغة الجمع في طرفي الظن والفعل ، وهو الذي جاءت به صيغة آية البحث وهي جامعة للوجوه أعلاه
ليبان قانون في إعجاز القرآن وهو أن كلماته المحدودة تحيط بالامحدود من الوقائع والأحداث وليبان أن الفعل القبيح للفرد يضر بالجماعة ، وكذا فإن ذات فعل الجماعة والطائفة قد يضر بالفرد منهم إذا كان معصية لله عز وجل .

وهل في الآية إنذار للذين يمسكون الحقوق الشرعية بأن الله عز وجل يحجب عنهم فضله ، الجواب نعم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿بَلْ هُوَ شَرُّهُمْ﴾^(١) ، لصيغة الإطلاق في لفظ الشر الذي يشمل أوان ما قبل نزول الآية وما بعدها .

وهل يضر هذا البخل الفقراء ممن حول الأغنياء ، الجواب لا ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ

الفُقَرَاءُ»^(١) ، ولذكر الآية فضل الله عز وجل وإتيانه للناس بصيغة التبعية بقوله تعالى ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢).

فمن معاني الآية أمور :

الأول : كثرة وسعة فضل الله عز وجل .

الثاني : دعوة الفقراء والناس جميعاً لسؤال الله عز وجل بأن يرزقهم من فضله ، قال تعالى ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٣).

ومن إعجاز القرآن عدم ورود لفظ ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه ، مع أن القرآن كله دعوة للمسلمين خاصة ، والناس عامة لسؤال الله عز وجل من فضله الذي لم يخل به حتى على الذين ييخلون بما آتاهم من فضله .

الثالث : من خصائص خلافة الإنسان في الأرض وعمومات قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٤) ، إتيان كل إنسان من فضل الله عز وجل ، فإن قلت وإن كفر ، وإن بخل ، الجواب نعم .
لذا أخبرت آية البحث عن سوء عاقبة الذي ييخل بالحق الشرعي فيما آتاه الله عز وجل من فضله وإحسانه وجوده (عن أبي سلمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما نقصت صدقة من مال قط فتصدقوا)^(٥).

(١) سورة محمد ٣٨ .

(٢) سورة آل عمران ١٧٠ .

(٣) سورة النساء ٣٢ .

(٤) سورة البقرة ٣٠ .

(٥) الدر المنثور ٢/٢٢١ .

وهل المقصود من الصدقة في الحديث أعلاه الزكاة الواجبة ،
أما المعنى الأعم وشمولها لزكاة الفطر والصدقة المستحبة .

الجواب هو الثاني ، إذ يدعو الحديث النبوي إلى إفشاء الصدقة
كل يوم ، وهذا الحديث من جوامع الكلم إذ يخبر النبي صلى الله
عليه وآله وسلم بما آتاه الله عز وجل من الوحي أن الصدقة وإن
خرجت من مال المتصدق إلا أنها سبب للبركة فيه والإتيان برزق
آخر غيره .

وهل الرزق من فضل الله عز وجل خصوص المكتوب
والمعلوم للعبد ، أم هناك رزق مستحدث غير المكتوب والمقدور
للعبد .

الجواب هو الثاني والله عز وجل يعلم به قبل أن يخلق آدم وهو
من معاني تسميته فضل الله (عن أبي الإمام الصادق عليه السلام
قال : إن الله قسم الارزاق بين عباده وأفضل فضلا كبيرا لم يقسمه
بين أحد قال الله : واسألوا الله من فضله) ^(١) .

ومن أسرار صيغة المضارع في الآية إنبساطها على أفراد العوالم
الطولية ، وتقدير الآية على وجوه :

الأول : ولا يحسبن الذين يخلوا بالأمس ، إلا من تدركه التوبة ،
وهو من المقاصد السامية لآية البحث بان تبعث الناس إلى المبادرة
إلى إخراج الزكاة لذات السنة التي هو فيها وللسنوات التي إمتنع
فيها عن إخراج الزكاة والخمس ففي الزكاة حقان :

أولا : حق الله .

ثانيا : حق الفقراء .

فاذا تاب قبل الله توبته وسقط عنه حقه ، أما حق الفقراء فهو
باق في ذمته فيجب عليه إخراجهم ولو دار الأمر بين الأكثر والأقل

فيما إمتنع عنه من الزكاة والخمس من جهة عدد السنين ومقدار المال الواجب إخراجه فلا يعلم هل هو الف دينار أو الفان مثلاً فيجزيه دفع الأقل أعلاه وهو الألف ، وينجز الإحتياط بدفع الأكثر.

قال قتادة : إن إبراهيم عليه السلام حدث نفسه إنه أرحم الخلق. فرفعه الله عز وجل حتى أشرف على أهل الأرض وأبصر أعمالهم فلما رأهم يعملون بالمعاصي قال الله : دمر عليهم ، وجعل يلعنهم. فقال له ربه : أنا أرحم بعبادي منك ، إهبط فلعلهم يتوبوا. (وعن قيس بن أبي حازم عن علي كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما أرى الله تعالى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض أشرف على رجل على معصية من معاصي الله فدعا الله عليه فهلك .

ثم أشرف على آخر فدعا الله عليه فهلك ، ثم أشرف على آخر فلما أراد أن يدعو عليه أوحى الله عز وجل إليه أن يا إبراهيم إنك رجل مستجاب الدعوة فلا تدعون على عبادي فإنهم مني على ثلاث خصال : إما أن يتوب إليّ فأتوب عليه ، وإما أن أخرج منه نسمة تسبح ، وإما أن (يعود) إليّ فإن شئت عفوت عنه وإن شئت عاقبته^(١).

الثاني : ولا يحسبن الذين ييخلون اليوم .

الثالث : ولا يحسبن الذين ييخلون غداً .

الرابع : ولا يحسبن الذين ييخلون عن كتابة الوصية بما آتاهم الله عز وجل من فضله ، وعن معاذ بن جبل قال : إن الله تصدق عليكم بثلاث أموالكم زيادة في حياتكم يعني الوصية^(٢).

(١) الكشف والبيان ٢٤٦/٥.

(٢) الدر المنثور ٥٤/٣.

الخامس : ولا يحسبن الذين ييخلون مجتمعين ومتفرقين.
السادس : ولا يحسبن اليوم الذين ييخلون غداً بما آتاهم الله عز وجل من فضله .

ومن معاني صيغة الجمع في الآية ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بأن بخل أحدهم هو خير له أو لهم .
 فقد يحث بعض أفراد الأسرة أحدهم ، أو الصديق صديقه على البخل فأخبرت الآية بان هذا الحث وإرتكاب البخل هو شر لهم وإن اجتهدوا في تزيينه .
 إن ما عند الناس كله من فضل الله عز وجل وإن تم بالواسطة ، فالذي يهب لغيره إنما يهب مما أعطاه واغناه الله عز وجل ولا بد فيه من الزكاة مع تحقق النصاب ، لذا قال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١).

فلم تقل الآية أعلاه يا أيها الذين آمنوا ، أو يا أيها الذين كفروا ، إنما ذكرت الناس ، وتفيد الألف واللام الجنس ، وإرادة أهل الأرض كلهم ، وهذا الفقر والحاجة إلى الله عز وجل مستديمة ومتجددة أما الله عز وجل فهو الغني الذي لا يحتاج أحداً .
 وحاجة الناس لله عز وجل في الآخرة أكثر منها في الدنيا ، ومنها لزوم السعي للنجاة يومئذ من تطويق العنق بأفعى .

ترى لماذا تدم آية البحث الذين ييخلون بما آتاهم الله عز وجل من فضله ، الجواب لأن البخل يحجب عن صاحبه النفع ويصرف عنه الخير ، ويغلق عنه أبواباً من فضل الله عز وجل ، وكأن الآية تقول : لا تبخلوا بفضل الله عز وجل فيحجب عنكم ، وهذا

الحجب بما كسبت أيديكم إذ أمركم الله عز وجل بالإتفاق وإخراج الحقوق الشرعية .

ومن بخل فقد عصى الله عز وجل واستحق العقوبة ومنها توالي الفضل عليه كيلا يتمادى في معصية البخل ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(١)، إن الله عز وجل يمنع توالي وجوها من الفضل عن الذين كفروا والذين ييخلون بما آتاهم الله عز وجل بظلمهم لأنفسهم ، فإذا إنكشف الغطاء للناس يوم القيامة ، ورأى المشركون حقيقة وهي حجب وجوه من فضل الله عنهم كانت تصلح أحوالهم مالياً وجاهاً يأتيهم الجواب يومئذ : إنكم ظلمتم أنفسكم بالإمتناع عن الإحسان وإعانة الفقراء وإكرام الضيف ، ولعدم قضاء حاجة الملهوف .

وعن سهل بن سعد قال : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل عنده خزائن الخير والشر فطوبى لمن جعله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر وويل لمن جعله الله مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير^(٢).

وجاءت آية البحث بصيغة الإطلاق من وجه الإقامة على البخل أي أنهم ييخلون حتى وإن زاد وتضاعف عليهم فضل الله عز وجل ، فيكون حسابهم أشد للضرر العام بحجبهم الكثير من الحقوق كما وكيفاً ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾^(٣)، أي حجب كثير من فضل الله عنهم في الدنيا بسبب بخلهم وشحتهم

(١) سورة النحل ١١٨.

(٢) المعجم الكبير ١٨٩/٦ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

، وإذا حُجبت هذه الأفراد من فضل الله عز وجل من قبل الذين ييخلون فيها وجوه :

الأول : تحول وانتقال الأفراد من فضل الله عز وجل إلى الفقراء من غير واسطة الذين ييخلون بها .

الثاني : تفضل الله عز وجل بأفراد أخرى من فضله وإحسانه على الفقراء والناس جميعاً ، وعن حكيم بن حزام يحدث عن أبي ذر ، أنه قال : يا رسول الله ذهب بالأجور أصحاب الدثور^(١) ، نصلي ويصلون ونصوم ويصومون ولهم فضول أموال فيتصدقون بها وليس لنا ما نتصدق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا ذر ألا أعلمك كلمات تقولن تلحق من سبقك ولا يدركك إلا من أخذ بعملك .

قال : بلى يا رسول الله قال : تكبر دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وتسبح ثلاثاً وثلاثين وتحمد ثلاثاً وثلاثين ، وتختتم بلا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير فأخبر الآخرين بذلك ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله إنهم قد قالوا مثل ما قلنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾^(٢) .

وعلى كل نفس في كل يوم صدقة ، ففضل بصرك للمنقوص بصره لك صدقة ، وفضل سمعك للمنقوص له سمعه صدقة ، وفضل شدة ذراعيك للضعيف لك صدقة ، وفضل شدة ساقيك للملهوف صدقة ، وإرشادك الضال لك صدقة ، وإرشادك سائلاً أين فلان فأرشدته لك صدقة ، ورفعك العظام والحجر عن طريق

(١) جمع دثر وهو المال الكثير.

(٢) سورة المائدة ٥٦.

المسلمين صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر لك صدقة ومباضعتك أهللك لك صدقة^(١).

الثالث : رفع الأفراد التي حجت عن الأغنياء الذين يخلون بها عن الناس .

الرابع : رفع بعض أفراد الفضل الإلهي من تلك النعم دون بعضها الآخر.

إن الله عز وجل واسع كريم ، وليس من حصر لوجوه وأفراد فضله فهي من اللامتاهي وغير المنقطع.

وعلى فرض القول بحجب هذه الوجوه عن الذين كفروا والذي يخلون بما آتاهم الله عز وجل من فضله فانه تعالى أكرم من أن يعطي عبداً ما حجه عن غيره ، فكل عطائه سبحانه بكر وإبتداء.

ومن إعجاز آية البحث ورودها بلفظ المضارع والماضي في الموضوع المتحد .

لقوله تعالى (يخلون) مضارع ، وقوله تعالى (آتاهم) ماض ، ليكون تقدير الآية على وجوه :

الأول : الذين بخلوا بما آتاهم الله عز وجل .

الثاني : الذين يخلون بما بقي في أيديهم من فضل الله عز وجل.

الثالث : الذين سيخلون بما يؤتيهم الله من فضله.

وفيه بيان لقانون وهو أن فضل الله عز وجل لا يزول ولا يدفع عن الذين كفروا إن بخلوا به ، إنما يتجدد الخطاب الإلهي الموجه إليهم مع وجود أفراد وأصناف من فضل الله عندهم على نحو دائم ، ففي كل يوم ينعم الله عز وجل على كل إنسان من فضله

وإحسانه وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١).

فمن مصاديق الخلافة من عند الله عز وجل توالي الفضل والنعم منه سبحانه على كل فرد من الناس ، والإستغناء عن غيره ، قال تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(٢).

الرابع : الذين ييخلون بما يؤتيهم الله عز وجل من فضله إذا تخبر آيات القرآن عن توالي فضل الله عز وجل على كل إنسان في الحياة الدنيا .

وجاءت آية البحث لنذب الناس إلى زيادة النعم والفضل عليهم ، وتقدير الآية : لا تبخلوا بما آتاكم الله من فضله كي يزيد في إحسانه عليكم.

وذكرت آية البحث استمرار العطاء من فضل الله عز وجل للناس بصيغة التبعية (من فضله) لبيان قانون وهو أن فضل الله عز وجل غير متناه ، ولا ينقطع عن الناس البر والفاجر .

وعند كل إنسان وفي كل ساعة من حياته فضل من الله عز وجل زائد عن مؤنته وحاجته يستطيع أن يتصدق به ويدل قيد (من فضله) على مجئ النعم للناس من غير استحقاق ، إنما هي فضل من الله عز وجل.

وفيه زيادة في توبيخ الذين كفروا ، فإذا كانت الأموال التي في أيديهم فضلاً ونافلة من الله عز وجل من غير أن تكون جزاء لهم أو بسبب سعي مستحدث منه فلماذا لا ينفقون منه ، وفي قارون

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة الزمر ٣٦.

عندما استكبر فنصحه قومه ، ووعظوه ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾^(١) ، أي أن الله عز وجل يعلم أنني استحق هذا المال ، ولأنه سبحانه يحبني ، ومن معانيه أن قارون كان يعلم الكيمياء أخذ من موسى عليه السلام فصار سبياً لجمعه الأموال .

وتبعث آية البحث الناس على الإنفاق ليتوالى عليهم فضله واحسانه ، وهو من أسرار مجئ الآية بصيغة التبعية (من فضله) لإرادة قرب فضل الله عز وجل من الناس في كل زمان .

لقد أبى الله عز وجل إلا أن يرزق كل فرد من أفراد الخلائق من البشر والإنس والملائكة وغيرهم ، كل جنس بما يلائمه من الرزق ، وقد أنعم على الناس بأن جعلهم ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) ، ورزقهم من الطيبات ، ولا يغادر أي إنسان الدنيا إلا وقد تنعم بفضل الله عز وجل ، وهو من الشواهد على قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ﴾^(٣) ، ويشمل قوله تعالى (من فضله) ، في قوله تعالى ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٤) ، وجوهاً :

الأول : المراد فضل وإحسان الله عز وجل .

الثاني : ما يأتي من الله عز وجل الإنسان زائداً على مؤونته .

الثالث : ما يبقى عند الإنسان بعد إنفاقه على نفسه في الحاجة

والنافلة .

(١) سورة القصص ٧٨ .

(٢) سورة فاطر ٣٩ .

(٣) سورة التكاثر ٨ .

(٤) سورة آل عمران ١٨٠ .

إذ تخبر آية البحث أن البخل المذموم المذكور في الآية متعلق بالفضل والزائد عند ذات البخلاء ، فأخراجه ودفعه للفقراء لا يضرهم في معيشتهم وكسبهم .

فإن قيل إن الله عز وجل هو الذي رزقهم هذا الفضل فلماذا يطوقون به يوم القيامة وكأنه أفعى يأخذ بأنفاسهم ، ويمنعهم من الشهيق والزفير التام ، ويمنع عنهم الرخاء لضيق النفس .

الجواب إنما جعل الله عز وجل المال والرزق الذي يؤتيهم الله عز وجل للإنسان أكثر من حاجته ومؤنته وما ينفقه فعلاً في المباحات وما تشتهيه النفس في غير المحرم ، ليقى عنده فضل وزيادة جاءت الأوامر من عند الله عز وجل بالإتفاق منه في سبيل الله عز وجل كما تعددت النواهي عن حبس الزكاة والصدقات والخمس ، ولكن الذين كفروا دأبوا على جمع الأموال وامتنعوا عن إخراج الحقوق الشرعية حتى إذا ما بعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم حاربه وأصحابه أرباب الأموال فاضطر إلى الهجرة إلى المدينة وجهزوا الجيوش لقتاله بذات الأموال التي بخلوا بها ، ولو أنهم أنفقوها في إعانة الفقراء والمصالح العامة لما كانت موجودة عندهم وسخروها في محاربة النبوة والتنزيل ، ومن منافع آية البحث الحث على الإتفاق في سبيل الله عز وجل .

الرابع : إختتام آية البحث بقانون ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١) ،

لتكون النسبة بين آخر وأول الآية من جهة الموضوع العموم والخصوص المطلق ، فإذا اختص أولها بذكر الذين ييخلون بالحقوق الشرعية وما جعل الله عز وجل للفقراء من نصيب قليل في أموالهم

فقد أختتمت الآية بالإخبار عن إحاطة الله عز وجل علماً بكل ما يفعله الناس.

وبينما إبتدأت آية البحث بصيغة الغائب (الذين يخلون) جاءت خاتمتها بصيغة الخطاب ، وتحتمل وجوهاً :
الأول : المقصود في الخاتمة مخاطبة المسلمين .

الثاني : إرادة الذين ينفقون من أموالهم ولا يخلون بما آتاهم الله عز وجل من فضله .

الثالث : المقصود الناس جميعاً.

والمختار هو الأخير لتضمن خاتمة الآية المدح والذم في آن واحد .

المدح للذين يخرجون من أموالهم الزكاة ، والذم للذين يخلون بما آتاهم الله عز وجل من فضله ، ولا يختص موضوع خاتمة الآية بمسألة الإنفاق وعدمه ، إنما يشمل الأقوال والأفعال ، وأسبابها ومقدماتها ، وأثرها ، وما فيها من النافع أو الأضرار ولبيان مسألة وهي أن الله عز وجل أبى إلا جريان نظام الأكوان والحياة العامة بمشيئته ، وقد أمر الأغنياء بالزكاة والصدقة ، وإذ ما امتنع شطر منهم عن الإنفاق فإن الله عز وجل يعلم هذا الإمتناع قبل وبعد وقوعه ، وقد تفضل وكتب للفقراء والمساكين رزقهم.

وهو سبحانه خبير بالعباد ، فيجعل البخل بالحقوق سبباً للشر والأذى للذين يخلون ، لذا قال سبحانه ﴿بَلْ هُمْ شَرُّهُمْ﴾^(١) ، وإذا كان عمل الإنسان الصالحات ينفع ذريته كما في قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُهُمَا

وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿١١﴾،
 فهل يضر البخل بالحقوق ذرية البخيل من بعده ، ويشملهم ويكون تقدير (بل هو شر لهم) على وجوه محتملة :

الأول : بل هو شر لهم ولذريتهم .

الثاني : بل هو شر لهم دون ذريتهم .

الثالث : بل هو شر لهم في ذريتهم ، كما لو نقص رزق الذرية بسبب بخل الآباء .

والمختار هو الثاني إنما ينحصر الشر بذات البخلاء ، قال تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ﴿٢﴾.

وكما تقدم جاءت الآية بصيغة الفعل المضارع (ييخلون) وفيه مسائل :

الأولى : مصاحبة مضامين الآية وما فيها من الإنذار للأجيال المتعاقبة من الناس ، وتقدير الآية ، الذين ييخلون في زمن النبوة والتابعين وفي كل زمان إلى يوم القيامة .

الثانية : شمول الآية لأفراد الزمان الطولية ، وتقدير الآية على وجوه :

الأول : الذين ييخلون وييخلون .

الثاني : الذين ييخلون وسوف ييخلون .

الثالث : الذين ييخلون والذين سييخلون .

الرابع : اللائي ييخلن واللائي سوف ييخلن .

(١) سورة الكهف ٨٢.

(٢) سورة الأنعام ١٦٤.

الثالثة : جاءت الآية مطلقة من غير تقييد بالمؤمنين أو الكفار فهل تدل على تكليف الكفار بالفروع بلحاظ أن الزكاة من فروع الدين .

الجواب لا ، وإن كان المختار هو تكليفهم بالفروع ، قال تعالى ﴿ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأُولَىٰ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١).

وهل في الآية بشارة السعة في الرزق للمسلمين ، والغنى عما في أيدي البخلاء الجواب نعم ، لبيان قانون وهو أن البخل بالحقوق الشرعية لا يضر إلا أهله.

بحث بلاغي

من مصاديق البلاغة حسن الإبتداء ، وفسر بأنه حسن التأنق في أول الكلام بلحاظ أنه أول ما يطرق الاسماع والقرآن هو الإمام في البلاغة ، وعلوم بلاغته أسمى وأرقى من قواعد البلاغة في اللغة فاذا كان علماء البيان يؤكدون على فنون البلاغة في الإبتداء ، فان الله عز وجل قد تحدى أهل الفصاحة والبلاغة بأن قسّم القرآن إلى (٦٢٣٦) آية.

ليكون لكل آية إبتداء يتصف بالحسن وهو الأحسن إلى يوم القيامة ، إذ تبدأ الآية القرآنية بلفظ عذب جزيل يجذب القلوب قبل الإسماع ، ويفارق الاسماع ولكنه يبقى مستقراً في القلوب.

ومن الإعجاز في المقام ذات الحسن وسبك النظم والوضوح والتجلي الذي يكون في أول الآية وفي وسطها وفي آخرها.

ومن أقسام الإبتداء براعة الإستهلال والذي يتضمن الإشارة إلى موضوع وماهية الكلام وقد يشير إلى ماسبقه من الكلام وبين حسن الإبتداء وبراعة الإستهلال عموم وخصوص مطلق ، فالثاني فرع الأول ومرآة له .

ويأتي حرف العطف في بداية الآية للإشارة إلى الآية السابقة والتي تضمنت تفضل الله عز وجل بالفصل بين المؤمنين والمنافقين ، بين الطيب والخبيث.

وأختتمت بالوعد الكريم من عند الله عز وجل للمؤمنين بالأجر العظيم بشرط التقوى والخشية من الله ، وفيه بشارة للمؤمنين خاصة وهو دعوة عامة للناس للتحلي بالإيمان والتنزه عن الخبث وفعل المعاصي لتبدأ آية البحث بالنفي المقترن بالنهي (ولا يحسن) ليكون من البلاغة في القرآن إختتام آية بالثواب العظيم ، وتعقبها بداية آية بالإنذار والوعيد ، ليتلقى المسلمون هذا التضاد بالتدبر ، وفيه شاهد على إرتقائهم في المعارف الإلهية .

قانون الصدقة حرب على البخل

من الإعجاز في الشريعة الإسلامية التكافل الإجتماعي الذي جاء به القرآن والسنة ومن غير أن يضر بالأغنياء وحركة أموالهم وتجاراتهم ، والتكافل من جهات :

الأولى : وجوب الزكاة في أعيان مخصوصة عند تحقق النصاب في الذهب والفضة ، والأنعام الثلاثة ، والغلات ، وإجماع المسلمين على وجوب الزكاة في الغلات الأربعة من جنس النبات وهي :

الأولى : الحنطة .

الثانية : الشعير .

الثالثة : التمر .

الرابع : الزبيب .

والذي حصر الزكاة بها قال بأنها ذكرت في النص لعينها ، ومنهم من قال بالمعنى الأعم ، وأنها ذكرت لعلها فيها وهي الإقتيات ، فشمّل جميع المقتاتات ، وتجب الزكاة في المدخر منه ، وبه قال مالك والشافعي ، وذهب أبو حنيفة لأوسع منه إذ قال : تجب الزكاة في كل ما تخرجه الأرض عدا الحشيش والخطب والقصب .

الثانية : زكاة الأبدان ، وهي زكاة الفطر ، قال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ

مَنْ تَرَكَى﴾^(١) ، وقد تقدم البحث بأن الله سبحانه حينما أمر المسلمين بالزكاة بقوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٢) ، فإن الأغنياء الذين تجب عليهم الزكاة قد لا يبلغون معشار عموم المسلمين ، فجاء الأمر بوجوب زكاة الفطر على الكبير والصغير ، والذكر والأنثى ، والحر والعبد وهي قليلة جداً إذ تبلغ نحو ثلاثة كيلو غرام من الطعام عن كل فرد ، وتجب مرة واحدة في السنة عند هلال شوال والإفطار من فريضة الصيام ليتحقق الإمتثال العام من المسلمين لقوله تعالى ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾.

الثالثة : الزكاة المستحبة مثل زكاة أناث الخيل ، واختلف في

زكاة الزيتون والعسل ، وقال أبو حنيفة وأحمد في العسل العشر ، وقال مالك والشافعي لا يجب فيه شئ ، وهو المختار.

ولا تجب الزكاة في الخضروات ، وبه قال مالك والشافعي وأحمد ، وقال أبو حنيفة بوجوب الزكاة في الخضروات كلها.

(١) سورة الأعلى ١٤.

(٢) سورة البقرة ٤٣.

وتسمى الزكاة الواجبة الصدقة و(عن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة ، وليس فيما دون خمس أواق من الورق ^(١) صدقة ، وليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة . وفي لفظ لمسلم : ليس في حب ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أوسق.

وأخرج مسلم وابن ماجه والدارقطني عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة ، وليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة ، وليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة.

وأخرج البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارقطني عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : فيما سقت السماء والعيون أو كان عثراً العشر ، وما سقي بالنضح نصف العشر ^(٢).

ومن الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم تعيين الأصناف الذين يستحقون الزكاة وملائمة الآية لكل زمان ،

(١) الورق : الفضة ، والمراد في الحديث المعنى الأعم والمقصود زكاة النقدين الذهب والفضة ، ومن أسماء الذهب العين ، وهو من المشترك اللفظي (للعين في كلام العرب مواضع كثيرة؛ فالعين لكل ذي روح يبصر بها ، والعين : عين الركبة ، والعين : عين الميزان ، والعين : عين الكتابة ، والعين التي تصيب الإنسان ، وفي الحديث : العين حق والعين : عين الماء ، والعين : عين الشمس ، والعين : اسم من أسماء الذهب ، ويقال للفضة الورق ، والعين : النقد والدين النسيئة ، والعين : مطر يجيء ولا يقلع أياماً . والعين : نفس الشيء ، يقال : هذا درهمي بعينه ، والعين من العينة : أخذ بعين وبينة وهو الربا ، والعين : مصدر من عانه إذا أصابه بعين . والعين : موضع ؛ وربما قيل بلا ألف ولام . ورأس عين موضع آخر . والعين : قم القربة والمزادة) / المزهر ١١٦/١ ..

والتقسيم العادل لها وبما يقضي الحوائج ، وفيها منع للخصومة والخلاف أو الإستثثار بمال الزكاة :

الصنف الأول : الفقراء .

الصنف الثاني : المساكين .

الصنف الثالث : العاملون على الزكاة وجمعها واحصائها وتوزيعها .

الصنف الرابع : المؤلفة قلوبهم ، وهم الذين دخلوا الإسلام مع ضعف النية وفتور العزيمة في أداء العبادات ، فتألفهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم باعطائهم من الزكاة لتقوية عزائهم ، واجتناب أذاهم ، ومنهم من قسم المؤلفة الى صنفين :

الأول : مسلمون ، وهم على شعبتين :

الأولى : ضعاف النية ومن لم يزج الشك من نفسه .

الثانية : الرؤساء أصحاب النوايا الحسنة في الإسلام ، ولكن يعطون لتألف عشائهم ، واستدل عليه بعدي بن حاتم الطائي .

الثاني : المشركون ، وهم الذين يهيمون بالإضرار بالمسلمين ،

وهم على شعبتين :

الأولى : الذين يميلون إلى الإسلام ، ولكنهم مترددون في الأمر فيعطون من الزكاة لجذبهم إلى مقامات الإيمان ، واستدل عليه بصفوان بن أمية .

الثانية : الذين يخططون لإيذاء المسلمين ، وينوون تجنيد الرجال للإغارة على المدينة فيتألفهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم دفعاً لأذاهم مثل عامر بن الطفيل .

وعن ابن اسحاق قال : جاء عامر بن الطفيل وأريد^(١) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يجعل لهما نصيباً من تمر

(١) في الأصل زيد ، والمراد أريد خطأ من النساخ.

المدينة فأخذ أسيد بن حضير الرمح فجعل يقرع رءوسهما ويقول:
أخرجوا أيها الهجرسان فقال عامر من أنت فقال أنا أسيد ابن
حضير.

قال حضير الكتاب قال نعم ، قال : كان أبوك خيراً منك.

قال بل أنا خير منك ومن أبي مات أبي وهو كافر^(١).

إذ (قَدِمَ عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ عَدُوَّ اللَّهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُرِيدُ الْغَدْرَ بِهِ وَقَدْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ يَا عَامِرُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ أَسْلَمُوا فَأَسْلَمَ قَالَ وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ آلَيْتُ أَنْ لَا أَنْتَهِيَ حَتَّى تَتَّبِعَ الْعَرَبُ عَقْبِي ، أَفَأَنَا أَتَّبِعُ عَقَبَ هَذَا الْفَتَى مِنْ قُرَيْشٍ ثُمَّ قَالَ لِلْأَرَبِ إِذَا قَدِمْنَا عَلَى الرَّجُلِ فَإِنِّي سَأَشْغَلُ عَنْكَ وَجْهَهُ فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فَاعْلُهُ بِالسَّيْفِ فَلَمَّا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قَالَ عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ : يَا مُحَمَّدُ خَالِنِي ، قَالَ لَا وَاللَّهِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ .

قَالَ يَا مُحَمَّدُ خَالِنِي . وَجَعَلَ يُكَلِّمُهُ وَيَتَنَظَّرُ مِنْ أَرِيدَ مَا كَانَ أَمْرُهُ بِهِ فَجَعَلَ أَرِيدُ لَا يَحِيرُ شَيْئًا ، قَالَ فَلَمَّا رَأَى عَامِرًا مَا يَصْنَعُ أَرِيدُ قَالَ يَا مُحَمَّدُ خَالِنِي قَالَ لَا ، حَتَّى تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

فَلَمَّا أَبَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَمَا وَاللَّهِ لَأَمْلَأَنَّهَا عَلَيْكَ خَيْلًا وَرَجَالًا ،

فَلَمَّا وَلَّى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ اكْفِنِي عَامِرَ بْنَ الطَّفِيلِ .

فَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ عَامِرٌ لِلْأَرَبِ وَيْلَكَ يَا أَرِيدُ أَيْنَ مَا كُنْتُ أَمَرْتُكَ بِهِ ؟ وَاللَّهِ مَا كَانَ

عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ رَجُلٌ هُوَ أَخَوْفَ عِنْدِي عَلَى نَفْسِي مِنْكَ . وَأَيْمُ اللَّهِ لَا أَخَافُكَ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَدًا .

قَالَ لَا أَبَالِكَ لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ وَاللَّهِ مَا هَمَمْتُ بِالَّذِي أَمَرْتَنِي بِهِ مِنْ أَمْرِهِ إِلَّا دَخَلْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ الرَّجُلِ حَتَّى مَا أَرَى غَيْرَكَ ، أَفَأَضْرِبُكَ بِالسَّيْفِ ،

وَخَرَجُوا رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ بَعَثَ اللَّهُ عَلَى عَامِرِ بْنِ الطَّفِيلِ الطَّاعُونَ فِي عُنُقِهِ فَقَتَلَهُ اللَّهُ فِي بَيْتِ امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي سَلُولٍ فَجَعَلَ يَقُولُ يَا بَنِي عَامِرٍ أَغْدَةَ كَغْدَةِ الْإِبِلِ وَمَوْتًا فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَيُقَالُ أَغْدَةَ كَغْدَةِ الْإِبِلِ وَمَوْتًا فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ .

وَذَكَرَ خَبْرَ عَامِرِ بْنِ الطَّفِيلِ وَأَرِيدَ وَأَنْ أَرِيدَ قَالَ لِعَامِرٍ مَا هَمَمْتُ بِقَتْلِ مُحَمَّدٍ إِلَّا رَأَيْتُكَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَفَأَقْتُلُكَ ، وَفِي غَيْرِ رِوَايَةٍ ابْنُ إِسْحَاقَ : إِلَّا رَأَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ سُورًا مِنْ حَدِيدٍ وَكَذَلِكَ فِي رِوَايَةٍ غَيْرِهِ قَالَ عَامِرٌ لَأَمْلَأَنَّهَا عَلَيْكَ خَيْلًا جَرْدًا ، وَرِجَالًا مُرَدًّا ، وَلَأَرْبِطَنَّ بِكُلِّ نَخْلَةٍ فَرَسًا .

فَجَعَلَ أَسِيدُ بْنُ حُضَيْرٍ يَضْرِبُ فِي رُءُوسِهِمَا وَيَقُولُ أَخْرِجَا أَيُّهَا الْهَجْرَسَانِ فَقَالَ لَهُ عَامِرٌ وَمَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ أَسِيدُ بْنُ حُضَيْرٍ فَقَالَ أَحْضِرُ بْنُ سِمَاكٍ .

قَالَ نَعَمْ قَالَ أَبُوكَ كَانَ خَيْرًا مِنْكَ ، فَقَالَ بَلْ أَنَا خَيْرٌ مِنْكَ ، وَمَنْ أَبِي ، لَأَنْ أَبِي كَانَ مُشْرِكًا ، وَأَنْتَ مُشْرِكٌ . وَذَكَرَ سَبِيحُ بْنُ قَوْلِ عَامِرٍ أَغْدَةَ كَغْدَةِ الْبَعِيرِ وَمَوْتًا فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ فِي بَابِ مَا يَتَنَصَّبُ عَلَى إِضْمَارِ الْفِعْلِ الْمَتْرُوكِ إِظْهَارُهُ كَأَنَّهُ قَالَ أَغْدَ غَدَةً وَالسَّلُولِيَّةُ امْرَأَةٌ مَنَسُوبَةٌ إِلَى سَلُولِ بْنِ صَعْصَعَةَ وَهُمْ بَنُو مُرَّةَ بْنِ صَعْصَعَةَ وَسَلُولُ أُمُّهُمْ وَهِيَ بِنْتُ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَ وَكَانَ عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ مِنْ

بَنِي عَامِرِ بْنِ صَغْصَعَةَ فَلِذَلِكَ اخْتَصَّهَا لِقُرْبِ النَّسَبِ بَيْنَهُمَا ، حَتَّى مَاتَ فِي بَيْتِهَا^(١).

ومن المؤلفات قلوبهم :

الأول : من بني هاشم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

الثاني : من بني أمية أبو سفيان بن حرب.

الثالث : من بني مخزوم الحارث بن هشام وعبد الرحمن بن

يربوع.

الرابع : من بني أسد حكيم بن حزام.

الخامس : من بني عامر سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزي.

السادس : من بني جمح صفوان بن أمية.

السابع : من بني سهم عدي بن قيس .

الثامن : من ثقيف العلاء بن حارثة.

التاسع : من بني فزارة عينية بن حصن.

العاشر : من بني تميم الأقرع بن حابس.

الحادي عشر : من بني نصر مالك بن عوف.

الثاني عشر : من بني سليم العباس بن مرداس

الثالث عشر : عبد الرحمن بن يربوع.

وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم كل رجل منهم مائة

ناقة ، مائة ناقة إلا عبد الرحمن بن يربوع ، وحويطب بن عبد

العزي ، فإنه أعطى كل واحد منهما خمسين^(٢).

والمؤلفات قلوبهم أعم من هؤلاء ، و(عن سلمان قال : جاءت

المؤلفات قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : عيينة بن بدر ،

(١) الروض الأنف ٤/٣٤٦ .

(٢) الدر المنثور ٥/١٠٠ .

والأقرع بن حابس ، فقالوا : يا رسول الله ، لو جلست في صدر المجلس وتغييت عن هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون سلمان ، وأبا ذر وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصفوف جالسناك أو حادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله ﴿وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾^(١) ، إلى قوله ﴿أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾^(٢) ، يهددهم بالنار^(٣).

قال قتادة : هم ناس من الأعراب ، وقال ابن عباس : هم قوم قد أسلموا ، كانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم يرضخ لهم من الصدقات ، فإذا أعطاهم من الصدقة فأصابوا منها خيراً قالوا : هذا دين صالح ، فإن كان غير ذلك عابوه وتركوه^(٤).

ومن المؤلفة قلوبهم بعض وجوه العرب ، كانوا يقدمون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ليطلعوا على معجزات نبوته أو ليسألوه في حاجاتهم ، وأمور تخص قومهم ، ويتدبرون في أحوال المسلمين ، وما آلت إليه المدينة المنورة من الإزدهار والعز وصبغة التقوى التي تتغشاها ، فينفق عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى يسلموا أو يرجعوا إلى بلادهم ، مع إضمار عدم محاربة الإسلام .

واختلف هل انقطع سهم المؤلفة قلوبهم ، بعد أن ظهر الإسلام ، أم هو باق ، المختار هو الثاني .

وهل تشمل آية البحث المؤلفة قلوبهم ، الجواب نعم إذا كانت عندهم أموال ببركة بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

(١) سورة الكهف ٢٧.

(٢) سورة الكهف ٢٩.

(٣) الدر المنثور ٦/٣٥٦.

(٤) الكشف والبيان ٦/١٦٢.

فدخلوا فيها لأن الزكاة التي أعطاهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم من الزكاة من مصاديق قوله تعالى في آية البحث ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١)، أي بفضل الله ببركة بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الصف الخامس : ﴿فِي الرِّقَابِ﴾^(٢)، أي فكاك الرقاب ، وعتق العبيد سواء المكاتب أو غيره ، وعن ابن عباس : أنه كان لا يرى بأساً أن يعطي الرجل من زكاته في الحج ، وأن يعتق منها رقبة^(٣).

إن تخصيص سهام من الزكاة الواجبة وفي القرآن لعتق العبيد شاهد على إكرام الإسلام للإنسان ، ونزول القرآن والسنة بالتساوي بين الناس ، والمائز هو الخشية من الله عز وجل ، قال تعالى ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ﴾^(٤).

ولبيان أن البخل بالحقوق الشرعية برزخ دون العتق وتحرير العبيد فيكون هذا البخل إضراراً لصاحبه وللمجتمع فجاءت آية البحث بالتوبيخ والوعيد عليه .

وهل يصح أن يشتري الإنسان من مال زكاته رقبة ليعتقها أم يختص الجواز بعتق المكاتب أو بعض الرقبة ، الجواب هو الأول .

وأخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة وابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : لا تعتق من زكاة مالك فإنه يجر الولاء . قال أبو عبيد : قول

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة التوبة ٦٠.

(٣) الدر المنثور ١٠١/٥.

(٤) سورة الحجرات ١٣.

ابن عباس أعلى ما جاءنا في هذا الباب ، وهو أولى بالاتباع وأعلم بالتأويل^(١).

إذ ورد عن ابن عباس قوله : اعتق من زكاة مالك ، (وعن الإمام الباقر عليه السلام في قول الله عز وجل (في الرقاب) قال : إذا جازت الزكاة خمسمائة درهم اشتري منها العبد واعتق)^(٢).

وقد ورد ذكر العتق والترغيب به في غير آية الصدقات ، قال تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٣).

الصنف السادس : الغارمون ، وهم الذين ركبهم الديون في غير معصية وفساد من الغارم .

وقيدناه بقول (في غير معصية) وليس (من غير معصية) لأن الأخير قيد أعم فلا تعطى الزكاة للغارم إذا كان ارتكب المعصية مدة ركوب الدين له ، وإن كان الدين في غير تلك المعصية.

(١) الدر المنثور ١٠١/٥.

(٢) البحار ٧١/٩٣.

(٣) سورة البقرة ١٧٧.

أما قيدنا (في غير معصية) فتخص السلامة من المعصية بخصوص الدين فيجب أن لا يكون الدين بسبب الخمر أو الربا أو القمار أو اللهو مثلاً.

وهل الميث المدين الذي ليس له تركة يقضى منها دينه من الغارمين ، المختار نعم .

ومن الغارمين من هدم داره ، وهلك ماله ، واستدان في الإنفاق على عياله ، وان كان للدراسة العالية والإختصاص العلمي.

الصنف السابع : إعطاء الزكاة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١) ، وهذا الصنف هو الوحيد بين الأصناف الثمانية هذه الذي لم يذكر فيه جنس البشر ، إنما ذكر الموضوع ، وهو من إعجاز الآية الذاتي والغيري لإفادة المعنى الأعم بخصوص سهم في سبيل الله عز وجل ، فيشمل الدفاع ، وإعانة الحاج خاصة (والحجيج المنقطع بهم)^(٢) ، ومنه أبواب الإعانة على العبادة ونشر العلوم الشرعية ، وعلم التفسير ، وحال الدفاع وبناء الأسوار والجسور والسدود ، وقيل لا تبنى منها الأسوار أو المراكب .

الصنف الثامن : ابن السبيل ، وهو المسافر المجتاز الذي ليس عنده مال يتزود به ويرجع به إلى بلده ، وإن كان غنياً في بلده ، سمي ابن السبيل نسبة الى الطريق لأنه عندما نفدت نفقته صار رهن الطريق .

(١) سورة التوبة ٦٠.

(٢) الكشف ٤٣٨/٢.

ولو كان بالإمكان تحويل نفقة كافية له من ماله في بلد كما في وسائل الإتصال والحوالة السريعة في هذا الزمان فهل يحسب ابن سبيل ، الجواب لا .

وعن كعب قال : كان إبراهيم عليه السلام يقري الضيف ويرحم المسكين وابن السبيل ، فابطأت عليه الأضياف حتى أشرب بذلك ، فخرج إلى الطريق يطلب ، فجلس فمر ملك الموت عليه السلام في صورة رجل ، فسلم عليه فرد عليه السلام ، ثم سأله من أنت ؟ .

قال : أنا ابن السبيل قال : إنما قعدت ههنا لمثلك ، فأخذ بيده فقال له : انطلق . فذهب إلى منزله ، فلما رآه إسحق عرفه فبكى إسحق .

فلما رأت سارة إسحق يبكي بكت لبكائه ، فلما رأى إبراهيم سارة تبكي فبكى لبكائها ، فلما رأى ملك الموت إبراهيم يبكي لبكائه ثم صعد ملك الموت ، فلما ارتقى غضب إبراهيم فقال : بكيتم في وجه ضيفي حتى ذهب فقال إسحق : لا تلمني يا أبت فإنني رأيت ملك الموت معك لا أرى أجلك إلا قد حضر فارث في أهلك أي أوصه ، وكان لإبراهيم بيت يتعبد فيه فإذا خرج أغلقه لا يدخله غيره .

فجاء إبراهيم ففتح بيته الذي يتعبد فيه فإذا هو برجل جالس فقال إبراهيم : من أدخلك ، بإذن من دخلت ؟ قال : بإذن رب البيت . قال : رب البيت أحق به ، ثم تنحى في ناحية البيت فصلى ودعا كما كان يصنع ، وصعد ملك الموت فقبل له : ما رأيت ؟ قال : يا رب جئتك من عند عبدك ليس بعده في الأرض خير . قيل له :

ما رأيت منه؟ قال : ما ترك خلقاً من خلقك إلا قد دعا له بخير في دينه وفي معيشته .

ثم مكث إبراهيم عليه السلام ما شاء الله ، ثم جاء ففتح بابه فإذا هو برجل جالس قال له : من أنت؟ قال : إنما أنا ملك الموت . قال إبراهيم : إن كنت صادقاً فأرني آية أعرف أنك ملك الموت .

قال : اعرض بوجهك يا إبراهيم . قال : ثم أقبل فأراه الصورة التي يقبض بها المؤمنين ، فرأى شيئاً من النور والبهاء لا يعلمه إلا الله ، ثم قال : انظر فأراه الصورة التي يقبض فيها الكفار والفجار ، فرعب إبراهيم عليه السلام رعباً حتى ألصق بطنه بالأرض ، كادت نفس إبراهيم تخرج فقال : أعرف الذين أمرت به فامض له .

فصعد ملك الموت فقيل له : تلتف بإبراهيم ، فاتاه وهو في عنب له وهو في صورة شيخ كبير لم يبق منه شيء ، فلما رآه إبراهيم رحمه فأخذ مكتلاً ثم دخل عنبه فقطف من العنب في مكتله ، ثم جاء فوضعه بين يديه .

فقال : كل . . . فجعل يضع ويريه أنه يأكل ويمجه على لحيته وعلى صدره ، فعجب إبراهيم فقال : ما أبقت السن منك شيئاً كم أتى لك؟ فحسب مدة إبراهيم فقال : امالي كذا وكذا . . . فقال إبراهيم : قد أتى لي هذا إنما انتظر أن أكون مثلك اللهم اقبضني إليك ، فطابت نفس إبراهيم على نفسه وقبض ملك الموت نفسه تلك الحال^(١).

ومن رافة الله عز وجل بالناس ، وإكرامهم كخلفاء في الأرض بأن للمسافر المنقطع عن أهله نصيباً من كل من :
الأولى : الزكاة الواجبة كما في آية الصدقات محل البحث .

الثانية : الصدقة المستحبة ، قال تعالى ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾^(١) ، فذكرت الصدقة ثم الزكاة الواجبة مما يدل على إرادة الصدقة المستحبة في بداية الآية.

الثالثة : النصيب في الخمس (عن أبي العالية في قوله ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢) ، الآية ، قال : كان يجاء بالغنيمة فتوضع ، فيقسمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على خمسة أسهم ، فيعزل سهماً منه ويقسم أربعة أسهم بين الناس يعني لمن شهد الواقعة ثم يضرب بيده في جميع السهم الذي عزله ، فما قبض عليه من شيء جعله للكعبة ، فهو الذي سمى الله تعالى : ويقول^(٣) لا تجعلوا لله نصيباً ، فإن لله الدنيا والآخرة ، ثم يعمد إلى بقية السهم فيقسمه على خمسة أسهم.

سهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وسهم لذي القربى.

وسهم لليتامى.

وسهم للمساكين.

وسهم لابن السبيل .

(١) سورة البقرة ١٧٧.

(٢) سورة الأنفال ٤١.

(٣) سقطت كلمة (ويقول) من الأصل سهواً من النساخ.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾^(١)، قال : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذو قرابته لا يأكلون من الصدقات شيئاً لا يحل لهم ، فللنبي صلى الله عليه وآله وسلم خمس الخمس ، ولذي قرابته خمس الخمس ، ولليتامي مثل ذلك ، وللمساكين مثل ذلك ، ولابن السبيل مثل ذلك^(٢).

وعن أحمد والشافعي أن سهم الله عز وجل ورسوله واحد ويصرف بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مصالح المسلمين .

أما الأنصباء الثلاثة الباقية من الخمس فتصرف لكل من :

الأول : الفقراء من يتامى المسلمين ، ومنهم يتامى أهل البيت .

الثاني : ابن السبيل ، وذهب أبو حنيفة النعمان بن ثابت إلى القول بسقوط سهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقرابته بموته ، ويقسم الخمس على الثلاثة الباقية وهم اليتامى والمساكين وابن السبيل ، ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر وبناء المساجد ، وارتزاق القضاة والجند

ويرى الإمام موارد الحاجة وصرف الزكوات ، ويجوز إعطاء صاحب الزكاة زكاته إلى صنف واحد من الأصناف الثمانية بشرط أن لا يكون من الأصول أي الآباء ولا الفروع أي الأبناء .

ويجوز أن تعطى الزكاة لمن له دار وخادم وعنده نفقة تكفيه لشهرين أو ثلاثة مثلاً.

(١) سورة الأنفال ٤١.

(٢) الدر المنثور ٤/٥٥٤.

بين الصدقة والزكاة

بين الصدقة والزكاة الواجبة والمستحبة عموم وخصوص مطلق ، والأصل في لفظ الصدقة هو العموم ، ويعرف المراد خصوص الزكاة الواجبة بالقرائن والأمارات ، والزكاة عبادة واجبة في أعيان مخصوصة يؤتى بها بقصد القرية إلى الله عز وجل ، وهناك شروط في تنجز وجوبها ، مثل :

الأول : تمام الحول .

الثاني : تحقق النصاب .

الثالث : مقدار الزكاة مخصوص بلحاظ النسبة من مجموع المال مثل العشر أو نصف العشر أي ٥٪ ، أو ربع العشر أي ٢,٥٪ .
الرابع : تعيين الأصناف التي تعطى لها الزكاة ، وهم ثمانية ، كما يأتي بيانه^(١) .

وأما الصدقة وهي التعبد بالإنفاق من المال في الصالحات من غير إيجاب من الكتاب والسنة ولا تجب الصدقة في شئ مخصوص .

قوله تعالى ﴿هُوَ خَيْرٌ أَلَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾

لقد جمعت آية البحث بين الضدين الخير والشر ، إذ يرجو البخل بالحق الشرعي الخير في إمساكهم والإمتناع عنه ، بينما هو في الحقيقة شر وأذى لهم .

وهل الشر ناسخ للخير في المقام ، الجواب لا ، إنما تنفي الآية الخير من الأصل ، بخصوص إمساك الحق الشرعي ولا تنفي الآية الخير مطلقاً عن الذي يمسك الزكاة ، إنما يخص نفيه موضوع الإمساك بالحق الشرعي .

وتدل الآية في مفهومها على أن دفع الزكاة خير وصالح لصاحبها.

قانون الإمهال

الإمهال التأخير والمندوحة ، وهو نوع مفاعلة من أطراف :

الأول : الممهّل ، وهو الذي يمهّل غيره .

الثاني : ذات الإمهال ومدته .

الثالث : موضوع الإمهال .

الرابع : الممهّل ، بالفتح وهو الذي يتلقى الإمهال .

والنسبة بين الإمهال والإنتظار عموم وخصوص مطلق ، فالإمهال أعم لإقتران الإنتظار بما يقع فيه نظر ، وهو محدود زماناً ، أما الإمهال فهو من الكلّي المشكك الذي قد يطول أو يقصر .

ومن مصاديق الربوبية المطلقة لله عز وجل أنه يمهّل كل الخلائق ، وأن امهاله لكل فرد من الإنس والجن لا يقدر عليه إلا هو سبحانه ، وهل الإمهال من مصاديق النعمة في قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١) ، الجواب نعم .

والنسبة بين الحلم والإمهال هو العموم والخصوص المطلق ، فالحلم أعم لما فيه من صيغة الإطلاق ، ويتضمن الإمهال معنى الإرجاء والمندوحة والسعة إلى حين وقد يتعقبه عقاب أو إنتقام ، وقد يستمر ويطول الحلم ويتعلق بأكثر من موضوع ، وليس فيه عقاب ، وورد ثناء الله عز وجل على نفسه في القرآن ، إذ وصف

نفسه في القرآن بأنه حلیم ، وفي التنزيل ، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(١) ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾^(٢) ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾^(٣) .

ولم يرد لفظ (الحليم) معرّفاً بالألف واللام في القرآن إلا مرة واحدة بخصوص خطاب قوم شعيب له ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾^(٤) .

ترى لماذا لم يرد لفظ (الحليم) صفة لله في القرآن بالتعريف بالألف واللام ، لإفادة الإطلاق في حلم الله في الدنيا والآخرة وعلى كل الناس .

ويمكن القول أن الله عز وجل جعل الدنيا دار الإمهال ، فهو سبحانه يمهل عباده ، كما يتراحم الناس فيما بينهم بإمهال بعضهم بعضاً ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾^(٥) .

ومن مصاديق جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار الإمهال ، أنه ليس من حصر لوجوه الإمهال التي يتفضل بها الله عز وجل على الناس ، والله عز وجل هو الحليم في الدنيا والآخرة ، وهو كاشف الكرب عن العباد لا عن استحقاق ، إنما بعلمه ورحمته وحلمه الواسع .

(١) سورة المائدة ١٠١.

(٢) سورة البقرة ٢٦٣.

(٣) سورة النساء ١٢.

(٤) سورة هود ٨٧.

(٥) سورة السجدة ٩.

وعن (عبد الله بن جعفر عن علي أنه قال لقاني رسول الله صلى الله عليه وسلم هؤلاء الكلمات وأمرني إن نزل بي كرب أو شدة أن أقولها لا إله إلا الله الكريم الحليم سبحانه تبارك الله رب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين فكان عبد الله بن جعفر يلقيها الميت وينفث بها على الموعوك ويعلمها المغتربة من بناته)^(١).

والمغتربة التي تتزوج في بلدة أو قرية بعيداً عن أهلها فتكون نائية عنهم ، لا يعلمون بحال الشدة والضراء إذا نزلت بها .

(وقال الشاعر

يَبْكِيكَ نَاءٌ بَعِيدُ الدَّارِ مُغْتَرَبٌ ... يَا لِلْكُهُولِ وَلِلشُّبَّانِ لِلْعَجَبِ)^(٢) .
ويأخذ الله عز وجل مرتكب المعاصي أخذاً لطيفاً ، ليحول دون تماديه فيها ، وقد يستدرجه بإمهال ، قال تعالى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣).

(وفي الحديث أن رجلاً من بني إسرائيل قال يا رب كم أعصيك وأنت لا تعاقبني - قال - فأوحى الله إلى نبي زمانهم أن قل له كم من عقوبة لي عليك وأنت لا تشعر إن جمود عينيك وقساوة قلبك استدراج مني وعقوبة لو علقت)^(٤).

ولله عز وجل في كل ساعة ضروب من الإمهال على العبد ومن وجوه الإمهال العامة :

الأول : بعث الأنبياء وقيامهم بالتبليغ والإنذار .

(١) النسائي / السنن الكبرى ١٦٢/٦.

(٢) الاصول في النحو ٢٥٣/١.

(٣) سورة ن ٤٤.

(٤) تفسير القرطبي ٢١٩/١٨.

الثاني : البشارة والترغيب بالثواب العظيم في الآخرة ، ولم يختص هذا الترغيب بالذين آمنوا ، إنما هو شامل لعامة الناس ، ولكن الذين كفروا حجبا عن أنفسهم هذه النعمة .

الثالث : نزول الكتب السماوية بالإنذار عن المعاصي ، وتجديد الإنذار من الله عز وجل نوع إمهال وتفضل الله عز وجل وأمد بأعمار بعض الأنبياء بين ظهرائي قومهم ليدعوهم إلى الله عز وجل وفيه إمهال للناس .

وقد أمضى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث عشرة سنة من نبوته في مكة يدعو الناس إلى الإيمان ، وينهاهم عن عبادة الأصنام وكانت قوافل المشركين تجوب الصحارى محملة بالبضائع وهو من الإمهال .

الرابع : بعث النفرة في نفس الإنسان من المعصية قبل واثناء وبعد ارتكابها ، وأكثر ما تكون هذه النفرة بعد إنقضاء اللذة ، إذ تحضر في الوجود الذهني الإنذارات التي جاءت في الكتاب والسنة ، ومواطن الحساب وهو من بركات النبوة والتزليل .

الخامس : تجلي بعض الآيات والشواهد التي تحذر الإنسان من فعل السيئة ، سواء من الآيات الكونية أو أسباب التأديب والحياة أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويدل قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ ^(١) على أن الله عز وجل يتفضل على العبد بالحجة والبرهان الذي ينذره من المعصية ، ويدفعه عنها ، نعم هذا البرهان من الكلبي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة

قوة وضعفاً ، وهو عند المؤمن أظهر وأبين وهو من حلم الله عز وجل على العباد واصلاحهم للتقوى .

وحلم الله عز وجل على العباد من فضله تعالى ، وهل منه آية البحث الجواب نعم ، لأنه سبحانه يصدق على الناس بالنعم ، ويعمل فيها حقاً للفقراء والمساكين ولكن الذين كفروا يوجبونه عنهم ، فتنزل آية البحث لتأكيد الإمهال من عند الله عز وجل .

ومن خصائص الأنبياء الإِتصاف بالحلم والصبر ، قال تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾^(١) ، ويصاحب الحلم النبي قبل نبوته ليكون سنخية ملازمة للدعوة إلى الله عز وجل ، قال تعالى ﴿فَبَشِّرْهُ بِبُحْلٍ﴾^(٢) ، وعندما اشتد حصار قريش على بني هاشم في الشعب ، أظهر أبو طالب ومن خلفه قومه الثبات في الدفاع عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به من عند الله عز وجل ، إذ قال أبو طالب قصيدته اللامية ، التي نعتها ابن هشام بأنها من مشهور شعر أبي طالب وقال (هذه قصيدة عظيمة بليغة جدا لا يستطيع يقولها إلا من نسبت إليه، وهي أفحل من المعلقات السبع ! وأبلغ في تأدية المعنى منها جميعها . وقد أوردها الاموي في مغازيه مطولة بزيادات أخر)^(٣).

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ^(٤) لَا وَدَّ فِيهِمْ ... وَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ الْعَرَى وَالْوَسَائِلِ
وَقَدْ صَارَحُونَا^(٥) بِالْعَدَاوَةِ وَالْأَذَى ... وَقَدْ طَاوَعُوا أَمْرَ الْعَدُوِّ الْمَزَائِلِ^(٦)

(١) سورة هود ٧٥ .

(٢) سورة الصافات ١٠١ .

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ٤٩١/١ .

(٤) المراد من القوم كفار قريش .

(٥) أي كاشفونا .

وَقَدْ حَالَفُوا قَوْمًا عَلَيْنَا أَظَنَّةً ... يَعْضُونَ غِيظًا خَلَفْنَا بِالْأَنَامِلِ
صَبَرْتُ لَهُمْ نَفْسِي بِسَمَاءٍ سَمَحَةٍ ... وَأَيُّضَ عَضْبٍ مِنْ تَرَاثِ الْمَقَاوِلِ
وَأَحْضَرْتُ عِنْدَ الْبَيْتِ رَهْطِي وَإِخْوَتِي ... وَأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابِهِ بِالْوَصَائِلِ^(١)
قِيَامًا مَعَ مُسْتَقْبِلِينَ رَتَاجَهُ ... لَدَى حَيْثُ يُقْضَى حَلْفُهُ كُلُّ نَافِلِ
وَحَيْثُ يُنِيخُ الْأَشْعُرُونَ رُكَابَهُمْ ... بِمُقْضَى السَّيُولِ مِنْ إِسَافٍ وَنَائِلِ
مُوسِمَةِ الْأَعْضَادِ أَوْ قَصْرَاتِهَا ... مُخِيسَةً بَيْنَ السَّدِيسِ وَبَازِلِ
تَرَى الْوَدْعَ فِيهَا وَالرَّخَامَ وَزِينَةَ ... بِأَعْنَاقِهَا مَعْقُودَةً كَالْعَثَاكِلِ
أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مِنْ كُلِّ طَاعِنٍ ... عَلَيْنَا بِسُوءٍ أَوْ مُلَحٍّ بِبَاطِلِ
وَمَنْ كَاشِحٍ يَسْعَى لَنَا بِمَعِيَةٍ ... وَمَنْ مُلْحِقٍ فِي الدِّينِ مَا لَمْ نَحَاوِلِ
وَتُورٍ وَمَنْ أَرَسَى ثُبِيرًا مَكَانَهُ ... وَرَاقٍ لِيرْقَى فِي حِرَاءٍ وَنَازِلِ
وَبِالْبَيْتِ حَقَّ الْبَيْتِ مِنْ بَطْنِ مَكَّةَ ... وَبِاللَّهِ إِنْ اللَّهُ لَيْسَ بِغَافِلِ
وَبِالْحَجَرِ الْمُسَوَّدِ إِذَا يَمْسُحُونَهُ ... إِذَا اكْتَفَفُوهُ بِالضَّحَى وَالْأَصَائِلِ
وَمَوْطِئِ إِبْرَاهِيمَ^(٢) فِي الصَّخْرِ رَطْبَةً ... عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلِ
وَأَشْوَاطٍ بَيْنَ الْمُرُوتَيْنِ إِلَى الصِّفَا ... وَمَا فِيهِمَا مِنْ صُورَةٍ وَتَمَائِلِ
وَمَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ رَاكِبٍ ... وَمَنْ كُلِّ ذِي نَذَرٍ وَمَنْ كُلِّ رَاجِلِ
وَبِالْمَشْعَرِ الْأَقْصَى إِذَا عَمَدُوا لَهُ ... إِلَالًا إِلَى مَقْضَى الشَّرَاجِ الْقَوَائِلِ
وَتَوَقَّافِهِمْ فَوْقَ الْجِبَالِ عَشِيَّةً ... يُقِيمُونَ بِالْأَيْدِي صُدُورَ الرُّوَاحِلِ
وَلَيْلَةَ جَمْعٍ وَالْمَنَازِلَ مِنْ مَنَى ... وَهَلْ فَوْقَهَا مِنْ حُرْمَةٍ وَمَنَازِلِ
وَجَمْعٍ إِذَا مَا الْمُقْرِبَاتِ^(٣) أَجْزَنَهُ ... سِرَاعًا كَمَا يَخْرُجْنَ مِنْ وَقْعٍ وَابِلِ
وَبِالْجَمْرَةِ الْكُبْرَى إِذَا صَمَدُوا لَهَا ... يُؤْمُونَ قَذْفًا رَأْسَهَا بِالْجَنَادِلِ
وَكِنْدَةً إِذَا هُمْ بِالْحِصَابِ عَشِيَّةً ... تُجِيزُ بِهِمْ حَجَّاجٌ بِكَرْبَنٍ وَائِلِ

(١) المزابل : اسم فاعل يدل على المفارقة .

(٢) الوصائل : ثياب معلمة يمانية .

(٣) أي موضع قدمه .

(٤) المقربات : الخيل التي قرب مرابطها من البيوت .

حَلِيفَانِ شَدَا عَقْدَ مَا احْتَلَفَا لَهُ ... وَرَدَا عَلَيْهِ عَاطِفَاتِ الْوَسَائِلِ
وَحَطَمَهُمْ سُمُرَ الصَّفَاحِ وَسَرَحَهُ ... وَشَبَّرَهُ وَخَدَ النَّعَامِ الْجَوَافِلِ
فَهَلْ بَعْدَ هَذَا مِنْ مُعَاذٍ لِعَائِدٍ ... وَهَلْ مِنْ مُعِيدٍ يَتَّقِي اللَّهَ عَازِلِ
يُطَاعُ بِنَا الْعَدَى وَوَدَّوْا لَوْ أَنَّا ... تُسَدُّ بِنَا أَبْوَابُ تَرْكِ وَكَابِلِ
كَذَبْتُمْ وَبَيَّتَ اللَّهُ تَتْرُكُ مَكَّةَ ... وَنَظَعْنُ إِلَّا أَمْرَكُمْ فِي بِلَابِلِ^(١)
كَذَبْتُمْ وَبَيَّتَ اللَّهُ نُبْزَى مُحَمَّدًا ... وَلَمَّا نَظَاعْنُ دُونَهُ وَنَنَاضِلِ
وَنَسْلَمُهُ حَتَّى نُصْرِعَ حَوْلَهُ ... وَنَذْهَلْ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَائِلِ^(٢)
وَيَنْهَضُ قَوْمٌ فِي الْحَدِيدِ إِلَيْكُمْ ... نُهَوِّضُ الرُّوَايَا تَحْتَ ذَاتِ الصَّلَاصِلِ
وَحَتَّى تَرَى ذَا الضَّغْنِ^(٣) يَرْكَبُ رَدْعَهُ ... مِنَ الطَّغْنِ فَعَلَ الْأَنْكَبِ الْمُتَحَامِلِ
وَلِنَّا لَعَمْرُ اللَّهِ إِنْ جَدَّ مَا أَرَى ... لَتَلْتَبَسَنَّ أَسْيَافُنَا بِالْأَمَائِلِ
بَكْفِي فَتَى مِثْلَ الشَّهَابِ سَمِيدَعٍ^(٤) ... أَخِي ثَقَّةَ حَامِي الْحَقِيقَةِ بَاسِلِ
شُهُورًا وَأَيَّامًا وَحَوَلًا مُجَرَّمًا ... عَلَيْنَا وَتَأْتِي حِجَّةٌ بَعْدَ قَابِلِ
وَمَا تَرَكْ قَوْمٌ لَّا أَبَا لَكَ ، سَيِّدًا ... يَحُوطُ الذَّمَّارَ غَيْرَ ذَرْبِ مُوَاعِلِ
وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... ثَمَالُ الْيَتَامَى عَصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ^(٥)
يَلُودُ بِهِ الْهَلَّافُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... فَهَمَّ عِنْدَهُ فِي رَحْمَةٍ وَفَوَاصِلِ
لَعَمْرِي لَقَدْ أَجْرَى أَسِيدٌ^(٦) وَبَكَرُهُ ... إِلَى بَغْضَانَا وَجَزَانَا لَأَكُلِ
وَعُثْمَانُ^(٧) لَمْ يَرْبَعْ عَلَيْنَا وَقَفَنُذْ ... وَلَكِنْ أَطَاعَا أَمْرَ تِلْكَ الْقَبَائِلِ

(١) البلابل : الهموم .

(٢) الحلائل جمع حليلة وهي الزوجة .

(٣) الضغن : الحقد والبغض .

(٤) السמידع : السيد .

(٥) وهذا البيت أشهر أبيات القصيدة وأعذبها .

(٦) اسيد : أي اسيد من المعاصي بن أمية ، للتذكير بأن هاشمياً شج عبد شمس وزجره عن الظلم في الحرم .

(٧) أي عثمان بن عبد الله التميمي ، وهو الحجة للبيت .

أطاعاً أياً وابن عبد يغوثهم ... ولم يرقباً فينا مقالة قائل
 كما قد لقينا من سبيع^(١) ونوفل^(٢) ... وكل تولي معرضاً لم يجامل
 فإن يلقياً أو يمكن الله منهما ... نكل لهما صاعاً بصاع المكاييل
 وذاك أبو عمرو أبي غير بغضنا ... ليظعننا في أهل شاء وجامل
 يناجي بنا في كل ممسى ومصبح ... فناج أبا عمرو بنا ثم خاتل
 ويؤلى لنا بالله ما إن يغشنا ... بلى قد نراه جهرة غير حائل
 أضاق عليه بغضنا كل تلمعة ... من الأرض بين أخشب فمجادل
 وسائل أبا الوليد^(٣) ماذا حبوتنا ... بسعيك فينا معرضاً كالمخاتل
 وكنت امرأ ممن يعاش برأيه ... ورحمته فينا ولست بجاهل
 فعتبة^(٤) لا تسمع بنا قول كاشح ... حسود كذوب مبغض ذي دغاول
 ومر أبو سفيان عني معرضاً ... كما مر قيل من عظام المقاول
 يفر إلى نجد وبرد مياهه ... ويزعم أنني لست عنكم بغافل
 ويخبرنا فعل المناصح أنه ... شفيق ويخفي عارمات الدواخل
 أمطعم^(٥) لم أخذلك في يوم نجدة ... ولا معظم عند الأمور الجلائل
 ولا يوم خصم إذا أتوك ألدّة ... أولي جدل من الخصوم المساجل
 أمطعم إن القوم ساموك خطّة ... وإنني متى أوكّل فلست بوائل^(٦)
 جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً ... عقوبة شر عاجلاً غير آجل
 بميزان قسط لا يخس شعيرة ... له شاهد من نفسه غير عائل

(١) سبيع بن خالد بن فهد .

(٢) نوفل بن خويلد بن أسد ، من شياطين قريش قتله الإمام علي عليه السلام يوم بدر .

(٣) أي الوليد بن المغيرة ، وكان يكنى أبا الوليد .

(٤) أي عتبة بن ربيعة .

(٥) أي مطعم بن عدي .

(٦) الوائل : الناجي .

لَقَدْ سَفَهْتَ أَحْلَامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا ... بَنِي خَلَفَ قَيْضًا بَنًا وَالْغِيَا طَلِ
وَنَحْنُ الصَّمِيمُ مِنْ ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ ... وَآلُ قُصَيٍّ فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ
وَسَهْمٍ وَمَخْزُومٍ تَمَالَوْا وَالْبُؤَا ... عَلَيْنَا الْعَدَا مِنْ كُلِّ طَمَلٍ ^(١) وَخَامِلٍ
فَعَبْدُ مَنَافٍ أَنْتُمْ خَيْرُ قَوْمِكُمْ ... فَلَا تُشْرِكُوا فِي أَمْرِكُمْ كُلِّ وَاعِلٍ
لَعَمْرِي لَقَدْ وَهَنْتُمْ وَعَجَزْتُمْ ... وَجِئْتُمْ بِأَمْرِ مَخْطِئٍ لِلْمَفَاصِلِ
وَكُنْتُمْ حَدِيثًا حَطَبٍ قَدَرٍ وَأَنْتُمْ ... الْآنَ حَطَابٌ أَقْدَرُ وَمَرَا جِلِ
لِيَهْنِئَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ عَقُوقَنَا ... وَخَذَلَانَنَا وَتَرْكُنَا فِي الْمَعَاقِلِ
فَإِنَّ نَكَ قَوْمًا نَتَّبِرُ مَا صَنَعْتُمْ ... وَتَحْتَلِبُوهَا لِقَحَّةً غَيْرَ بَاهِلِ
وَسَائِطُ ^(٢) كَانَتْ فِي لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ ... نَفَاهُمْ إِلَيْنَا كُلِّ صَقِيرٍ حُلَا حِلِ
وَرَهْطُ نَفِيلٍ شَرٍّ مِنْ وَطْئِ الْحَصَى ... وَالْأَلَمُ حَافٍ مِنْ مَعَدٍ وَنَاعِلِ
فَأَبْلَغَ قُصِيًّا أَنْ سَيَنْشُرُ أَمْرُنَا ... وَبَشَرُ قُصِيًّا بَعْدَنَا بِالتَّخَاذُلِ
وَلَوْ طَرَقَتْ لَيْلًا قُصِيًّا عَظِيمَةً ... إِذَا مَا لَجَأْنَا دُونَهُمْ فِي الْمَدَاخِلِ
وَلَوْ صَدَقُوا ضَرْبًا خِلَالِ بَيُوتِهِمْ ... لَكُنَّا أَسَى عِنْدَ النِّسَاءِ الْمَطَافِلِ
فَكُلُّ صَدِيقٍ وَابْنٍ أَخْتٍ نَعْدُهُ ... لَعَمْرِي وَجَدْنَا غَبَهُ غَيْرَ طَائِلِ
سَوَى أَنْ رَهْطًا مِنْ كَلَابِ بْنِ مُرَّةٍ ... بَرَاءً إِلَيْنَا مِنْ مَعَقَةٍ خَاذِلِ
وَهَنَا لَهُمْ حَتَّى تَبْدُدَ جَمْعَهُمْ ... وَيَحْسِرَ عَنَّا كُلُّ بَاغٍ وَجَاهِلِ
وَكَانَ لَنَا حَوْضُ السَّقَايَةِ فِيهِمْ ... وَنَحْنُ الْكُدَى مِنْ غَالِبٍ وَالْكَوَاهِلِ
شَبَابٍ مِنَ الْمُطَيِّبِينَ وَهَاشِمٍ ... كَبِيضُ السِّيَوفِ بَيْنَ أَيْدِي الصِّيَاقِلِ
فَمَا أَدْرَكُوا ذَحَلًا وَلَا سَفَكُوا دَمًا ... وَلَا حَالَفُوا إِلَّا شَرَارَ الْقَبَائِلِ
بِضَرْبِ تَرِي الْفَتَيَانِ فِيهِ كَانَهُمْ ... ضَوَارِي أَسُودٍ فَوْقَ لَحْمِ خِرَادِلِ ^(٣)
بَنِي أُمَةٍ مَحْبُوبَةٍ هَنْدَكِيَّةٍ ... بَنِي جَمَحٍ عُبَيْدِ قَيْسِ بْنِ عَاقِلِ
وَلَكِنَّا نُسَلُّ كِرَامَ لِسَادَةٍ ... بِهِمْ نَعِي الْأَقْوَامَ عِنْدَ الْبَوَاطِلِ

(١) الطمل : الرجل الفاحش البذئ .

(٢) وفي رواية وشائظ جمع وشيظة وهو الذي تعلق بالقوم وليس منهم .

(٣) أي قطع صغاراً .

وَنَعِمَ ابْنُ أُخْتِ الْقَوْمِ غَيْرِ مُكَذَّبٍ ... زَهِيرٌ حُسَامًا مَفْرَدًا مِنْ حِمَائِلِ
 أَشْمٍ مِنَ الشَّمِّ الْبَهَائِلِ يَتَمَيُّ ... إِلَى حَسْبٍ فِي حَوْمَةِ الْمَجْدِ فَاضِلِ
 لَعْمَرِي لَقَدْ كَلَفْتُ وَجَدًا بِأَحْمَدَ ... وَإِخْوَتَهُ دَابَّ الْمَحَبِّ الْمَوَاصِلِ
 فَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا جَمَالًا لِأَهْلِهَا ... وَزَيْنًا لِمَنْ وَالَاهُ رَبُّ الْمَشَاكِلِ
 فَمَنْ مِثْلُهُ فِي النَّاسِ أَيُّ مُؤْمِلٍ ... إِذَا قَاسَهُ الْحُكَّامُ عِنْدَ التَّفَاضِلِ
 حَلِيمٌ رَشِيدٌ عَادِلٌ غَيْرُ طَائِشٍ ... يُوَالِي إِلَّاهَا لَيْسَ عَنْهُ بَغَائِلِ
 فَوَاللَّهِ لَوْ لَا أَنْ أَجِيءَ بِسَنَةٍ ... تَجْرُ عَلَى أَشْيَاخِنَا فِي الْمَحَافِلِ
 لَكُنَّا اتَّبَعْنَاهُ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ ... مِنْ الدَّهْرِ جَدًّا غَيْرَ قَوْلِ التَّهَازِلِ
 لَقَدْ عَلِمُوا أَنْ ابْتَنَّا لَنَا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يَغْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ
 فَأَصْبَحَ فِينَا أَحْمَدٌ فِي أَرْوَمَةٍ ... تُقْصِرُ عَنْهُ سُورَةُ الْمُتَطَاوِلِ
 حَدَبَتْ بِنَفْسِي دُونَهُ وَحَمِيَّتُهُ ... وَدَافَعَتْ عَنْهُ بِالذَّرَا وَالْكَلَاكِلِ
 فَأَيَّدَهُ رَبُّ الْعِبَادِ بِنَصْرِهِ ... وَأَظْهَرَ دِينًا حَقَّهُ غَيْرُ بَاطِلِ
 رَجَالٍ كَرَامٍ غَيْرِ مِيلٍ نَمَاهُمْ ... إِلَى الْخَيْرِ آبَاءَ كَرَامِ الْمَحَاصِلِ
 فَإِنْ تَكُ كَعْبٌ مِنْ لُؤْيٍ صَقِيَّةٍ ... فَلَا بَدْ يَوْمًا مَرَّةً مِنْ تَزَايِلِ^(١).

قوله تعالى ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

من خصائص القرآن صيغة البيان التي تتجلى في كل آية من آياته قال تعالى ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢)، وتضمن القرآن قصص الأنبياء والأمم السابقة بما فيه العبرة والموعظة للناس جميعاً، ومن باب الأولوية مجئ الوقائع التي يخبر منها القرآن بلغة البيان والوضوح، ومنها قوله تعالى ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ إذ يكون المال الذي ييخل به الإنسان طوقاً على رقبته وليس هو قلادة.

(١) سيرة ابن هشام ٢٧٨/١.

(٢) سورة آل عمران ١٣٨.

وجاءت الآية بصيغة الجمع ، ويحتمل تقدير الآية وجوهاً :

الأول : ولا يحسب الذي ييخل بما آتاه الله عز وجل من فضله وخير له بل هو شر له سيطوقون ما بخل به يوم القيامة .

الثاني : ولا يحسب الذي ييخل بما آتاه الله عز وجل من فضله هو خير لأولاده وذريته .

الثالث : ولا يحسب الذين ييخلون بما آتاهم الله عز وجل من فضله مجتمعين أي يأتهم الفضل كجماعة وهيئة ونحوها فيحجبون الحقوق عن أهلها .

وذكرت آية البحث قانوناً من الإرادة التكوينية وهو تطبيق البخلاء بالحقوق في أعناقهم ما بخلوا به ، ويحتمل هذا التطبيق وجوهاً :

الأول : إرادة شدة العذاب وصيرورة البخل بالحقوق وبالاً ووزراً على أهله وملازماً لهم كالطوق ، فلا يستطيعون إنكاره .

الثاني : بيان مسألة وهي معرفة أهل المحشر لحقيقة هذا الوزر والثقل إذ يصاحب المشركين ما بخلوا به فيعرفون به بين الخلائق .

الثالث : صيرورة المال الذي بخل به قيد حول العنق وليس في اليد (عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع يفر منه وهو يتبعه فيقول : أنا كنزك حتى يطوق في عنقه . ثم قرأ علينا النبي صلى الله عليه وسلم مصداقه من كتاب الله { ولا يحسن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله . . . } (١) (٢) .

و(في تفصيل أسماء الحيات وأوصافها عن الأئمة الحباب والشيطان الحية الخبيثة الحنش ما يصاد من الحيات، والحيوت الذكر

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) الدر المنثور ٤/٣.

منها ، الحفّاث والحضب الضخم منها. وذكر حمزة بن علي الأصبهاني أن الحفّاث ضخم مثل الأسود أو أعظم منه، وربما كان أربع أذرع، وهو أقلّ الحيات أذى وسنانير أهل هجر في دورهم الحفّاث، وهو يصطاد الجرذان والحشرات وما أشبهها.

الأسود العظيم من الحيات وفيه سواد قال حمزة: الأسود هو الداهية، وله خصيتان كخصيتي الجدي وشعر أسود وعرف طويل، وبه صنان كصنان التيس المرسل في المعزى. وقال غيره: الشجاع أسود أملس يضرب إلى البياض خيث، قال شمر: هو دقيق لطيف.

وقال أبو زيد: الأعيرج حية صماء لا تقبل الرقى وتطفر كما تطفر الأفعى.

وقال أبو عبيدة: الأعيرج حية أريقط نحو ذراع، وهو أخبث من الأسود. وقال ابن الأعرابي: الأعيرج أخبث الحيات يقفز على الفارس حتى يصير معه في سرجه قال الليث عن الخليل: الأفعى التي لا تنفع معها رقية ولا ترياق وهي رقشاء دقيقة العنق عريضة الرأس. وقال غيره: هي التي إذا مشت متشبة جرشت بعض أنيابها ببعض، وقال آخر: هي التي لها رأس عريض ولها قرنان والأفعوان الذكر من الأفاعي العربد والعسود حية تنفخ ولا تؤذي الأرقم الذي فيه سواد وبياض.

والأرقش نحوه ذو الطفتين الذي له خطان أسودان الأبر القصير الذنب الخشاش الحية الخفيفة الثعبان العظيم منها وكذلك الأيم والأين قال أبو عبيدة: الحية العاضه، والعاضه التي تقتل إذا نهشت من ساعتها والصل نحوها أو مثلها وقال غيره: الحارية التي قد صغرت من الكبر، وهي أخبث ما يكون، ويقال: هي التي حرى جسمها أي نقص لأن وعاء سمها يمتص لحمها ابن قنبر حية شبه

القضيب من الفضة في قدر الشبر والفتر، وهو من أخبث الحيات، وإذا قرب من الإنسان نزا في الهواء فوقه عليه من فوق ابن طبق حية صفراء تخرج بين السلحفاة والهرهر، وهو أسود صالح. ومن طبعه أنه ينام ستة أيام ثم يستيقظ في السابع فلا ينفخ على شيء إلا أهلكه قبل أن يتحرك، وربما مر به الرجل وهونائم فيأخذه كأنه سوار ذهب ملقى في الطريق، وربما استيقظ في كف الرجل فيخر الرجل ميتاً.

وفي أمثال العرب: أصابته إحدى بنات طبق، للدهاية العظيمة قال الليث: السف الحية التي تطير في الهواء وأنشد من الطويل:

وحتى لو أن السف ذا الريش عضني ... لما ضرني من فيه ناب ولا ثعر
النضناض هي التي لا تسكن في مكان، ومن أسمائها القزة والهلال والمزعامة، عن ثعلب عن ابن الأعرابي^(١).

ذكرت آية البحث الخير الشر بخصوص الذين يخلون فنفت عنهم الأول وأثبتت الثاني، لبيان أن البخل بفضل الله عز وجل من المنكرات وهو خلاف الفطرة الإنسانية.

وذكرت الآية أمرين مترشحين عن البخل بفضل الله عز وجل.

الأول : هذا البخل شر لأهله .

الثاني : سيطوقون بهذا البخل .

وهل الشر هو نفسه التطويق المذكور في الآية بقوله تعالى ﴿بَلْهُوَ

شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ﴾^(٢)، ويحتمل العطف بين الشر والتطويق وجوهاً :

(١) الدر المنثور ٤/٣.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠.

الأول : إنه من عطف البيان الذي هو كالنعت في الإيضاح أو للمدح والثناء واستدل على عطف البيان بقوله تعالى ﴿الْكُتُبَةُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾^(١) .

والمختار أنه من عطف العام على الخاص مع إتحاد الموضوع والقدسية واستدل عليه بقوله تعالى : ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) .

الثاني : إنه من عطف المترادفين ، كما في قوله تعالى ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾^(٣) ، فإن الشر الذي يجلبه الذين كفروا على أنفسهم بالبخل بفضل الله عز وجل عام في الدنيا والآخرة ، أما التطويق به فهو في يوم القيامة .

الرابع : إنه من عطف الأخروي على الدنيوي ، وهذا الإصطلاح للعطف تأسيس في هذا الجزء وقد يفتح أبواباً من علم التفسير .

الخامس : إنه من عطف الأخروي على العام الدنيوي والآخروي .

السادس : إنه من عطف الآجل على العاجل .
ولا تعارض بين الوجوه أعلاه وكلها من مصاديق آية البحث ، وتعدد معاني اجتماع كل كلمتين في القرآن .

(١) سورة المائدة ٩٧ .

(٢) سورة آل عمران ٩٧ .

(٣) سورة البقرة ٢٣٨ .

تنبيه وإنذار الناس من عالم الحساب يوم القيامة ، وكشف حقيقة وهي أن الموت أمر وجودي وهو نوع مقدمة وطريق لعالم الحساب والجزاء .

وحينما سأل الملائكة على جعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) ، سألوا استفهاماً واستعلاماً عن الخلافة وما بعدها وهل يترك الذين يحددون بالخلافة بالإنسان في الأرض وشأنهم ، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٢) ، فأجابهم الله عز وجل ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

فمن علم الله عز وجل نزول الكتب السماوية للإنذار من الفساد وقوف الناس للحساب يوم القيامة ، ونزول الجزاء بالثواب العظيم للذين ينفقون من أموالهم في سبيل الله ، والعقاب الأليم للذين ييخلون بها .
وهل البخل المذكور في آية البحث من الفساد الذي ذكرت الملائكة فيه وجوه :

الأول : أنه فساد وتعطيل لأسباب الصلاح في المجتمع .

الثاني : صحيح أن البخل في المقام أمر وجودي لأنه إمساك للحقوق إلا إنه خاص بصاحبه ، ويتحمل وزره .

الثالث : التفصيل فمن البخل ما يكون خساراً ، ومنه ما ليس بفساد والصحيح هو الأول فالبخل فساد وضرر بالذات والغير ،
(عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) سورة البقرة ٣٠ .

قال : لا ضرر ولا ضرار ، من ضار ضاره الله ، ومن شاق (١)
شاق الله عليه (١).

وفي البخل الذي تذكره آية البحث حجب لحقوق الفقراء ،
وتعطيل لمصالح ومنافع عامة .

ومن الإعجاز أن في الزكاة والخمس سهماً في سبيل الله عز
وجل ، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا
وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ
فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) ، وقال تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ
مِن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ
الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣) ،
ليكون من وجوه تقدير الآية على وجوه :

الأول : الذين ييخلون فيفسدون في الأرض .

الثاني : الذين ييخلون حباً للمال ولاكتنازه .

الثالث : الذين ييخلون فيؤذي بخلمهم الفقراء وعامة الناس .

وتخصيص عقاب أخروي للذين ييخلون بما آتاهم الله عز وجل
من فضله بتطويق أعناقهم بالأفاعي دليل على قانون وهو :
إختصاص كل معصية من الكفار بعقاب خاص في الآخرة ، قال

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٤٥٤/٥ .

(٢) سورة التوبة ٦٠ .

(٣) سورة الأنفال ٤١ .

تعالى في منع الزكاة ﴿وَالَّذِينَ يَكْمِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

ويؤخذ من مانع الزكاة الواجب فقط ، وادعي الإجماع على أخذها من مانعها قهراً ، ومنهم من قال تؤخذ منه الزكاة ويعزر بأخذ شطر ماله ، ونسب هذا القول إلى الحنابلة والأوزاعي ، واستدل عليه بما رواه بهز بن حكيم عن أبيه عن جده (قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يقول : في كل إبل سائمة^(٢) في كل أربعين ابن لبون لا يفرق إبل عن حسابها ، من أعطاها مؤتجراً^(٣) فله أجرها ، ومن منعها فإننا آخذوها ، وشرط^(٤) إبله عزمة^(٥) من عزمات ربنا ، لا تحل لآل محمد منها شيء)^(٦).

والمختار هو الأول لدلالة السنة النبوية العملية على عدم أخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم الزائد على الزكاة ولم يقل به الصحابة ، فلا يرقى خبر الواحد إلى معارضة السنة النبوية الفعلية في مسألة عامة البلوى ، فلو كان لبان إنما جاءت آية البحث بالذم والوعيد للذين يسكون بالحقوق الشرعية ، ولتنفذ إلى شغاف القلوب ، وتجعل صاحب المال يتفكر في حاله ولزوم مبادرته للإنفاق .

(١) سورة التوبة ٣٤.

(٢) السائمة : الأنعام التي ترعى في البراري ولا تعلق من قبل أصحابها ولا يشترى لها العلف .

(٣) مؤتجراً : أي له أجرها .

(٤) الشطر : النصف أو الجزء الكثير .

(٥) العزومة : الحق من الحقوق في مقابل الرخصة .

(٦) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٤٨٠/٣ .

ولم تقل الآية : سيطوقون بما بخلوا به ، وقيل أصل يطوقونه (يتطوقونه) (فقلبت التاء طاء وادغمت في الطاء)^(١).

والشجاع : الذكر من الحياة .

كما ودت عقوبة التطويق يوم القيامة بالنسبة للذي يتعدى على أرض جاره .

وعن سعيد بن زيد (أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: من سرق شبرا من الأرض طوقه من سبع أرضين)^(٢).

بأن يكون الذي غصبه طوقاً في عنقه ، وقيل معنى يطوق أي يكلف بأن يكلف حمله يوم القيامة ، وفي التنزيل ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

وفي المثل : شب عمرو عن الطوق^(٤).

يضرب للذي يأتي بغير المناسب والملائم له ، كالشيخ يتصابى.

قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

لقد نزلت آية البحث بدم الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله ، ليتعقب هذا الذم البيان والحجة على الذين يحجبون الحقوق الشرعية ، بالإخبار بأن الأموال كلها تعود ميراثاً لله عز وجل ، ويدرك الناس جميعاً وفي كل زمان بأن الإنسان لا يأخذ من الدنيا إلا الكفن ، ولا يصاحبه إلا عمله .

(١) المحكم والمحيط الأعظم ٩١/٢.

(٢) الأحاد والمثاني ٢٣١/١.

(٣) سورة البقرة ١٨٤.

(٤) جمهرة اللغة ١٩/٢.

ومن معاني الآية أمور :

الأول : مغادرة الناس جميعاً الأرض ليبقى ملكاً لله عز وجل.

الثاني : موت الملائكة قبل البعث (عن أنس قال : قال رسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يُنْظَرُونَ﴾^(١) قالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين استثنى الله؟ قال جبريل ، وميكائيل ، وملك الموت ، واسرافيل ، وحملة العرش .

فإذا قبض الله أرواح الخلائق قال لملك الموت : من بقي؟ وهو أعلم فيقول : رب سبحانك ، رب تعاليت ذا الجلال والاكرام بقي جبريل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وملك الموت . فيقول : خذ نفس ميكائيل . فيقع كالطود العظيم .

فيقول : يا ملك الموت من بقي؟

فيقول سبحانك رب . . ! ذا الجلال والاكرام بقي جبريل وملك الموت . فيقول مت يا ملك الموت ، فيموت فيقول يا جبريل من بقي فيقول : سبحانك ، يا ذا الجلال والاكرام بقي جبريل وهو من الله بالمكان الذي هو به .

فيقول : يا جبريل ما بد من موتك . فيقع ساجداً يخفق بجناحيه يقول : سبحانك رب ، تباركت وتعاليت ذا الجلال والاكرام ، أنت الباقي وجبريل الميت الفاني ، يأخذ روحه في الخفقة التي يخفق فيها ، فيقع على حيز من فضل خلقه على خلق ميكائيل كفضل الطود العظيم^(٢) .

(١) سورة الزمر ٦٨ .

(٢) فقه اللغة ٣٦/١ .

الثالث : عجز الناس وإن اجتمعوا على الإستحواذ الدائم على شئ من الأرض أو من السماء .

لقد تحدى قوله تعالى ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(١) وكذا فإن آية البحث تتحدى الإنس والجن بأنهم يعجزون عن توارث جزء من الأرض وما عليها والسماء وما فيها .

الرابع : بيان قانون وهو عجز الخلائق عن التغيير والتبديل في الأرض أو في السماء ، وهل في الآية تحد للملائكة وأنهم يعجزون عن الميراث في السماء .

الجواب يسلم الملائكة بأنهم لا يرثون شيئاً من السماء والأرض ، وليس عندهم تملك أو خصلة الطمع ، وقد جعلهم الله عز وجل في غنى عن الملك ، فليس في الآية تحد لهم .

الميراث هو التركة والباقي ، ولا أثر أو استصحاب قهقري له ، ولكن ميراث الله للسموات والأرض أمر مختلف ، فله أثر ونفع عظيم قبل أن يكون ميراثاً ، فالميراث من الناس يتقوم باطراف :

الأول : المورث .

الثاني : الإرث .

الثالث : الوارث .

أما بالنسبة لميراث السموات والأرض فانه فرع ملك الله عز وجل للسموات والأرض ، فالوارث هو المالك ، وهذا من الفوارق بين الخالق والمخلوق ، فالله عز وجل هو المالك وهو يرث الملك ، لبيان عظيم سلطانه ، وما يملك الناس في الدنيا من الأموال والعقارات والبساتين والأعيان يتوارثونه فيما بينهم ، ولا

يصدق عليه أنه ميراث إلا بموت صاحبه ، فقد يحزره ويمتلكه الإنسان ابتداء ثم يصبح ميراثاً بعد وفاته ، وقد يرثه من آبائه أو أخوته فيصدق عليه أنه وارث ثم لا يلبث أن يموت ويترك وراءه ملكه فيصدق عليه أنه مورث وقد يموت الوارث قبل قسمة التركة ، قال تعالى ﴿وَلَكُمْ الْيَوْمَ نُذْأُولُهَا بِنِسِ النَّاسِ﴾^(١).

وتبين الآية أن التوارث بين الناس منقطع وليس هو من اللامتناهي فقد يفتن الإنسان بالدنيا والمعاملات فيها ، ويرى أن الوارث يصبح مورثاً ، وفي الفقه مسألة وهي لا بد للمال من مالك فحالما يموت الإنسان يصدق على ماله أنه تركه وميراث وينتقل إلى ملك ورثته في الحال وإن تأخرت القسمة مع موضوعية الدين الذي في ذمة المالك سواء كان ديناً شرعياً لله أو ديناً للناس ، والوصية إن كان قد أوصى في حياته إذ أن الوصية مستحبة ، وقال تعالى ﴿فَنَسِ خَافٍ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

ولابد من إنقطاع التوارث بين الناس وزوال تملكهم وملكهم ، قال تعالى ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾^(٣).

ومع أن السموات والأرض ملك وميراث لله وحده سبحانه فقد ورد لفظ (ولله) باضافة حرف العطف الواو سبعاً وعشرين مرة فقط ، منها قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ

(١) سورة آل عمران ١٤٠.

(٢) سورة البقرة ١٨٢.

(٣) سورة الأنبياء ١٠٤.

سَيِّدًا^(١)، ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٢)، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣)، وفيه دعوة للإجتهاد بطلب الرزق واستدامة صحة البدن.

وميراث الله عز وجل السموات والأرض أمر مختلف عن أمور أهل الدنيا ، فالله عز وجل هو المالك وهو الوارث ، ولكن الآية جاءت لبيان قانون وهو أن ما في أيدي الناس وما يتوارثونه يعود إلى الله عز وجل على نحو الحتم والقطع .

وهل في الآية دلالة على انتقال الإنسان إلى بعض الكواكب وتملكه فيها كما تظهر مقدماته في إطلاق المركبات الفضائية إلى الكواكب الأخرى .

الجواب نعم ، وحتى في هذا الزمان هناك ملك للأجواء واستيفاء أجور العبور عليها عند الطيران ، وحتى بالنسبة للأفراد فإن الذي يملك قطعة أرض ودار يملك فضاءها إلا مع القرينة على الخلاف.

قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

من أسباب إنقياد وخضوع الناس لله عز وجل وإقرارهم بربوبيته المطلقة أنه عالم بكل شئ لا يخفى عليه قول أو فعل ، ويعلم ما تضره القلوب ، وما تنطوي عليه السرائر .

وهل تبعث الآية على التحصيل والعلم واكتساب المهارات ، إذ ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال (أوحى الله إلى إبراهيم ، يا إبراهيم ، إني عليم أحب كل عليم " أنه بعض

(١) سورة آل عمران ٩٧.

(٢) سورة الأعراف ١٨٠.

(٣) سورة النحل ٧٧.

الحكماء : ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم ، وأي شيء فات من أدرك العلم ، وعن الأحنف : كاد العلماء يكونون أرباباً ، وكل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل ما يصير^(١).

وقد جاءت الآية لبيان صفات الله عز وجل ، ولزوم الثناء عليه والخشية منه ، فمن خصائص ذكر اسماء الله عز وجل الحسنى في القرآن تنمية ملكة التقوى عند المسلمين ، والتنزه عن البخل والشح بالحقوق .

وتحتمل قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٢) وجوهاً :

الأول : إرادة الوعد للمؤمنين بدليل لغة الخطاب فيها .

الثاني : التخويف والوعيد للمنافقين والكفار .

الثالث : العنوان الجامع من الوعد والوعيد .

والصحيح هو الثالث أعلاه فالآية ثناء ووعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذم وتوبيخ ووعد للمنافقين والذين كفروا .

ويحتمل متعلق خاتمة آية البحث وجوهاً :

الأول : إرادة مضامين آية البحث بالذات .

الثاني : إرادة شطر من الآية السابقة لآية البحث بالإضافة إلى

آية البحث .

الثالث : المقصود مضامين ذات آية البحث والآية السابقة .

الرابع : خاتمة آية البحث قانون قرآني عام .

والصحيح هو الأخير ، خاصة وأن آية البحث جاءت في ذم الذين يمتنعون عن دفع الحقوق الشرعية بينما أختتمت الآية بصيغة الخطاب ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١) وتحتمل وجوهاً :

(١) الكشف ١٥/٧.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠.

الأول : توجه الخطاب في الآية إلى خصوص المؤمنين .

الثاني : المقصود عموم المسلمين والمسلمات .

الثالث : إرادة الناس جميعاً .

والصحيح هو الأخير ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً وقد تكرر هذا اللفظ في آيات متعددة منها قوله تعالى ﴿ وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾^(١) وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾^(٢).

والخبير لغة على وزن فاعيل ، وتدل هذه الصيغة على المبالغة ، والخبير من الخبرة وهي العلم مع الإستقراء والإحاطة بالتفاصيل والنتائج .

وورد الخبير في الآية اسماً لله وعلى نحو الإستقلال ، وقد ورد مقترناً بالاسم اللطيف ، في قوله تعالى ﴿ لَا تَذْكُرُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾^(٣) كما ورد مقترناً مع العليم كما في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا تَبَايَاهُ بِهِ قَالَتْ مَنَ أُنْبَاكَ هَذَا قَالَ تَبَايَاهُ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾^(٤).

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة النساء ١٢٨.

(٣) سورة لقمان ٢٩.

(٤) سورة الأنعام ١٠٣.

(٥) سورة التحريم ٣.

وورد اسم الخبير لله عز وجل في أحاديث متعددة من السنة النبوية (عن أبي سعيد ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إني أوشك أن أدعا فأجيب ، وإني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله جبل محدود بين السماء والأرض ، وعترتي أهل بيتي ، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، فانظروا بهم تخلفوني فيهما) ^(١).

ومن الأمثلة الشائعة على الخبير سقطت لإرادة أن السؤال أو المسألة جاءت للذي عنده علم وخبرة في موضوعها ، ويقال الرجل والمرأة .

(عن أبي هريرة قال : تذاكروا في حلقة أنا فيها ما يوجب الغسل ، فقال بعضهم : إذا خالط الرجل . وقال بعضهم : حتى ينزل الماء .

قال : فقلت : أنا آتيكم بعلم ذلك ، فأتيت عائشة أم المؤمنين فقلت لها : يا أم المؤمنين إني أريد أن أسألك عن شيء ، وأنا أستحي أن أسألك عنه ، فقالت : لا تستحي أن تسألني عما كنت سائلا عنه أمك ، فإنما أنا أمك . فقلت : يا أمه ما يوجب الغسل ؟ فقالت : على الخبير سقطت إذا قعد بين شعبها الأربع والتقى الختانان فقد وجب الغسل) ^(٢).

ترى لماذا لم تقل الآية (والله بما تعملون عليم) ، الجواب ورد هذا اللفظ في قوله تعالى ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ

(١) مسند أبي يعلى الموصلي ٢٩/٣.

(٢) مسند أبي يعلى الموصلي ١٠/١٨٦.

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ، لبيان إحاطة الله عز وجل علماً بما يفعل الناس .

وكل من (عليم ، وخبير) من أسماء الله عز وجل الحسنی وذكر الخبير في آية البحث لبيان مسائل :

الأولى : توالي فضل الله عز وجل على الناس بما يفيد استدامة الحياة في الدنيا .

الثانية : بيان قانون وهو أن بخل الذين كفروا والذين نافقوا بحقوق الفقراء لا يمنع فضل الله عز وجل عنهم .

وهل يكون من معاني الآية أن الله عز وجل يرزق الذين ييخلون استدراجاً لهم لأنه خير بحالهم ، ويعلم أنهم سييخلون بما يؤتيهم من فضله الجواب ، إنما الرزق رحمة من الله تعالى ، وتدل آية البحث على اقتران الرزق بالإنذار من البخل ، وعلى الترغيب بالإنفاق .

الثالثة : تأكيد قانون وهو أن الخير والشر للعبد ليس وفق ظنه وأمانيه ، إنما يأتي الخير بالتقيد بالأوامر الإلهية ، قال تعالى ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢﴾ ، وتقدير الآية على وجوه منها :

الأول : والله بما تعملون خير لأنه سبحانه أحاط بكل شيء علماً .

الثاني : والله بما تعملون خير لأن أعمالكم حاضرة عنده .

الثالث : انفقوا في الصالحات والله بما تعملون خير .

(١) سورة النور ٢٨ .

(٢) سورة يونس ٣٦ .

الرابع : والله بما تعملون خبير ، فيرزقكم للعمل في طاعته .

بين القرية والمدينة

تحتل النسبة بين المدينة والقرية وجوهاً :

الأول : نسبة العموم والخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء وأخرى للإفتراق .

الثاني : العموم والخصوص المطلق ، وأن المدينة أعم من القرية .

الثالث : التساوي من المدينة والقرية والفارق لفظي وعرفي .

الرابع : التباين وأن المدينة غير القرية .

ولا تعارض في المقام بين الوجوه مع الاختلاف ومع الإختلاف بين هذه الوجوه فلا تعارض بينها ، لأن المدار حسب اللحاظ بالنظر لأي من المدينة والقرية .

وذكرت الآيات من سورة الكهف القرية مرة كما في قوله

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلِهَا فَبُؤُوا أَن يُضَيَّفُوهُمَا فَوَجَدَا

فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يُنْقَضَ فَاَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾^(١) ، ورد

قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ

وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا

وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ

تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(٢) ، إذ أكرم الله عز وجل اليتيمين وحفظ ما لهما

لصلاح أبيهما ، وهو الجدل السابع لهما .

(١) سورة الكهف ٧٧ .

(٢) سورة الكهف ٨٢ .

وذكرت أقوال في التعدد في التسمية بين القرية والمدينة من وجوه :

الأول : جواز إطلاق اسم المدينة على القرية لغة .
الثاني : مما هو متعارف أيام النزول لإطلاق لفظ المدينة على القرية وبالعكس ، وفي التنزيل ﴿وَكَاْنُ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾^(١) ، وقال تعالى ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٢) ، أي مكة والطائف وفي الحديث النبوي : أمرت بقرية تأكل القرى يقولون : يثرب وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد)^(٣) ، والمراد المدينة المنورة وكانت تسمى يثرب .

الثالث : المراد من القرية هو البلد الذي يجتمع فيه الناس مأخوذ من القرى ، وهو التجمع .

الرابع : التفريق بين المدينة والقرية مسألة عرفية فاذا كانت البلدة كبيرة سميت مدينة وإذا كانت صغيرة سميت قرية ، وقال الواحدي : ولما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة { يعني : في تلك القرية^(٤) ، وقال الرازي (أنه تعالى سمى ذلك الموضع قرية حيث قال ﴿إِذَا آتَيْنَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾^(٥) ، وسماه أيضاً مدينة حيث قال (وأمّا الجدار فكان لَغَلامين يَتِيمَينِ فِي الْمَدِينَةِ)^(٦) .

(١) سورة محمد ١٣ .

(٢) سورة الزخرف ٣١ .

(٣) الدر المنثور ١٣٦/٨ .

(٤) الوجيز للواحدي ٤٧٩/١ .

(٥) سورة الكهف ٧٧ .

(٦) تفسير الرازي ٢٤٣/١٠ .

وهذه الوجوه صحيحة ولكن موضوع آية الجدار أعلاه مختلف ،
إذ اجتمع لفظ القرية والمدينة في موضوع متحد .
ولو تردد الأمر بين تعلقهما بموضع واحد أم موضعين ،
فالأصل هو الثاني .

والمختار أن اليتيمين يقيمان في المدينة القريبة من القرية التي فيها
الكنز ، وأنهما أو وصيهما على علم بالكنز ولكن لا يصلان إلى
القرية لصغرهما ويتمها ولا يعلمان أن الجدار يريد أن يسقط
وينكشف الكنز ويأخذه الناس فالكنز في القرية ولكن سكن
الغلامين في المدينة فلو كان وليهما أو أمهما في القرية لالتفتوا إلى أن
الجدار الذي فيه الكنز آيل للسقوط ، وتداركوا الأمر .

فتفضل الله عز وجل وجعل الخضر وموسى عليهما السلام
يقومان بينائه ، لذا قال الخضر ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾^(١) ، إذ أنه
من علم الغيب ، وقال الله تعالى في الآية السابقة لآية البحث في
هذا الجزء ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي
مَنْ رُسُلِهِ مِنْ يَشَاءُ ﴾^(٢) ، وورد ذكر الخضر في الآية من غير ذكر
اسمه ، وهو مقدس في الديانة الإسلامية والمسيحية واليهودية ،
وهو ليس من الأنبياء مما يدل على أن فضل الله في إطلاع من يشاء
على الغيب من الرسل وغير الرسل ، ثم أن الله عز وجل أطلع
موسى على تلك المسائل التي قام بها الخضر ، وعلة كل واحدة
منها .

وعن ابن عباس قال : لما ظهر موسى وقومه على مصر ، أنزل
قومه بمصر ، فلما استقرت بهم الدار أنزل الله { وذكّرهم بأيام

(١) سورة الكهف ٨٢ .

(٢) سورة آل عمران ١٧٩ .

الله^(١)، فخطب قومه فذكر ما آتاهم الله من الخير والنعم ، وذكرهم إذ نجاهم الله من آل فرعون ، وذكرهم هلاك عدوهم وما استخلفهم الله في الأرض ، وقال : كلم الله موسى نبيكم تكليماً واصطفاني لنفسه وأنزل عليّ حجة منه ، وآتاكم من كل شيء سألتموه ، فنييكم أفضل أهل الأرض وأنتم تقرون اليوم .

فلم يترك نعمة أنعمها الله عليهم إلا عرفهم إياها ، فقال له رجل من بني إسرائيل : فهل على الأرض أعلم منك يا نبي الله؟ قال : لا . فبعث الله جبريل إلى موسى فقال : إن الله يقول : وما يدريك أين أضع علمي ، بلى على ساحل البحر رجل أعلم .

قال ابن عباس : هو الخضر . فسأل موسى ربه أن يريه إياه فأوحى الله إليه : أن ائت البحر فإنك تجد على ساحل البحر حوتاً ميتاً فخذ فادفعه إلى فتاك ، ثم الزم شط البحر فإذا نسيت الحوت وذهب منك فثم تجد العبد الصالح الذي تطلب . فلما طال صعود موسى ونصب فيه ، سأل فتاه عن الحوت : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾^(٢) ، لك .

قال الفتى . لقد رأيت الحوت حين اتخذ سبيله في البحر سرباً ، فأعجب ذلك فرجع حتى أتى الصخرة فوجد الحوت ، فجعل الحوت يضرب في البحر ويتبعه موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء ويتبع الحوت ، وجعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة .

(١) سورة ابراهيم ٥.

(٢) سورة الكهف ٦٣.

فجعل نبي الله يعجب من ذلك حتى انتهى الحوت إلى جزيرة من جزائر البحر ، فلقي الخضر بها فسلم عليه ، فقال الخضر :
وعليك السلام . . . وأنى يكون هذا السلام بهذا الأرض ، ومن أنت ، قال : أنا موسى . فقال له الخضر : أصحاب بني إسرائيل؟ فرحب به وقال : ما جاء بك؟ قال : جئتك ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلِمْتَ رُشْدًا﴾ * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿١﴾ ، يقول يقول : لا تطيق ذلك . قال موسى : ﴿سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ ﴿٢﴾ ، فانطلق به وقال له : لا تسألني عن شيء أصنعه حتى أبين لك شأنه . فذلك قوله ﴿حَتَّى أَخْبِرَكَ لَوْ أَنَّكَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ﴿٣﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والخطيب وابن عساكر من طريق هرون بن عنترة ، عن أبيه عن ابن عباس قال : سأل موسى ربه فقال : رب ، أي عبادك أحب إليك؟ قال : الذي يذكرني ولا ينساني .

قال : فأى عبادك أقضى؟ قال : الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى . قال : فأى عبادك أعلم؟ قال : الذي يبتغي علم الناس إلى علمه ، عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى . قال : وقد كان حدث موسى نفسه أنه ليس أحد أعلم منه . قال : رب ، فهل أحد أعلم مني ، قال : نعم . قال : فأين هو ، قيل له : عند الصخرة التي عندها العين.

(١) سورة الكهف ٦٦-٦٧ .

(٢) سورة الكهف ٦٩ .

(٣) سورة الكهف ٧٠ .

فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله وانتهى موسى إليه عند الصخرة ، فسلم كل واحد منهما على صاحبه فقال له موسى :
إني أريد أن تصحبني .

قال : إنك لن تطيق صحبتي . قال : بلى . قال : فإن صحبتني ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾^(١) ، فسار به في البحر حتى انتهى إلى مجمع البحرين ، وليس في البحر مكان أكثر ماء منه .

قال : وبعث الله الخطاف فجعل يستقي منه بمنقاره ، فقال لموسى : كم ترى هذا الخطاف رزاً بمنقاره من الماء؟ قال : ما أقل ما رزاً . . . قال : فإن علمي وعلمك في علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء . وذكر تمام الحديث في خرق السفينة وقتل الغلام وإصلاح الجدار ، فكان قول موسى في الجدار لنفسه شيئاً من الدنيا ، وكان قوله في السفينة وفي الغلام لله عز وجل^(٢) .
وعن الإمام الباقر عليه السلام قال : يحفظ الاطفال بصلاح آبائهم كما حفظ الله الغلامين بصلاح أبييهما^(٣) .

وعن زيد بن علي بن الحسين قال : قرأ : ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ﴾^(٤) ، ثم قال : حفظهما ربهما لصلاح أبييهما ، فمن أولى بحسن الحفظ منا ، رسول الله جدنا وبنته سيدة نساء الجنة امنا وأول من آمن بالله ووحده وصلى أبونا^(٥) .

(١) سورة الكهف ٧٠ .

(٢) الدر المنثور ٦/٣٨٦ .

(٣) البحار ٦٨ / ٢٢٦ .

(٤) سورة الكهف ٨٢ .

(٥) البحار ٢٧ / ٢٠٤ .

وقيل أن اسمي اليتيمين أصرم وصريم^(١).

وعن ابن عباس : كان علماً في مصحف مدفونة ، وقال عمر مولى غفرة كان لوحاً من ذهب قد كتب فيه عجباً للموقن بالرزق كيف يتعب ، وعجباً للموقن بالحساب كيف يغفل ، وعجباً للموقن بالموت كيف يفرح^(٢).

والمختار أن الكنز عنوان جامع للعلم والمال ، وهو الذي يدل عليه ما ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ روى ابن الكلبي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُهُمَا﴾^(٣) ، كَانَ الْكَنْزُ لَوْحاً مِنْ ذَهَبٍ مَكْتُوباً فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَجَبٌ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِالمَوْتِ كَيْفَ يَفْرَحُ ، عَجَبٌ لِمَنْ يُوقِنُ بِالتَّوَدُّعِ كَيْفَ يَحْزَنُ ، عَجَبٌ لِمَنْ يُوقِنُ بِزَوَالِ الدُّنْيَا وَتَقَلُّبِهَا بِأَهْلِهَا كَيْفَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ^(٤).

وروى أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : كان الكنز ذهباً وفضة ، أخرجه الترمذي^(٥).

وقال مقاتل ومجاهد : كل شيء في القرآن من كنز فهو مال غير هنا ، فإنه الصحف التي فيها علم^(٦).

ويمكن تأسيس قاعدة في علم الحديث والقواعد الرجالية ، وهي إذا تعارض الحديث النبوي ضعيف السند مع قول تابعي

(١) الكشف والبيان ١٦٥/٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٣٣٣.

(٣) سورة الكهف ٨٢.

(٤) التكت والعيون ٢/٤٩٦.

(٥) تفسير الخازن ٤/٣٢٧.

(٦) السمرقندي / بحر العلوم ٣/٥٨.

فيؤخذ بالحديث النبوي المرافق للكتاب والسنة خاصة مع وجود قرائن فالمتبادر من لفظ الكنز أنه المال .

ويدل وجود الكنز في القرية على سكن الأب فيها ، ورجحان سكن الغلامين في المدينة على الهجرة من القرية إلى المدينة ، وهو من إعجاز القرآن ومصاديق قوله تعالى ﴿وَزَكَّنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بُيُوتًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١) إذ أن مسألة الهجرة من القرية إلى المدينة عامة البلوى ، وكثيراً ما تشغل الحكومات وتربك منهاجها ، فلقد حفظ الله الكنز بمعجزة منه سبحانه .

ولوبقي الأبناء في القرية لحفظت أموالهم وأراضيهم وزراعاتهم فمن معاني الكنز في الآية أمور :

الأول : الزراعة والحصاد في كل سنة .

الثاني : جني ثمار الأشجار .

الثالث : السكن إذ أن بناء الجدار شاهد على الإعمار.

الرابع : في الآية دعوة للناس لإحياء وتعاهد القرى ومضارب الآباء ومساكن الأجداد ، وغالباً ما يكون اليتيم في قريته أفضل مما لو كان في مدينة كبيرة .

ففي القرية تكون رعايته أكثر كما أن مجتمع القرية بناء اجتماعي منظم ومتناسق ينشأ على العادات والأخلاق الحميدة وبعيد عن الجنايات منه أو عليه في الجملة لموضوعية استقرار المجتمع في المقام ، وهو من اسرار تسمية مكة (أم القرى)^(٢) ، لبيان إنسجام أهلها وأكثرهم من ذرية إسماعيل ، ولأن الناس ترجع إليهم .

(١) سورة النحل ٨٩.

(٢) سورة الأنعام ٩٢.

ولقد أنشئ القرآن والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أفضل نظم للمجتمع الآمن القائم على طاعة الله ، والتقيد بالأحكام الشرعية والتسامح ، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾^(١).

لقد بينت هذه الآيات قانوناً وهو لطف ورحمة الله عز وجل باليتام إذا كان أبوهم مؤمناً ، وفيه بعث للسكينة في نفس المؤمنين في حياتهم ، وهل تشمل هذه الرحمة والعون أبناء المؤمنة أم أنها خاصة بالمؤمنين من الرجال بلحاظ أن المراد من اليتيم هو الذي لم يبلغ الحلم وأبوه ميت ، أما إذا بلغ الحلم فلا يصدق عليه أنه يتيم. الجواب يشمل الحكم أبناء المؤمنات أيضاً لأصالة الإطلاق .

ويمكن تأسيس قانون وهو لو دار الأمر في النعمة والرحمة المحصورة بين الفرد المتحد أو المتعدد ، فالأصل هو الثاني ، قال تعالى ﴿ كُلَّا نُنَادِ هَؤُلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾^(٢) ، ويكون تقدير الآية على وجوه :

الأول : أما الجدار فكان لغلامين أمهما صالحة .

الثاني : أما الجدار فكان لغلامين يتيمين ، وكانت أمهما صالحة ، ولم يرد لفظ جدار في القرآن إلا مرتين بخصوص هذه القصة مع أن لفظ الجدار متعارف ويكثر الناس من استعماله في كل زمان.

(عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إني جئت أبايعك على الهجرة و تركت أبواي يكيان قال : فارجع إليهما فاضحكهما كما أبكيتهما)^(٣) ، وأضاف في الحلية : (وأبى أن يبايعه)^(١).

(١) سورة الحجرات ١٠.

(٢) سورة الإسراء ٢٠.

(٣) المستدرك بتعليق الذهبي ١٦٨/٤ .

(عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: "إياكم والظلم؟ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش؟ فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش"^(١)، وإياكم والشح"^(٢)، فإنما أهلك من كان قبلكم الشح، أمرهم بالقطيعة فقطعوا أرحامهم، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالبخل فبخلوا. فقال رجل: يا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، أي الإسلام أفضل.

قال: أن يسلم المسلمون من لسانك ويدك. قال: يا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، فأبي الهجرة أفضل؟ قال: أن تهجر ما كرهه ربك. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الهجرة هجرتان: هجرة الحاضر^(٣)، وهجرة البادي^(٤)، فأما البادي فيجب إذا دعي، ويطيع إذا أمر، وأما الحاضر فهو أعظمهما بلية^(٥) وأعظمهما أجراً^(٦).

وفي قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾^(٨)، دعوة للحكومات والمؤسسات بالتنمية المستدامة في القرى، وعمارة الريف وانهاش الزراعة وتهيئة مقدماتها وتعزيد

(١) حلية الأولياء ٢٥٠/٧ .

(٢) التفحش: التلفظ والفعل المعتمد والمتكرر بالقبح .

(٣) الشح: أشد ضروب البخل، وإظهار الحرص في القليل والكثير .

(٤) الحاضر: المقيم في المدينة والقرية والريف .

(٥) البادي: أي يقيم في البادية، ومسكنه المضارب والخيام .

(٦) البلية: الشدة والمحنة والمصيبة .

(٧) تحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة ٢٧/٥ .

(٨) سورة الكهف ٨٢ .

الفلاحين ، وتسويق الحاصل وتوفير التعليم في القرى للصبيان والمراهقين لأن الآية ذكرت البيان ، وإرادة ذات الإعمار للإستقرار وحسن نشأة وتربية الأبناء بين الآباء والأمهات في القرى ، ومساعدة الأولاد لأبائهم في العمل ، وفيه قرعة عين للآباء والأمهات بأن يكون أبنائهم عندهم ، ولا يضطر الآباء والأمهات إلى هجران القرية تبعاً للأبناء في إكمال دراستهم .

ليان قانون وهو أن القرآن يدعو إلى استقرار المجتمعات ، وإجتنب الجرائم والجنايات لتكون آية بناء الجدار من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾^(١).

ومن الغايات الحميدة في بناء الجدار السلامة من الحوادث والموت بالهدم وعدم ترك القرى أطلالاً خاصة إذا كان أهلها يعمرونها بالتقوى ، إذ أراد الله عز وجل توارث سنن التقوى في القرية ، وعدم ضياع الأيتام في المدينة ، قال تعالى ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾^(٢).

قانون تعدد لفظ الجلالة في الآية القرآنية

ورد لفظ الجلالة (الله) ثلاث مرات في آية البحث ، وكل مرة يذكر فيها له دلالات بلحاظ أمور:

الأول : موضوع الآية.

الثاني : القرائن والأمارات .

الثالث : مفهوم الآية .

(١) سورة الإسراء ٩ .

(٢) سورة الضحى ٩ .

الرابع : مصاديق الرحمة في ذكر اسم الجلالة .

وذكر لفظ الجلالة مرفوعاً بالضمّة في القرآن (٩٨٠) مرة ومنصوباً بالفتحة (٥٩٢) مرة ، ومجروراً بالكسرة (١١٢٥) ، مرة فيكون المجموع (٢٦٩٧) مرة.

وابتداً نظم القرآن بالبسملة ثم آية الحمد مع الثناء على الله وذكر اسمين من أسمائه الحسنی قال تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ ، وورد لفظ (اللهم) في القرآن خمس مرات منها ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢﴾ .

ومنها لفظ (لله) الذي تكرر (١٤٣) مرة و(تالله) الذي جاء في القرآن تسع مرات و(فالله) الذي تكرر في القرآن ست مرات منها قوله تعالى ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ﴿٣﴾ ، وهذا الحكم من مصاديق ما ورد في آية البحث بقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿٤﴾ ، وورد ذكر (بالله) في القرآن (١٤٣) مرة وورد لفظ (فالله) في القرآن ست مرات ، منها قوله تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٥﴾ .

(١) سورة الفاتحة ١-٣ .

(٢) سورة آل عمران ٢٦ .

(٣) سورة النساء ١٤١ .

(٤) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٥) سورة الأنعام ١٤٩ .

وذكر لفظ (أبالله) مرة واحدة في القرآن في قوله تعالى ﴿قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١)، وهل البخل وحبس الحقوق الشرعية من هذا الإستهزاء والإستخفاف ، الجواب نعم. ومن إعجاز القرآن أن لفظ الجلالة أكثر الألفاظ والكلمات ذكراً في القرآن ، إذ أن عدد المرات التي ورد فيها بالقرآن أكثر من ثلث عدد آيات القرآن.

ومن الآيات ما ذكر فيها اسم الجلالة سبع ، وست ، وخمس ، وأربع مرات ، ومنها ثلاث كما في آية البحث ومنها مرتين أو مرة واحدة ، والآية التي ذكر اسم الله فيها مرة سبع مرات هو آخر آية من سورة المزمل ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصِيَهُ قَبْلَ عِلْمِكُمْ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تَقْدِمُوا أَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

والآيات التي لم يرد فيها لفظ الجلالة أكثر من التي ورد فيها ، ولكن الأمر مختلف إذا احتسبنا الأسماء الحسنی في آيات القرآن خاصة خواتيمها ، ومن الآيات ما تختتم بثلاثة أسماء لله مثل

(١) سورة التوبة ٦٥.

(٢) سورة المزمل ٢٠.

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١)، ومنها ما أختتمت بأربعة من أسماء الله عز وجل مثل قوله تعالى ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ ذِينَ غَيْرِ مُضَارٍ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾^(٢).

ومنها ما ورد فيها عشرة من الأسماء الحسنى وهو قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٣)، وقال تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٤)، وهي أكثر آيات القرآن التي وردت فيها الأسماء الحسنى لله ، كما تكرر فيها لفظ الجلالة لبيان الذي يتصف به .

إن لغة الأعداد وتناسقها في القرآن معجزة قائمة بذاتها ، وجاءت العلوم الحديثة والحاسوب ليسر للمحققين استنتاج علوم ومسائل إعجازية في الجمع والضرب والقسمة في أعداد الآيات والكلمات والحروف ، لتضاف علوم رقمية مستحدثة إلى إعجاز القرآن مع التدبر في معانيها ودلالاتها.

ومن خصائص اسم الجلالة أن الأسماء الحسنى تضاف إليه ولا يضاف إليها .

(١) سورة المائدة ٣٩.

(٢) سورة النساء ١٢.

(٣) سورة الأعراف ١٨٠.

(٤) سورة الحشر ٢٣.

ولا تتعقد تكبيرة الإحرام في الصلاة إلا بذكر الله فلا يقال : الرحمن الرحيم أكبر أو العظيم أكبر ، ولم يسم أحد من الطواغيت نفسه باسم (الله) عز وجل أو ما يفيد ترجمته في اللغات الأخرى وهل هو من الصرفة أي أن الله عز وجل صرفهم عن هذه التسمية الجواب نعم ، إلى جانب أن الذي يدعيها يفضح في قومه ، ويقابل بالسخرية .

وتجراً فرعون وقال ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(١)، فلاقى أشد العذاب في الدنيا إذ غرق في البحر الأحمر هو وجيشه وكان عددهم مليون رجل يلاقون العذاب في عالم البرزخ ويوم القيامة قال تعالى ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾^(٢)، ليكون من إعجاز الآية أعلاه بيان عظيم قدرة الله واجتماع الضدين في آن واحد مع إختلاف الموضوع.

وعن (عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما من يوم طلعت شمسهُ إلا وكل بجنتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، ولا آبت شمسهُ إلا وكل بجنتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً تلفاً.

(١) سورة النازعات ٢٤.

(٢) سورة غافر ٤٥-٤٦.

فأنزل الله في ذلك كله قرآناً في قول الملكين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١)، وأنزل في قولهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً تلفاً ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾^(٢)، إلى قوله {للعسرى} ^(٣) ^(٤) .

وتبين آية البحث قانوناً وهو أن الله عز وجل يكره لعباده البخل ويقيم عليهم الحجة من جهات :

الأولى : القبح الذاتي للقبح .

الثانية : ترشح الأضرار الخاصة والعامة عن البخل .

الثالثة : بيان قانون إنما ييخل الإنسان بفضل الله عز وجل .

اقتراح فتح الكعبة كل يوم برسم وبدل مع بقاء بابها مغلقاً

قال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(٥)

في العشرين من شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة الموافق العاشر من شهر يناير كانون الثاني من السنة ٦٣٠ ميلادية دخل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومعه عشرة آلاف صحابي إلى مكة لإزاحة آثار الأصنام ومفاهيم الشرك عنها وعن الجزيرة إلى يوم القيامة بعد أن نقض المشركون بنود صلح الحديبية ، وهو من

(١) سورة يونس ٢٥ .

(٢) سورة الليل ١-٢ .

(٣) سورة الليل ١٠ .

(٤) الدر المنثور ٥/٢٢٩ .

(٥) سورة آل عمران ٩٦ .

أَسْرَارُ تَسْمِيَّتِهَا أُمُّ الْقُرَى بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(١).

وقبل الفتح بثلاث سنوات قام عشرة آلاف من المشركين بغزو المدينة في معركة الخندق وأحاطوا بها لنحو عشرين ليلة واضطر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لحفر خندق حولها . ومع هذا تسمى عند المؤرخين والمفسرين غزوة الخندق بمعنى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي قام بالغزو ، وتدرس بهذا المعنى في قراءة خاطئة للتأريخ وخلاف المقاصد والوقائع ، ونزل القرآن بما يدل على أن المشركين هم الغزاة إذ سماها الله الأحزاب.

وجاءت سورة كاملة باسمها ، وقال تعالى ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾^(٢).

و(عن ابن عباس قال : أخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعضادتي الباب يوم فتح مكة وقد لاذ الناس بالبيت ، وقال : الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده)^(٣).

وقال تعالى ﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾^(٤).

(١) سورة الشورى ٧.

(٢) سورة الأحزاب ٢٢.

(٣) الكشف والبيان للثعلبي ٢٢٢/٧.

(٤) سورة الأحزاب ٢٠.

وإجتاز يومئذ أربعة من فرسان المشركين الخندق من مكان ضيق منه برئاسة عمرو بن ود العامري ، وهو من أشهر فرسان قريش ، وسأل المسلمين المبارزة ، وقد كان تخلف عن معركة أحد بعد أن جرح في معركة بدر ، وبعد إلحاحه بطلب المبارزة برز له الإمام علي عليه السلام فقتله بآية من عند الله ، ونزل قوله تعالى ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾^(١).

(وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن ابن مسعود أنه كان يقرأ هذا الحرف { وكفى الله المؤمنين القتال }^(٢) بعلي بن أبي طالب)^(٣).

وتدل الآية أعلاه على أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لا يرغبون بالقتال ولا يسعون إلى الغزو ، ولا تصل النوبة للحاجة إليه ، وبذات العدد الذي زحف فيه المشركون في غزوهم المدينة في معركة الخندق ، خرج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة بعدها بثلاث سنوات متوجهاً إلى مكة ليدخلها بخشوع وخضوع ، فلم يدخلها فاتحاً أو قائداً منتصراً ، بل دخلها خافضاً رأسه ، حتى أن لحيته لتكاد تمس راحلته من شدة تواضعه ، وهو يقرأ سورة الفتح .

وعن عبد الله بن مسعود قال (دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ، فجعل يطعنها

بعود في يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل .

(١) سورة الأحزاب ٢٥ .

(٢) سورة الأحزاب ٢٥ .

(٣) الدر المنثور ٨/ ١٤٧ .

جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد) ^(١).

(فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وفي أيديهما الازلام ، فقال: " قاتلهم الله ! لقد علموا ما استقسما بها قط.

ثم دخل البيت فكبر في نواحي البيت وخرج ولم يصل) ^(٢).

وطاف النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالبيت سبعاً على راحلته ، وكان يستلم الركن بمحجن في يده ، لذا اقترحت أن يكون أحد طوابق الطواف خاصاً لقطارات يركبها الحجاج .

وعن (أبي مرة مولى عقيل ، عن أم هانئ ، قالت ، قلت : يا رسول الله ، ألا تنزل في بيوت مكة؟ فأبى واضطرب بالأبطح ^(٣) حتى خرج يوم التروية ، ثم رجع من منى فنزل بالأبطح حتى خرج إلى المدينة ، ولم ينزل بيتاً ولم يظله.

وفي يوم الفتح طاف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالبيت الحرام على راحلته ^(٤).

ثم جلس في ناحية المسجد والناس حوله وأرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة وكان المفتاح **عنده** وقد قتل أبوه وأخوته الأربعة في معركة أحد وقال لبلال (قل له : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمرك أن تأتية

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٥٧١/٣.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٥٧١/٣.

(٣) الأبطح : مسيل فيه دقائق الحصى والجمع الأباطح والبطاح وهو مكان متسع بين مكة ومنى وقال الحموي (والأبطح يضاف إلى مكة ، وإلى منى لأن المسافة بينه وبينهما واحدة وربما كان إلى منى أقرب وهو المحصب وهو خيف بني كنانة وقد قيل أنه ذو طوى وليس به ، وذكر بعضهم أنه إنما سمي أبطح لأن آدم عليه السلام بطح فيه) معجم البلدان ٤١/١.

(٤) الراحلة : البعير الذي يركب في الأسفار ، ويتحمل الأثقال ، ويقع على الذكر والأثقى.

بمفتاح الكعبة فجاء بلال إلى عثمان ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أن تأتيه بمفتاح الكعبة .

فقال عثمان : نعم . فخرج إلى أمه سلافة بنت سعد بن شهيد **الأوسية** ، ورجع بلال إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره أنه قال نعم ، ثم جلس بلال مع الناس ، فقال عثمان لأمه والمفتاح يومئذ عندها : يا أمت ، أعطيني المفتاح ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرسل إلي وأمرني أن آتي به إليه .

فقالت له أمه : أعينك بالله أن تكون الذي تذهب بمأثرة قومك على يديك .

فقال : والله لتدفعنه أو ليأتينك غيري فيأخذه منك . فأدخلته في حجرها وقالت : أي رجل يدخل يده هاهنا فيينما هما على ذلك إذ سمعت صوت أبي بكر وعمر في الدار ، وعمر رافع صوته حين رأى إبطاء عثمان : يا عثمان اخرج . فقالت أمه : يا بني خذ المفتاح ، فلأن تأخذه أنت أحب إلي من أن يأخذه تيم وعدي .

فأخذ عثمان ، فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فناوله إياه ، فلما ناوله إياه فتح الكعبة ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالكعبة فغلقت عليه ومعه أسامة بن زيد ، وبلال بن رباح ، وعثمان بن طلحة ، فمكث فيها ما شاء الله ، وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة . قال ابن عمر : فسألت بلالا أين صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

قال : جعل عمودين عن يمينه ، وعمودا عن يساره ، وثلاثة وراءه . قالوا : ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمفتاح في يده ، ووقف على الباب خالد بن الوليد يذب الناس عن الباب حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(١) .

كان الصحابة والمسلمون الذين جاءوا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في فتح مكة عشرة آلاف ، ولكن وقف شخص واحد هم خالد بن الوليد يمنع الناس من دخول الكعبة ، وذات الأمر يتكرر في هذا الزمان بأن يتولى الحراسة الظاهرة داخل البيت أفراد أفراد قلائل وليكون في مفتاح مكة وقبض النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم له معجزة حسية ، إذ كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً وهو في مكة قبل الهجرة قد دعا عثمان بن طلحة إلى الإسلام .

وأراد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يوماً قبل الهجرة أن يدخل الكعبة فأغلظ له عثمان هذا ونال منه .

وعن عثمان بن طلحة قال : لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة فدعاني إلى الإسلام فقلت يا محمد العجب لك حيث تطمع أن أتبعك وقد خالفت دين قومك وجئت بدين محدث ففرقت جماعتهم وإلفتهم وأذهبت بهاءهم فانصرف وكنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس فأقبل يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فغلظت عليه ونلت منه وحلم عني ثم قال يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت فقلت لقد أهلك قريش يومئذ وذلت فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل عمرت وعزت يومئذ ودخل الكعبة فوقعت كلمته مني موقعا ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال فأردت الإسلام ومقاربة محمد فإذا قومي يزبروني زبرا شديداً ويزرون برأيي فأمسكت عن ذكره فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة جعلت قريش تشفق من رجوعه عليها فهم على ما هم عليه حتى جاء النفير إلى بدر فخرجت فيمن خرج من قومنا وشهدت المشاهد كلها معهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة عام القضية غير الله قلبي عما كان عليه ودخلني الإسلام وجعلت أفكر فيما نحن عليه وما نعبد من حجر لا يسمع

ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر وأنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وظلف أنفسهم عن الدنيا فيقع ذلك مني فأقول ما عمل القوم إلا على الثواب لما يكون بعد الموت وجعلت أحب النظر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن رأيته خارجا من باب بني شيبه يريد منزله بالأبطح فأردت أن آتية وأخذ بيده وأسلم عليه فلم يعزم لي على ذلك وانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم راجعا إلى المدينة ثم عزم لي على الخروج إليه فأدلفت إلى بطن يأجج فألقى خالد بن الوليد فاصطحبنا حتى نزلنا الهدية فما شعرنا إلا بعمر بن العاص فانقمعنا منه وانقمع منا ثم قال أين يريد الرجلان فأخبرناه فقال وأنا أريد الذي تريدان فاصطحبنا جميعا حتى قدمنا المدينة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبايعته على الإسلام وأقمت معه حتى خرجت معه في غزوة الفتح ودخل مكة فقال لي يا عثمان ائت بالمفتاح فأتيته به فأخذه مني ثم دفعه إلي مضطبعا عليه بثوبه وقال خذها تالدة خالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف قال عثمان فلما وليت ناداني إليه فقال ألم يكن الذي قلت لك قال فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة لعلك ستري هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت فقلت بلى أشهد أنك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(١).

وكان بنو عبد الدار عندهم الحجابة أي مفتاح الكعبة ويدهم اللواء يحمله منهم ذو السيف والجاه في الجاهلية قتل منهم تسعة يوم معركة أحد في عقوبة من الله عز وجل لإصرارهم على محاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ويسمى عثمان بن طلحة الحجبي للحجابة ويسمون الشيبين نسبة إلى شيبه بن عثمان بن أبي طلحة.

(١) تاريخ دمشق ٣٨٢/٣٨.

أضعه حيث شئت لبيان أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يضمّر حقداً ، ولا ينتقم من أحد ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

وتسلم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مفتاح الكعبة ومن غير قتال وغزو من مصاديق تفضل الله بانجاز وعده بلحاظ أن إخبار النبي لعثمان بتسليمه المفتاح منه من الوحي والبشارة ، وقد ورد في دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ ، إذ (بدأ بالصفاء فرقى عليه حتى رأى البيت فكبر الله وحده وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم دعا بين ذلك وقال :

مثل هذا ثلاث مرات .
ثم نزل إلى المروة حتى انصبت قدماه رمل في بطن الوادي حتى إذا صعد مشى حتى أتى المروة ، فصنع على المروة مثل ما صنع على الصفا)^(٢).

ودخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الكعبة، فلما انتهى إلى بابها خلع نعليه؛ ودخل معه عثمان بن أبي طلحة ، وبلال ، وأسامة بن زيد، فأغلقوا عليهم الباب طويلاً ثم فتحوه. قال ابن عمر: فكنت أول الناس سبق إليه، فسألت بلالاً: أصلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه ، قال: نعم، ركعتين بين الأسطوانتين المقدمتين وكان على ستة أعمدة)^(٣).

(١) سورة ن ٤.

(٢) الدر المنثور ١/٤٥٢.

(٣) مغازي الواقدي ١/٤٦١.

و(عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفا أسامة بن زيد، ومعه عثمان بن طلحة من الحجة، حتى أناخ في المسجد، فأمر أن يؤتى بمفتاح الكعبة، فدخل ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة فمكث فيه نهارا طويلا، ثم خرج فاستبق الناس، فكان عبد الله بن عمر أول من دخل فوجد بلالا وراء الباب قائما، فسأله: أين صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فأشار إلى المكان الذي صلى فيه.

قال عبد الله: ونسيت أن أسأله كم صلى من سجدة^(١)، والمختار أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى داخل الكعبة وهو المشهور.

وعن الحسن بن الحسن البصري وطاوس (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل يوم الفتح البيت، فصلى فيه ركعتين، ثم خرج وقد لبط^(٢) بالناس حول الكعبة^(٣)).

وهل يدل قوله تعالى ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكُفَّةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾^(٤)، على جواز الصلاة في الكعبة، الجواب نعم، وهو من عطف البيان للتعظيم، وإن كان معنى القيام هنا متعددا، وهو من بركات البيت، وفي الآية مندوحة وسعة، فذات أجر الصلاة في البيت الحرام

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٥٧٤/٢.

(٢) لبط: صرع وسقط على الأرض.

(٣) أخبار مكة للأزرقي ٣٥٠/١.

(٤) سورة المائدة ٩٧.

ولقاعدة لا ضرر ولا ضرار ومنع الحرج في الدين ، وقال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(١).

والإجماع على دخول النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم الفتح الكعبة ، ولم يثبت أنه دخلها في عمرة القضاء خاصة وأن مفتاح الباب كان عند المشركين ، ولكن هل دخلها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع أم لا ، ذهب بعضهم إلى أن دخول الكعبة من سنن الحج اقتداء بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ولم يثبت.

وقال ابن قيم الجوزية (فَزَعَمَ كَثِيرٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُ دَخَلَ الْبَيْتَ فِي حَجَّتِهِ وَيَرَى كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّ دُخُولَ الْبَيْتِ مِنْ سُنَنِ الْحَجِّ اقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ . وَالَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ سُنَّتُهُ أَنَّهُ لَمْ يَدْخُلِ الْبَيْتَ فِي حَجَّتِهِ وَلَا فِي عُمْرَتِهِ وَإِنَّمَا دَخَلَهُ عَامَ الْفَتْحِ)^(٢).

وهل دخول النبي صلى الله عليه وآله وسلم الكعبة من مصاديق صفة المبين في قوله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٣). الجواب نعم ، لموضوعية هذا الدخول في تحقيق ولاية المؤمنين للبيت الحرام وانقطاع ولاية المشركين ، قال تعالى ﴿وَمَا لَهُمْ آلِيعَذِبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ

(١) سورة آل عمران ٩٦.

(٢) زاد المعاد ٢/٢٧٠.

(٣) سورة الفتح ١.

يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾

ومن بركات البيت الحرام وقوله تعالى ﴿إِنْ أَوْلَيْتَ وَضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِكَ كَمَ مَبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢). الشوق العام إلى البيت ، ورجاء أداء الحج والعمرة.

وذكر (أن الكعبة تفتح بحضرة الجرم الغفير من الناس، فيدخلها الجميع متزاحمين فيسمعهم بقدرة الله تعالى، ولم يعلم أن أحداً مات فيها من الزحام إلا سنة إحدى وثمانين وخمسمائة مات فيها أربعة وثلاثون نفراً.

قال ابن النقاش: والكعبة تسع ألف إنسان وإذا انفتح الباب في أيام الموسم دخلها آلاف كثيرة. انتهى. فعلى هذا الكعبة تسع كما ورد أن منى تسع كاتساع الرحم) (٣).

ويبين الرحالة ناصر خسرو (١٠٤٤-١٠٨٨) ميلادية (وصف فتح باب الكعبة بأنه امتازت قبيلة من العرب (٤)، تسمى بني شيبه بحفظ مفتاح باب الكعبة وهم خدمها كان لهم خلع ومشاهرات من سلطان مصر ولهم رئيس بيده المفتاح وحين يجيء يصاحبه خمسة أو ستة أفراد وحين يصلون ينضم إليهم عشرة من الحجاج فيرفعون السلم ويضعونه أمام الباب فيصعد هذا الشيخ ويقف على العتبة ويصعد بعده رجلان ويرفعان الستار والديباج الأصفر يمسك كل

(١) سورة الأنفال ٣٤.

(٢) سورة آل عمران ٩٦.

(٣) تأريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام ٨٠/١.

(٤) بنو شيبه ليسوا قبيلة ، إنما هم فرع من بطن عبد الدار أحد بطون قبيلة قريش .

منهما طرفاً منه بحيث يحجب الشيخ وهو يفتح الباب يفتح الشيخ القفل وينزعه من الخلق بينما الحجاج وقوف أمام الكعبة.

فحين يفتح الباب يرفعون أيديهم بالدعاء فيعرف كل من يسمع صوتهم بمكة إن باب الكعبة قد فتح فيرفع الناس جميعاً أصواتهم عالية ويدعون ربهم.

وتحدث جلجلة عظيمة بالبلد ثم يدخل الشيخ بينما الرجلان يمسكان الستار ويصلي ركعتين^(١)، ثم يعود فيفتح الباب على مصراعيه ويقف على العتبة ويقرأ الخطبة عليهم بصوت مرتفع ويصلي على رسول الله عليه الصلوات والسلام وعلى أهل بيته.

ثم يقف الشيخ وأصحابه على جانبي باب الكعبة بينما يأخذ الحجاج في الصعود ودخول الكعبة فيصلّي كل منهم ركعتين ثم يخرج ويدوم ذلك إلى قرب منتصف النهار ويولون وجوههم أثناء صلاتهم بالكعبة نحو الباب مع جواز التوجه نحو الجوانب الأخرى. وقد أحصيت الناس في وقت كانت الكعبة ممتلئة فيه حتى لم يكن بها مكان لداخل فكانوا عشرين وسبعمئة رجل^(٢).

وعامة حجاج اليمن يشبهون الهنود فكل منهم يتشح بفوطة. وشعورهم متدلّية ولحاهم مضفرة وفي وسط كل منهم حربة قطيفية كالتّي يتمنطق بها الهنود ويقال إن أصل الهنود من اليمن وإن قتالة أصلها كتارة الحربة ثم عربت.

وبفتح باب الكعبة أيام الاثنين والخميس والجمعة من أشهر شعبان ورمضان وشوال فإذا جاء ذو القعدة أغلق الباب^(٣)، لعله

(١) وكأنه بصلاة الركعتين يؤكد الإقتداء بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنه صلى في الكعبة .

(٢) هذا عدد كثير قد لا تستوعبه الكعبة خصوصاً في هذا الزمان وحال البدانة عند شطر من عمار المسجد من الأمصار المختلفة.

لكثرة وفد الحاج في شهر ذي القعدة والخشية من الزحام الشديد داخل الكعبة ، وكان هناك يوم مخصوص للنساء .

وقد أقام ناصر خسرو سبع سنوات في مصر أيام الخليفة الفاطمي المستنصر بالله : أدى خلالها مناسك الحج خمس مرات .
وَألف ناصر خسرو كتابه هذا (سفر نامه) سنة ٤٣٧ هجرية وتوفى سنة (٤٨١) هجرية .

واقترح دخول عمار البيت في الكعبة كل يوم على نحو جماعات مقابل رسم ومبلغ ملائم يدفعه كل واحد منهم يوظف في عمارة البيت ، وفق تقنية علمية عالية ونفق مناسب بأن يدخل المصلون الكعبة من نفق داخل الأرض من غير أن يفتح باب الكعبة ، أو من باب مستحدث ، ويقفون فيه دقائق معدودة ويخرجون على نحو دفعي ومرة واحدة ، ليأتي غيرهم للتحكم المركزي في مدة بقائهم بقدر ست ركعات أو نحوها داخل الكعبة ليحل بعدهم مباشرة جماعة آخرون .

ويرى القائمون على هذا المشروع في حال تطبيقه كيفية الدخول الجماعي المناسب وجهة الدخول ، وأن يكون الدخول والخروج تحت الأرض بسير كهربائي متحرك أو يكون على طريق جسر معلق ، وينزلون بحجر إسماعيل ، ولا يؤثر على المطاف وحركة الطائفين والمصلين .

ليكون فيه ترغيب يومي متجدد للحجاج والمعتمرين وعامة المسلمين لدخول الكعبة وتحقيق التآسي والإقتداء بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في دخوله الكعبة والصلاة فيها مع بقاء باب الكعبة مغلقاً إلا ما تراه الأمانة العامة للمسجد في أوان فتحه .
وكان في السابق للكعبة الشريفة بابان ونافذة .

ويوفر هذا المشروع نفقات إعمار المسجد الحرام وشرط من مرتبات موظفي المسجد ، ولعل ما أنفق على البيت الحرام خلال الثمانين سنة الماضية يعادل ما أنفق عليه على نحو الإطلاق. وتأتي الأموال المستحصلة من هذا المشروع من وفد الحاج من جميع أنحاء العالم.

ويعتبر هذا الاقتراح مع خطة رؤية ٢٠٣٠ الطموحة التي تقوم بالسياحة ، وهذا المشروع المقترح تأسي بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(١).

وهو من مصاديق بركات البيت الحرام. وهذا اقتراح من لبيان جوازه واستحبابه شرعاً ، والأمر متروك لخادم الحرمين الشريفين وولي العهد ، لأنهم أعرف بالحال من جميع جوانبه ، وبما يتضمن جلب المصلحة ودفع المفسدة . ووصف الرحالة جوزيف بتس رحلته لأداء الحج مع سيده الجزائري الذي أعتقه سفره بالسفينة أربعين يوماً من الجزائر إلى الإسكندرية ، ثم التنقل إلى أن وصلوا إلى جدة ليصطحبهم المطوفون إلى مكة المكرمة .

ومما ذكره ما كان يلاقيه الحجاج من السلب والنهب ، فعندما ينال الحاج يأتي اللص ليفك قيدي الجمل الأمامي والخلفي ثم يقتادون الحاج ، وهو نائم على الجمل ، وعندما يتعدون به من القافلة ، أما يقتلونه وإن رأفوا به جردوه عارياً وتركوه . لذا فان نعمة الأمن في الأماكن المقدسة والطريق إليها في هذه الأزمنة نعمة عظيمة لم تتحقق إلا بجهود مضنية .

وذكر بتس أن الكعبة تفتح مرتين كل ستة أسابيع ، ويوماً للرجال ، ويوماً للنساء .

وهناك فترات كان البيت يفتح للناس كل يوم ، ولابد من الإحتراس الشديد ، وحصة زائدة في الرقابة الأمنية الدقيقة بتقنية عالية ويدوية في هذا المشروع في حال تطبيقه .

وصحيح أنه تصح الصلاة داخل الكعبة بالتوجه إلى أي جهة منها ، ولكن لابد من تعيين جهة مخصوصة للعدد الكثير ، والأولى هو الضلع الذي فيه باب الكعبة للتخفيف ، ولا يلزم حصر القبلة حيثئذ بالباب لما قد يحصل معه من الاختلاف والإنشغال بضبط الإستقبال ، والعلم عند الله .

ردود كريمة على بعض الأجزاء الأخيرة من هذا السفر المبارك

- ١- سماحة الإمام شيخ الأزهر.
- ٢- سماحة العلامة الشيخ أ.د. مفتي جمهورية مصر العربية.
- ٣- الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي.
- ٤- سيادة رئيس المحكمة الاتحادية العليا .
- ٥- سيادة القاضي رئيس الادعاء العام .
- ٦- سيادة رئيس مؤسسة الشهداء
- ٧- سيادة القاضي رئيس هيئة الإشراف القضائي.
- ٨- الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب.
- ٩- كلية الإمام الاوزاعي للدراسات الإسلامية/ بيروت.
- ١٠- سعادة أ.د. مدير جامعة الملك فيصل/ المملكة العربية السعودية
- ١١- سعادة أ.د. مدير جامعة كردفان/ الجمهورية السودانية.
- ١٢- سعادة أ.د. مدير الجامعة الإسلامية/ المدينة المنورة.
- ١٣- سعادة أ.د. رئيس الجامعة العراقية.
- ١٤- سعادة أ.د. رئيس جامعة ذي قار / العراق.
- ١٥- سعادة أ.د. رئيس جامعة جدارا/ المملكة الأردنية الهاشمية.
- ١٦- سعادة أ.د. مدير جامعة الأمير عبد القادر/ الجمهورية الجزائرية.

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٩ / ٥
١٨ / ٤ / ٢٠٠٨

الأزهر
مكتبة الإمام الأكبر
شيخ الأزهر

السيد صاحب الفضيلة المرجع الديني الشيخ/ صالح الطائي
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
وبعد.....

فلقد تلقيت بحمد الله رسالتكم الرقيقة وبها الجزء الحادي
والخمسون في تفسير آية واحدة من سورة آل عمران من القرآن الكريم.
نتضرع إلى الله العلي القدير أن يهتمكم العلم النافع وان يجعله
في ميزان حسناتكم.
وشكر الله لكم حسن عملكم
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شيخ الأزهر
محضرها
(الدكتور/ محمد سيد طنطاوي)

في: ١٣ من صفر ١٤٢٩ هـ

الموافق: ٢٠ من فبراير ٢٠٠٨ م

مصطفى عباس □

بسم الله الرحمن الرحيم



المرجع الديني الشيخ/صالح الطائي

صاحب أحسن تفسير للقرآن وأستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...وبعد،
فإنه ليسعدني أن أقدم لسيادتكم بخالص الشكر والتقدير
والإحترام على تفضلكم بإهدائنا نسخة من الجزء الثاني والثمانين.
وأتمنى من الله أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية وأن يسبغ
عليكم نعمه ظاهرة وباطنه وان يوفقنا لما يحبه ويرضاه.
شاكرين لكم، ولكم تحياتي

د. علي جمعة
مفتي جمهورية مصر العربية

ORGANISATION OF ISLAMIC COOPERATION
GENERAL SECRETARIATORGANISATION DE COOPERATION ISLAMIQUE
SECRÉTARIAT GÉNÉRAL

OIC/CAB-01/2012 001010

جدة في: 23 FEB 2012

سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...وبعد،

فقد تسلمنا بيد الشكر والتقدير نسخة من كتاب "معالم الإيمان في تفسير القرآن" الجزء التسعون- الآية ١٣٤ من سورة آل عمران، والذي تفضلتم بإهدائه إلى معالي البروفسور أكمل الدين إحسان أوغلي، الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي، ويشرفنا أن نتقدم إليكم بجزيل شكرنا على جهودكم المتواصلة لتفسير أي الذكر الحكيم، فجزاكم الله عنا خير الجزاء وبارك فيكم وفيما تقومون به من جهد مبارك خدمة للإسلام والمسلمين.

وتفضلوا بقبول وافر الشكر والتقدير.

احمد القوي
مستشار الأمين العام



بسم الله الرحمن الرحيم

كوٲ ماري عيراق

داد كاي بالآي ئيتتيجادي

العدد : ٥١ / مكتب / ٢٠١٩

التاريخ: ١٢ / ٥ / ٢٠١٩



جمهورية العراق

المحكمة الاتحادية العليا

مكتب رئيس المحكمة

سماحة الشيخ صالح الطائي المحترم
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

م/شكر وتقدير

تحية طيبة...

إشارة إلى كتابكم المرقم (١٩/١٠٣٥) المؤرخ ٢٠١٩/٥/٦ .
تسلمنا ببإلغ الإعتزاز إهدائكم نسخة من كتابكم الموسوم ((معالم
الإيمان في تفسير القرآن، الجزء الثمانون بعد المائة)).
نقدم شكرنا وتقديرنا متمنين لكم دوام الموفقية.
مع فائق التقدير

القاضي

مدحت المحمود

رئيس المحكمة الاتحادية العليا

٢٠١٩/٥ / ١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية العراق

مجلس القضاء الاعلى

رئاسة الادعاء العام

المكتب



العدد /
التاريخ / ٢٠١٩/ / ٨

مكتب المرجع الديني
الشيخ صالح الطائي

م/شكر

تحية طيبة

كتابكم ذي العدد ١٩/٢٣ المؤرخ في ٢٠١٩/١/٢.

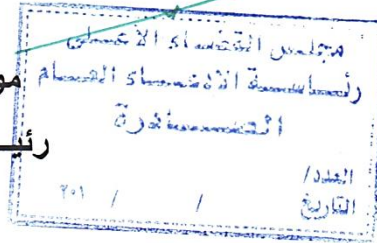
استلمنا هديتكم (الجزء الخامس والسبعين بعد المائة من تفسير القرآن الكريم) ونقدم لكم شكرنا آمليين منكم المزيد من العطاء والتوفيق.
مع التقدير.

القاضي

موفق محمود محمد صالح

رئيس الادعاء العام

٢٠١٩/١/ /



كۆماری عێراق
Republic of Iraq
 سه روکایه تی نه نجومه نی وهزیران
Presidency of Ministers
 دهزگای شه هیدان
Foundation of Martyrs



جمهورية العراق
رئاسة الوزراء
مؤسسة الشهداء

العدد: ١٠٠٠ / ٢٠٣

نُورُ الشُّهداء أمانةٌ في أعناقنا

التاريخ: ٢٠١٩ / ٥ / ٢٣

مكتب رئيس المؤسسة

إلى/سماحة آية الله العظمى المرجع الديني الشيخ (صالح الطائي) "أدام الله ظله"
 م/ شُكر وتقدير

تحية طيبة

في الوقت الذي نبارك لكم الإشراف المنيعة لكتابكم (معالم الإيمان في تفسير القرآن الكريم) الجزء الحادي والثمانين بعد المائة الآية (١٧٩) سورة آل عمران. فأنا نتقدم بالشكر الجزيل لكم على إتحاقنا بهذا السفر القيم داعين المولى تعالى أن يمن عليكم بالسداد والتوفيق.

ناجحة عبد الأمير الشمري
 رئيس مؤسسة الشهداء
 ٢٠١٩/٥/٢٩



بسم الله الرحمن الرحيم

العدد / ٨ / مكتب / ٢٠١٩ / ١٧٩٣
التاريخ / ١٢ / ٥ / ٢٠١٩



جمهورية العراق
مجلس القضاء الأعلى
رئاسة هيئة الإشراف القضائي
مكتب رئيس الإشراف

الى / سماحة الشيخ (صالح الطائي) المحترم
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

م / شكر وتقدير

تلقينا ببالغ الإعتراز كتابكم الموسوم ((معالم الإيمان في تفسير القرآن، الجزء الثمانون بعد المائة)).
وكانت الهدية بواسطة السيد ((عبد الله الشيخ صالح الطائي)).
نقدم شكرنا وتقديرنا متمنين لكم دوام الموفقية .
مع فائق التقدير .

القاضي
جاسم محمد عبود

رئيس هيئة الإشراف القضائي

٢٠١٨/١٢/١١



Arab League
Union of The Arab
Historians
General Secretary



جامعة الدول العربية
اتحاد المؤرخين العرب
الأمانة العامة

العدد: ت/١٥٣
التاريخ: ٢٠ رمضان ١٤٣٩ هـ
الموافق: ٢٠١٨/٦/٥
هجري
ميلادية

إلى/ سماحة المرجع الديني للمسلمين الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق
م/شكر وتقدير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :
وأسأل الله تعالى ان يوفقكم ويحفظكم ويرعاكم انه سميع مجيب الدعاء.
عزيزي سماحة الشيخ المحترم :

تسلمت مع بالغ الشكر وعظيم التقدير والإمتنان هديتكم القيمة والمتمثلة في
الأجزاء (١٦٠-١٦١-١٦٤) من (معالم الإيمان في تفسير القرآن) ان ولوجكم في
هذا الميدان العلمي من التأليف في تفسير القرآن العظيم يعيد الى الأذهان ذكريات
أولئك المفسرين العظماء الكرماء الذين خلدتهم التأريخ بإنجازاتهم العلمية
الوفيرة والنادرة ، وان هذا المؤلف الكبير هو من المؤلفات النادرة حقا في هذا
الزمن الشحيح في علماء التفسير بحيث اعاد الأمل الى نفوس العلماء وطلاب
العلم ، بان ميدان التأليف في هذا الفن العلمي انما هو رافد عظيم من روافد
الفكر الاسلامي الخالد والذي نفتخر ونعتز به ، وأسأل الله تعالى ان يسبغ عليكم
بوافر الصحة ونعمة العافية من اجل اكمال هذا المشروع العلمي الخالد كي نباهي
به الأجيال وكي نؤكد لكافة المسلمين ان هذا الاسلام يظل منبع للعلم والعلماء
من اجل ديمومة هذا العلم الخالد .

اكرر شكري وتقديري على كرمكم الأصيل باهدائكم هذه الاجزاء لنا ،
وأسأله تعالى ان يستمر عطائكم وتأليفكم بانجاز هذا المشروع التاريخي الخالد .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



الأستاذ الدكتور محمد جاسم المشهداني

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

العميد/رئيس الهيئة العلمية لمعهد التاريخ العربي

والتراث العلمي للدراسات العليا



بسم الله الرحمن الرحيم

كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية

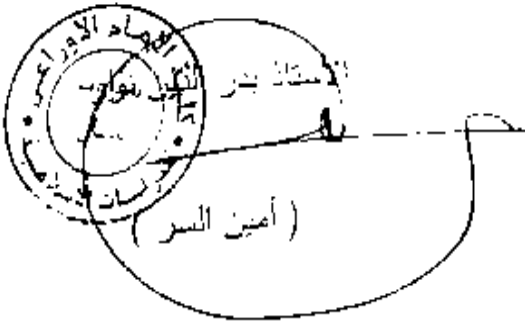
بيروت في ٩/ربيع الأول/١٤٤٠هـ

الموافق ٢٤/١١/٢٠١٨م

سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن
مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تتقدم كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية بأطيب تمنياتها،
وتشكركم على الجزء (١٧١) الذي وصلنا من جانبكم من كتاب: "معالم
الإيمان في تفسير القرآن" والذي يتضمن قراءة في آيتين من القرآن بما يدل
على أن النبي (ص) كان لا يسعى إلى الغزو ولم يقصده ولم يدع إليه.
آملين الإستمرار في إرسال الأجزاء التي ستصدر منها مستقبلاً،
شاكرين لكم حسن تعاونكم الدائم معنا وداعين الله تعالى أن يوفقنا
وإياكم لما فيه خير الإسلام والمسلمين.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



KINGDOM OF SAUDI ARABIA
Ministry of Higher Education
KING FAISAL UNIVERSITY
(037)



الجامعة الإسلامية
وزارة التعليم
جامعة الملك فيصل
(٠٣٧)

الموضوع:

فضيلة الشيخ/ صالح الطائي

الموقع

مكتب المرجع الديني وصاحب أحسن تفسير للقرآن

وأستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

ص.ب - ٢١١٦٨ مملكة البحرين

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد

تلقيت بكل الثناء والتقدير خطاب فضيلتكم رقم ١٦/١٨٦١
وتأريخ ٢٠١٦/٥/٢٠م المرفق طيه نسخة من كتاب بعنوان "معالم
الإيمان في تفسير القرآن" الجزء الثاني والثلاثين بعد المائة.

يطيب لي ويسعدني أشكر فضيلتكم جزيل الشكر على إهتمامكم
المتواصل بتزويد إدارة الجامعة بهذه النسخة ، وستحال إلى مكتبة
الجامعة للإطلاع عليها، سائلاً المولى جلت قدرته للجميع التوفيق
والسداد.

وتقبلوا خالص تحياتي وتقديري،،،

مدير الجامعة

د. عبدالعزيز بن جمال الدين السعاتي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة كردفان UNIVERSITY OF KORDOFAN

Our Ref:
Date:

مكتب المدير
Vice Chancellor Office

النمرة: ... ج ك/م م/١٧/ح/٣
التاريخ: 2016/8/16 م

السادة/ مكتب المرجع الديني
الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تهديكم جامعة كردفان أطيب التحايا ، وتغمرنا السعادة بالإصدارات التي تتوالى إلينا بانتظام من مكتب المرجع الديني في (معالم الإيمان في تفسير القرآن) والذي كان آخر هذه الإصدارات (الجزء السادس والثلاثين بعد المائة) والذي تشرفنا بإستلامه بموجب خطابكم رقم ١٦/١٥٣٥ الصادر في ٢٠١٦/٧/١٣ م، وذلك إثراءاً للمعرفة في مجال تفسير آيات القرآن، خدمة للباحثين والمهتمين بأمر التفسير القرآني، والتي أضحت متاحة في الأقسام المختصة بالمكتبات الأكاديمية في الجامعات ومراكز البحوث وجامعة كردفان تحظى بأعداد وافرة منها في مكتبها المركزية.

ختاماً لكم الشكر والعرفان على هذا الصنيع، نفعلنا الله به، وأثابكم عليه خير الجزاء .

وتفضلوا بقبول فائق عبارات التقدير والإحترام

أ.د. أحمد عبد الله عجب الدور

مدير الجامعة



الرقم ١١٤٦٠ / ١٧ / ٦٥
التاريخ ١٠ / ٢ / ١٤٣٧ هـ
الملاحظات
الموضوع



الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
وزارة التعليم العالي
إمارة المنطقة الشرقية
مكتب المدير
(٠٣٢)

معالي الشيخ/ صالح الطائي سلمه الله
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد

فأسأل الله لمعاليتكم العون والتوفيق، ويسرني إفادتكم بأني تلقيت بكل تقدير وإمتنان إهداءكم للجامعة نسخة من الجزء التاسع بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن).

وإنني إذ أتقدم لمعاليتكم بخالص الشكر والعرفان على هذا الإهداء، لأدعو الله العلي القدير أن يمدكم بعونه وتوفيقه، وأن يسدد خطاكم ويكمل أعمالكم بالنجاح إنه سميع مجيب يحفظكم الله ويرعاكم.

ولكم تميّاتي وتقديري
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مدير الجامعة الإسلامية

أ. د / عبدالرحمن بن عبدالله السند

MINISTRY OF HIGHER EDUCATION
& SCIENTIFIC RESEARCH
THE IRAQIA UNIVERSITY
THE PRESIDENT OFFICE OF UNIVERSITY



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة العراقية
مكتب رئيس الجامعة

NO.:

DATE: / / 201

العدد: ٢٩٢ / ١
التاريخ: ٢٠١٦ / ٤ / ١٠
هـ ١٤٣٧ / ١ / ١٠

المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن

تحية طيبة...

نشكر مبادرتكم الطيبة بإهداءكم لنا نسخة من كتابكم الموسوم الجزء
الثلاثون بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن) سائلين الباري عز
وجل أن يوفقكم في مسيرتكم العلمية والعملية خدمة لبلدنا العزيز.
ومن الله التوفيق...

أ.د. علي صالح حسين

رئيس الجامعة العراقية

٢٠١٦ / ٤ / ١٠ م



العدد: ٦٨٩٠ / ٥٤ / ٧

التاريخ: ٢٠١١ / ٦ / ٨

إلى / مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي

صاحب أحسن تفسير للقرآن

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا...

باعتراز بالغ واعجاب شديد بالجهود الكبيرة لسماحة آية الله
العظمى الشيخ صالح الطائي (دام ظله) في تفسير كتاب الله
العظيم من خلال تلقينا اهداءكم المبارك للجزء (١٣٢، ١٣٣،
١٣٤) من معالم الإيمان في استظهار كنوز من كتاب الله المجيد،
سائلين المولى عز وجل ان يوفق الشيخ الجليل لما فيه خير الدنيا
والآخرة وخدمة الإسلام والمسلمين .

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا...

أ. د. رياض شنته جبر
رئيس جامعة ذي قار
٢٠١٦ / ٦ / ٨

Jadara University

Office of the President



جامعة جدارا

مكتب الرئيس

Ref. 1. 1 2 3 4 5 6 7 8 9 10 11 12 13 14 15 16 17 18 19 20 21 22 23 24 25 26 27 28 29 30 31 32 33 34 35 36 37 38 39 40 41 42 43 44 45 46 47 48 49 50 51 52 53 54 55 56 57 58 59 60 61 62 63 64 65 66 67 68 69 70 71 72 73 74 75 76 77 78 79 80 81 82 83 84 85 86 87 88 89 90 91 92 93 94 95 96 97 98 99 100 101 102 103 104 105 106 107 108 109 110 111 112 113 114 115 116 117 118 119 120 121 122 123 124 125 126 127 128 129 130 131 132 133 134 135 136 137 138 139 140 141 142 143 144 145 146 147 148 149 150 151 152 153 154 155 156 157 158 159 160 161 162 163 164 165 166 167 168 169 170 171 172 173 174 175 176 177 178 179 180 181 182 183 184 185 186 187 188 189 190 191 192 193 194 195 196 197 198 199 200 201 202 203 204 205 206 207 208 209 210 211 212 213 214 215 216 217 218 219 220 221 222 223 224 225 226 227 228 229 230 231 232 233 234 235 236 237 238 239 240 241 242 243 244 245 246 247 248 249 250 251 252 253 254 255 256 257 258 259 260 261 262 263 264 265 266 267 268 269 270 271 272 273 274 275 276 277 278 279 280 281 282 283 284 285 286 287 288 289 290 291 292 293 294 295 296 297 298 299 300 301 302 303 304 305 306 307 308 309 310 311 312 313 314 315 316 317 318 319 320 321 322 323 324 325 326 327 328 329 330 331 332 333 334 335 336 337 338 339 340 341 342 343 344 345 346 347 348 349 350 351 352 353 354 355 356 357 358 359 360 361 362 363 364 365 366 367 368 369 370 371 372 373 374 375 376 377 378 379 380 381 382 383 384 385 386 387 388 389 390 391 392 393 394 395 396 397 398 399 400 401 402 403 404 405 406 407 408 409 410 411 412 413 414 415 416 417 418 419 420 421 422 423 424 425 426 427 428 429 430 431 432 433 434 435 436 437 438 439 440 441 442 443 444 445 446 447 448 449 450 451 452 453 454 455 456 457 458 459 460 461 462 463 464 465 466 467 468 469 470 471 472 473 474 475 476 477 478 479 480 481 482 483 484 485 486 487 488 489 490 491 492 493 494 495 496 497 498 499 500 501 502 503 504 505 506 507 508 509 510 511 512 513 514 515 516 517 518 519 520 521 522 523 524 525 526 527 528 529 530 531 532 533 534 535 536 537 538 539 540 541 542 543 544 545 546 547 548 549 550 551 552 553 554 555 556 557 558 559 560 561 562 563 564 565 566 567 568 569 570 571 572 573 574 575 576 577 578 579 580 581 582 583 584 585 586 587 588 589 590 591 592 593 594 595 596 597 598 599 600 601 602 603 604 605 606 607 608 609 610 611 612 613 614 615 616 617 618 619 620 621 622 623 624 625 626 627 628 629 630 631 632 633 634 635 636 637 638 639 640 641 642 643 644 645 646 647 648 649 650 651 652 653 654 655 656 657 658 659 660 661 662 663 664 665 666 667 668 669 670 671 672 673 674 675 676 677 678 679 680 681 682 683 684 685 686 687 688 689 690 691 692 693 694 695 696 697 698 699 700 701 702 703 704 705 706 707 708 709 710 711 712 713 714 715 716 717 718 719 720 721 722 723 724 725 726 727 728 729 730 731 732 733 734 735 736 737 738 739 740 741 742 743 744 745 746 747 748 749 750 751 752 753 754 755 756 757 758 759 760 761 762 763 764 765 766 767 768 769 770 771 772 773 774 775 776 777 778 779 780 781 782 783 784 785 786 787 788 789 790 791 792 793 794 795 796 797 798 799 800 801 802 803 804 805 806 807 808 809 810 811 812 813 814 815 816 817 818 819 820 821 822 823 824 825 826 827 828 829 830 831 832 833 834 835 836 837 838 839 840 841 842 843 844 845 846 847 848 849 850 851 852 853 854 855 856 857 858 859 860 861 862 863 864 865 866 867 868 869 870 871 872 873 874 875 876 877 878 879 880 881 882 883 884 885 886 887 888 889 890 891 892 893 894 895 896 897 898 899 900 901 902 903 904 905 906 907 908 909 910 911 912 913 914 915 916 917 918 919 920 921 922 923 924 925 926 927 928 929 930 931 932 933 934 935 936 937 938 939 940 941 942 943 944 945 946 947 948 949 950 951 952 953 954 955 956 957 958 959 960 961 962 963 964 965 966 967 968 969 970 971 972 973 974 975 976 977 978 979 980 981 982 983 984 985 986 987 988 989 990 991 992 993 994 995 996 997 998 999 1000 1001 1002 1003 1004 1005 1006 1007 1008 1009 1010 1011 1012 1013 1014 1015 1016 1017 1018 1019 1020 1021 1022 1023 1024 1025 1026 1027 1028 1029 1030 1031 1032 1033 1034 1035 1036 1037 1038 1039 10

الرقم ٥١٨: ١١١ ٧٧ ٧٧

Date _____

التاريخ ١٦/٢/١٤٢٩ هـ

الموافق ٥ شعبان ١٤٤٥ هـ

سيادة الأخ الشيخ صالح الطائي المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم

وأستاذ الفقه والأصول والأخلاق

بكل فخر وإعتزاز تلقيت رسالتكم الموقرة التي تحمل العدد (٥٣٢) تأريخ ٢٦/٥/٢٠١٢م، ومرفقها الجزء التسعون من التفسير في الآية (١٣٣) من سورة آل عمران.

وانني إذ أشكركم جزيل الشكر وعظيم الإمتنان على اهدائكم هذا، سائلاً المولى عز وجل أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية، وأن يجعلكم سنداً وذخراً للأمة الإسلامية متمنياً لكم كل التقدم والإزدهار.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رئيس الجامعة

أ. د محمد الطعمانيه

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



رئاسة الجامعة

قسنطينة، في: 2015/03/25

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية

قسنطينة

رقم 498... / رج / 2014

إلى السيد المحترم / مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي صاحب أحسن تفسير للقرآن

تحية طيبة وبعد :

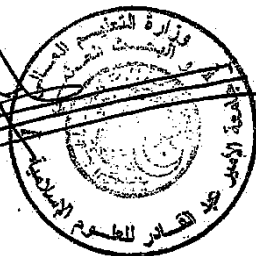
تلقينا نحن أ.د/ عبدالله بوخلخال مدير جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، هديتكم القيمة المتمثلة في كتاب (معالم الإيمان في تفسير القرآن) الجزء الثالث عشر بعد المائة.

وإذ نعبر لكم عن شكرنا على هذه الإلتفاتة الكريمة، نهديكم نحن بدورنا نسخة من مجلة الجامعة العدد ٣٣ ونسخة من نشرة أخبار الجامعة.

تقبلوا فائق الاحترام والتقدير.

مدير الجامعة

أ.د. عبدالله بوخلخال



الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة	٢٠٢	الحاجة إلى آية البحث
١٩	الآية ١٨٠ - الإعراب واللغة	٢٠٧	الصلة بين أول وآخر الآية
٢٤	بحث نحوي	٢١٢	من غايات الآية
٢٨	في سياق الآيات	٢١٣	إعجاز آية البحث
٤٦	أصل الإستصحاب يوم أحد	٢١٧	التفسير (وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَيَّخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)
٦٨	الصلة بين خاتمتي الآيتين	٢٣٣	بحث بلاغي
١١٦	صلة خاتمة آية البحث بآية السياق	٢٣٤	قانون الصدقة حرب على البخل
١٦٥	إعجاز الآية الذاتي	٢٤٩	بين الصدقة والزكاة
١٦٩	إعجاز الآية الغيري	٢٤٩	(هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ)
١٧٨	فصول الآية	٢٥٠	قانون الإمهال
١٨٠	الآية سلاح	٢٥٩	قوله تعالى (سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)
١٨١	مفهوم الآية	٢٦٧	(وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)
١٨٦	إفاضات الآية	٢٧١	تفسير (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)
١٩٣	الآية لطف	٢٧٥	بين القرية والمدينة
١٩٦	الآية بشارة	٢٨٦	قانون تعدد لفظ الجلالة في الآية القرآنية
١٩٧	الآية إنذار	٢٩١	اقترح فتح الكعبة كل يوم برسم وبدل مع بقاء بابها مغلقاً
١٩٩	الآية رحمة	٣٠١	ردود كريمة
٢٠١	الآية موعظة	٣١٨	الفهرس

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

١٦٩٠ لسنة ٢٠١٩